الرصاص المسكوب فى القلوب

بقلم

محمد بهاء الدين فودة

الرصاص المسكوب في القلوب..!
المؤلف : محمد بهاء الدين فودة
الطبعة الأولي ٢٠١٢

دار الحـلم للنشر والتوزيع
القاهرة ،٤ شارع الأشراف - تقسيم العسال - شارع
مؤسسة الزكاة - المرج

موبايل :
01141824562
:E-Mail
dar_el7elm@hotmail.com
المدير العام :
د/اسلام فتحى

تصميم الغلاف :
أسامة علام

إخراج داخلي :
إبــداع للـدعـاية والإعـلان

رقم الايداع : ٢٠١٢/٢٠٩٤٨

الترقيم الدولي : ٦-١٥-٦٤١٢-٩٧٧-٩٧٨

إستهلال

الواقع فى هذه الحكاية يعلو الخيال ، وقد يقول قائل شبعنا من الكلام والحكى ! ، ومن السكوت وقلة الحيلة ، ومن المفاوضات المباشرة وغير المباشرة ، والدوائر المتعرجة وغير المتعرجة المستديرة ، بعد أن عركتنا التجارب بما فيها الحروب وتأكد لدينا أن الدول الكبرى لن تسمح لعدونا أن ينهزم !

آه .. إسمحوا لى أولا أن أتذكر هدى ! ، بنت جميلة فى العشرين تخرجت لتوها ،حالمة طول الوقت وهذه عقبة كئود تحول بينها وبين العمل .. بل وبين الخروج من البيت أصلا من فرط ماكانت تحلم أحلام يقظة تدير فيها حوارا مع شخوص لايراهم غيرها ! و بصوت مسموع كأن بها مس إنتابها بغتة . وأحيانا كان الصمت لغة عندما يكون الحوار مع فرد من أفراد المملكة الحيوانية ! أو النباتية لاسيما أشجار الحور ! ، تلك التى يطيب لها دوما أن تخلط بينها وبين الحور المقصورات فى الخيام ، (الشهيرة فى آى الذكر الحكيم !) عنما تقف أمام المرآة تتفقد عودها والبشر يملأ صفحة وجهها متمتمة :

- ماأشبهنى بها !

وعندما يكون الحوار مع جماد فحدث ولا حرج ، وبالذات عنما يكون الجماد ألة من آلات النجارة ، أو سيلرة أبيها التى كثيرا ماكانت تغافله فى وقت نومه ليلا وهجوع أفراد شرطة المرور ، وتسرقها لتقوم بجولة فى شوارع المدينة الخالية .. وكانت قيادة الطائرة أحد أهم أحلام يقظتها وذات ليلة أفاقت من حلمها على صوت يزعق زعيقا يوشك أن يصم أذنيها :

- كيف تقودين طائرة فى السماء وأنت لا تقودين سيلرة على الأرض؟!

ومن ليلتها وهى تواظب على التمرين حتى أتقنت قيادتها ، واطمأن فؤاد والدها الذى كان يتظاهر بعدم الإنتباه إلى صوت هدير المحرك فى الجراج يملأ جنبات البيت ويزيده سكون الليل عجيجا حتى لا يساهم باعتراضه فى تعقيد حالتها دون أن يشعر .

ودون جدوى حفيت أقدام الوالد المسكين مجاهد النجار (مهنة ولقبا !) ، وإبنة عمه والدتها الملتاعة زينه بين خلوات مشايخ الجن وراء البطاح فى الفيافى ، وبين متاهات أساطين الطب النفسى بالإستروح فى المشافى ! سواء العامة أو الخاصة فى حواضر موطنها سيناء شمالا وجنوبا أو فى حاضرة الإسماعيلية موطن جامعنها التى تخرجت منها

مهندسة زراعية تعرف كيف تجعل الأرض تضحك بالخير .
لكن (وعلى حد قول المثل الشيء بالشيء يذكر) ماكان عند أسرتها أرضا ، فقد ضاعت أرضهم فى « أم الرشراش " فى ١٠ مارس عام ١٩٤٩، بعد ساعات قليلة من توقيع إتفاق الهدنة بين مصر والكيان الهلامى الناشيء الذى لا يعرف للآن حدوده ! . عندما مسح « الرائد أسحق رابين « حبرها قبل أن يجف وكتبه بالدماء الزاهرة لثلاثمائة وخمسين ضابطا وجنديا .. هم أفراد حامية الشرطة المصرية التى كانت تحرس القرية الهامة الواقعة على خليج العقبة ، وفى ذات الوقت تدير طريق الحج القديم إلى الأراضى الحجازية ، فاصما الجسد العربى الواحد إلى شطرين أحدهما شرقى والآخر غربى لحين إشعار آخر!
تعلقت شغاف قلب هدى إذن بآل عائلتها لأبيها وأمها ، دون أن تعرف إن كان قد بقى أحدا منهم هنالك ، وحلمت كثيرا بالعودة إلى بيتهم القديم الذى لم يحك لها عنه أحد ، بيت جدها الشهيد فى أم الرشراش
وكان حبها لمادة التاريخ مضرب الأمثال فى مدرسة البنات الثانوبة برفح !
وبالذات حين يتعلق الأمر بالمواقف الشجاعة لمن رفعوا بالحكمة والموعظة الحسنة وممارسة العلوم التطبيقية ورباط الخيل ألوية المسلمين عاليا .. هؤلاء الذين اقتفوا أثر النبى الكريم وساروا على دربه بالفرآن ومكارم الأخلاق فأثروا العالمين بنور العدالة والحرية والمساواة فلا فرق بين عربى ولا أعجمى إلا بتقوى الله الرزاق بخيرات خزائن لا تنفذ لمن يبحث عن خلاص ومنفذ !
قد تفجرت مواهبها وحبها تاريخ الوطن الذى يعيش فيها وتعيش فيه على المنفذ البرى لرفح فى وقت مبكر جدا وهى بعد بادرة فى المرحلة الإلزامية ، وتعمق وهى تقرأ عن عصر وقف فيه جندى إنسان من جند الله فى ذاك الميدان « عابدين « يقسم أنه أبدا لن يورث بعد اليوم وشعبه ! ، والذى لايضاهيه فى أيامها هذه إلا موقف الزعيم الشهيد الذى أبكى الجميع وهو محاصر يهتف :
- يا جبل ما يهزك ريح !
ينبوع الشعر تفجر! فكانت أول قصيدة ألقتها فى إذاعة « طابور الصباح « وطنبة وعلى ماتذكر نالت الإستحسان من معلميها وإدارة المدرسة وجائزة تفوق !
وإذ هى تفكر وتنزلق رويدا للدخول فى حلم جديد بغرفة نومها المطلة على الساحة

الحدودية الفاصلة بين رفح المصرية وشقيقتها التوأم الفلسطينية تناهى إلى سمعها فى الحلم الذى بدأ ينسج خيوطه صوت مناد يروج بضاعته منشدا :

عطار وجراح للأرض ياصامدين قولوا لمن يضم المهد

هيا نداوى جراح فلسطين ونعصر الأمل فى فم الغد !

- ١ -

هرولت إلى البلكون وأطلت فرأت رجلا مسنا يحمل على كاهله جوالا منتفخا لبائع متجول تتدلى لحيته الكثة الناصعة البياض على صدره ، فارتسمت فى مخيلتها صورة إنبعثت مما إستقر فى أعماقها من عهد الطفولة حيث كانت تدمن رسوم الأطفال فى التلفاز والمجلات المعربة ونادت بصوت يسمعه :

- بابا .. بابا نويل !

ولوحت له بيدها ولنوها إستتلت تشدو مكملة له بصوت جهورى :

- نزرع أشجار الزيتون والتين .. فى ثرى شهداء الحق والمجد

وننزع من جرافات عدو مهين .. أنياب حب النفس والفرد !

رفع البائع (وقد خيل إليها أنها شبهته بمن لا يحب) عينين صافيتين يشوبهما عتب خفيف إليها مرسلا مع ذلك بسمة تشى بشدة رقته من وراء عوينات زجاجية وتريث ثمة لتحدث رسالته أثرها على إبنة عصرها قبل أن يرد تحيتها ملوحا بدوره وينشد :

- من بفؤاده مخاوف سنين .. فى بصره برق وسمعه رعد !

نبدد بالبخور والياسمين .. غاز ودخان النشريد والطرد

نزيل حواجز السور اللعين .. نبنى بيوت العز والسؤدد

دعوة للفكر من عقل مكين .. خبر مآسى الحقد الأسود .

وكأنه مجرد تتابع أدوار لأحداث فى مسرحية تداخل رجل بعبر السبيل بينهما معجبا وهمهم :

- نرجع لله رب البشر أجمعين .. فلماذا نطفو كغثاء الزبد !

وجاوبه آخر ظهر وهو يترنم :

- العدالة والتقوى زينة العابدين .. ومفتاح خزائن الرزق الشهد

كونوا للخلاق عبادا صالحين .. أرض الميعاد لمن له سجد .

ولسبب ما تراجعت هدى الحالمة خطوة للخلف كأنها لا تصدق ما سمعت ثم تقدمت وكأنها استوثقت وهتفت متسائلة فى شبه التياع :

- أفتونى بربكم كيف يستعين .. بمن بالفسق والقتل صعد

يدعى خلافة رب العالمين .. وبيمينه رأس رضيع شهد

بمذبحه العذارى والطاهرين .. سال دم الشرف المبدد
يأبى لدولته خريطة تعين .. حارس ودارس لعمل محدد
وجاوبتها إمرأة برزت على حين غرة من بلكون البيت المجاور تسرسع بصوت عال ممرور :
- حلم حاخام يا حالمين .. يا عقلاء بيت الأمن والرغد
من النيل للفرات مستوطنين .. وأوطان عربية تهود
إقطعوا أيدى من يهين .. عقولكم بادعاء كرم المحتد
وأتى شيخ معمم يركض فى خطوه وصاح على إستعجال :
- يزور قرآنكم وأنتم ساكتين .. سكوت شيطان خريج المعبد
حديد ونار لأعين الأقربين .. ولحاخام الحائط ماء الورد !
وهطع إليهم جندى من حرس السياج الفاصل وهو يلوح بهراوة فى يده منتهرا :
- الحدود واضحة يا طامعين .. ومن بداخله يلعب ثعلب وفهد !
فانبرى له الشيخ معاتبا بقوله :
- ما هذه روح صلاح الدين .. ونصره بحطين على قلب الأسد
إختل ميزان التقويم للعادلين .. معبر ما ورد أم صادق الوعد
وتبسمت هدى بسمة قديرة وبقوة واتتها فجأة من حيث لا تعلم غمغمت :
- إن لم يكونوا إخوة محبين .. فهم دمى من خشب الورد !
لاتستقبلوهم دمى أو محتضرين .. فآخر وردة لم تمت بعد !
إنفرط عقد المنشدين دونما حاجة لهراوة الجندى على هذا الجانب من ميناء أو معبر رفح ، وانتبهت هدى إلى نفسها لدى سماع مكبرات صوت تأتى من ناحبة البحر بتحذير ،لإخلاء المنطقة الواقعة على الجانب الفلسطينى من السور فإن الطائرات ستقصف !
وفى لحظات كانت أربع طائرات مغيرة (واحدة تلو الأخرى) ، ترمى حمولتها من صواريخ الأعماق شديدة الإنفجار فوق الخلاء العازل بين رفح الفلسطينية والسور ، لهدم الأنفاق التى يعبر من خلالها كل المحرم تداوله من المواد التى لاغنى عنها لبقاء البشر على قيد الحياة !، فى مواقع محددة رسمتها فى وقت سابق بذكاء طائرات تجسس بدون طيار وأقمار صناعية !
وقد ألف القوم سماع التحذيرات فلم يعبأوا بها ولا بالقصف الذى كان يخالف معاهدة

السلام ، ولم تنقطع الحركة عبر الأنفاق رغم الخسائر وكأنها غير حقيقية وأضغاث أحلام ! كما ألفوا سماع تهديدات قادة إسرائيل بعملية عسكرية كبيرة ، فى إعلان واضح عن ندمهم للإنسحاب من القطاع ، الذى حرمهم من إمتلاك هذا الشريط الحدودى على محور « فيلا دلفيا « كما يحلو لهم تسميته ، ربما حنينا لأصل من أصول بلادهم التى هاجروا منها ! ، ومحوا لتسميته محور صلاح الدين التى يؤثرها الأهلين على جانبيه حنينا لاريب للبطل الناصر ! وبدعوى أنه يتم من خلاله عبر الأنفاق ، التى يتجاوز عددها الألف ! تهريب الرجال والسلاح ، لاسيما الصواريخ التى ترشق مدنه ومستوطناته الجنوبية من « سديروت حتى عسقلان « التى تبعد أكثر من أربعين كيلومترا عن غزة ، ومع ذلك طالتها صواريخ (جراد) المصنعة فى الصين وإيران ، تمييزا لها عن صواريخ الكاتيوشا الأقل مدى التى كان فى حوزة المقاومة منها أعداد لا أهمية لها فقد صارت تصنع محليا فى ورش الحدادة بإسم (القسام) نسبة إلى عز الدين القسام أحد قادة وشهداء المقاومة .

***

الفتاة الحالمة هدى إذن كانت تحيا مع أبوين عثر بهما أحد الأقارب بين أنقاض أم الرشراش ، فانتشلهما وفر بحياتهما وهما فى سن الرضاع إلى هذا البلد ـ وتعهدهما بالحماية والرعاية حتى شبا عن الطوق فزوجهما لبعضهما ثم رحل فى إباء وصمت عن الدنيا .

ولم تكن أطلال قريتها الحبيبة سببا وحيدا لتعاظم جيشان حلمها كلما أطلت من بعيد وصوبت أنظارها جنوبا وشرقا وتخيلتها ! لسبب وجدانى آخر فقد تمت خطبتها إلى شاب يؤكد والدها أنه من أصوله فهو إبن لأحد أبناء عمومته ! ، والذى للأسف لايمكنها أن تهاتفه لدواع قيل أنها أمنية !

وهى لم تعرف له عنوانا مستقرا منذ عهد الدراسة الجامعية حيث زاملها فى كلية الزراعة وشجعها على الإنخراط بفريق فتيات الجامعة لممارسة رياضة تشتهر بها شعوب « جنوب شرق آسيا « ، على الرغم من أنها لم تكن رياضته المفضلة فقد كان بعشيرة الجوالة ! ، والتى تفوقت بها حتى نالت جائزة على مستوى مسابقات الفتيات فى أسبوع

شباب الجامعات فى أخر سنة دراسية ، وأملت فى أحلام يقظتها أن تتفوق على مستوى مناطق تلك الرياضة بكافة أنحاء الجمهورية وتتأهل لمسابقة عالمية ، لولا أنها تخرجت وانقطعت (بتخرجها) كل صلة لها بتلك الرياضة التى كان سر ولعها بها أنها تضمن لمن يجيدها الثقة فى قدرته الدفاع عن تفسه وعلى حد قول مدربة الفريق :

- ما أحوج الإناث على وجه الأرض ! .. لتعلم رياضة الدفاع عن النفس ضد التحرش الذى تزايد فى هذا الزمن !

فهل فقدها عنوانه كان لتلك الدواعى أيضا ؟!

إنه لا يعيش مع أبيه الذى قيل أن أحد الجيران إنتشله هو الآخر من حطام القرية وهو بعد رضيع وهرب به شمالا إلى أن إستقر به فى رام الله فأصبح فلسطينيا !، نفس القصة تكررت باختلاف بسيط ، هو أن والده تزوج مصرية من بنات محافظة الشرقية تصادف وجودها فى رام الله ، ومن ثم كان من حقه جنسيتها المثبتة فى شهادة ميلاده وكذا شهادات الميلاد الخاصة بأبيه وجده الصادرة من الأحوال المدنية المصرية قبل ١٠ ملرس عام ١٩٤٩ وإن اختلف الحال منذ هذا التاريخ وللآن فالأوراق والأختام القديمة هى الفيصل والمرجع ! دونما حاجة تخصه للتعديل الذى صدر فيما بعد على قانون الجنسية المصرى الذى أعطى أبناء المصرية من أجنبى كافة حقوق المواطنة .

مأساة بكل المعايير أن تنقسم العائلة وتتشرذم على هذا النحو ، ويبدو أن أسرتها المستقبلية ستنقسم كذلك ! فهل يكون هذا الوعى المبكر من أسباب الإنقسام الذى يقع بين وقت وآخر بين الأشقاء فى الضفة وغزة ؟! وإن كان نعم فما سر إنقسام الأشقاء بدون وعى فى كل ربوع الأرض العربية ؟!

أأم الرشراش قريتها الحبيبة أضحت بوقوعها فى الأسر المطل الوحيد للعدو على البحر الأحمر الذى لم يعد (لهذا السبب وحده) بحيرة عربية كما كان فى الأيام الخوالى ؟!

رباه فيم تفكر ثانية ؟! .. إنها مصرية وفلسطينية فى آن كما خطيبها .. والسلطلت على الجانبين تعترف بذك وهذا هو المهم .. فهكذا الحال على الحدود فى كل بقاع الأرض .. ثم ما الفارق ؟ .. إنها وهو وجميع الأهلين عرب .. أتكون أم الرشراش مثلهم منقسمة الهوية ؟!

ناقشت ذاك السؤال مع والدها ذات ليلة غاب فيها القمر فى السماء وفى بلكون غرفتها فلم تقف على حقيقة ما أشع من محياه من معان وهو يغمغم :

- نالت مصر « طابا » بالتحكيم الدولى لأن إسرائيل أخفقت فيما ادعته من أنها فلسطينية وكأن كل ماهو فلسطينى مستباح لها ؟!

تساءلت فى بساطة :

- ألا يمكن استرداد أم الرشراش بنفس الحكم فهى إمتداد طبيعى لها ؟

أجابها وهو يتململ ويحدق فى اللامنظور حتى برقت فى الظلام عيناه :

- لم تكن هناك ثمة حدود أو علامات مرسومة على الأرض بين أرض فلسطين وأرض مصر ....

ولم تقنعها إجابته وهتفت بحرارة

- ولكن الشهداء ضباطا وجنودا .. وفيهم رفات جدى العزيز يشهد على مصريتها !

وبلهجة عانى كثيرا حتى تخرج بالحد الأدنى الواجب من الحماسة قال :

- بالطبع مصرية ! .. مافى ذلك شك .. مصرية .. مصرية !

وتركها وذهب مكتفيا وهو يتفرسها بإشفاق إبان إبتعاده ربما مخافة أن بساورها حلم من أحلامها الطائشة فتدب الحياة فى سيرة الآباء والأجداد وينقلب الحلم حقيقة !

كان يمشى على أطراف أصابعه تجيش فى نفسه آلام وشجون كأنه فعلا يتوقع أن تنطلق من القبور أرواح الأسلاف قاصدة أذرع وأفئدة ووجنات البنات والأولاد من أبناء هذا الجيل المتطلع للنصر والحرية وتكون إنتفاضة لاتبقى ولا تذر !

أما هى فيبدو أنها لم تكن قد توافرت لها من قوة التخيل بعد مايمكنها من تحقيق مخاوف والدها بحيث تنزلق بحلمها إلى ما تحت الأرض ! ولم تشعر بذهابه فى تلك الآونة ومضت فى الظلام تفكر ..

قد أنجبتها أمها على كبر فى آخر فرصة وآخر حبات العنقود تسقط ! وهكذا تأكد لوالديها أنه لم يكن بأحدهما عيب وأنها إرادة الخالق وحده ، ووالدها الذى كان يقضى النهار كله قابعا فى ورشته أسفل البيت يصنع الأبواب والشبابيك حتى غذاءه كانت أمها تهبط به إليه ، وكانت حريصة على تلك المهمة الصعبة وهو يشق حزنه من عدم الإنجاب بشق ألواح الأخشاب ودق المسامير ، وتغالى فى ذلك لتتلكأ معه وتستوثق بما تبديه له من مشاعر صادقة وما تستجديه منه من نظرات الرضى ولو تظاهرا ما يطمئنها إلى أنه لن يشق حياتهما معا بمنشاره وأنه لن يتزوج عليها ! .. فإذا ما خلص الكلام ولم تجد غير لفت نظره إلى الطعام ذكرته بأنه يوشك أن يبترد مع برودة مشاعره أو بالأحرى

ما يتظاهر به ! مما كان يضطره أحيانا إلى نهرها لتصعد فهو لن يذوق لقمة مما أعدت حتى يفرغ مما يعد !

وكثيرا ما كانت دموعها تفر من عينيها وهى تتباعد وفى تلكما العينين نظرة عاتبة مثيرة للعطف ، وكان الخبيث كثيرا ما يلمحها ببهجة طلية ! وهو يختلس النظر إليها ، فقد كان يعترف لنفسه فقط أن بينهما أواشج تضرب بجذورها فى شجرة العائلة التى تظللهما بالعشرة الطيبة والمشاعر الدافئة طوال حياتهما .

وفى المساء كانت هدى تنهى فروضها المدرسية بعد أوبة والدها من صلاة العشاء فى المسجد القريب مع نفر من حرس الحدود وجيرانه ، وتتأهب لتناول طعام العشاء معهما وقد تمت نعمة الله عليهما بها ، ومن ثم تنخرط فى احاديث السمر المسائ مع بعضهم أو مع التلفاز ! وهى جالسة بينهما فى أحضانهما ، وعندما يتوغل الليل قليلا كان ثلاثتهم يأوون إلى الفراش حتى ينبلج صبح اليوم التالى مع دعاء الكروان وتسبيحه فتصحو وصوت دبيب أقدام الأب على الدرج الخشبى الموصل بين الطابق الأول والثانى (بعد أداء صلاة الفجر) يختلط مع زقزقة العصافير وهديل الحمام وحمحمته معه !

وتغير الحال فى المرحلة الجامعية فالأمسيات الدافئة والأصباح الشجية صارت مجرد ذكريات جميلة بالنسبة لها لأن جامعتها كانت بعيدة .. وحمدا لله أن سنين الدراسة لم تزد على أربع قضتها بالمدينة الجامعية داخل الأسوار مع زميلاتها فمرت كالريح ، وعاد شمل الأسرة الصغيرة يلتئم حول التلفاز الذى كان يبث الأخبار وقضايا الرأى العام من خلال الفنوات الفضائية التى كان الأب شديد الولع بها يتابعها بأعصابه فتصدر عنه أصوات الإستحسان أو الإستهجان وأحيانا دون أن يشعر أصوات أخرى من صدره كانها حشرجة معاناة صعوبة فى التنفس وفى الحقيقة صعوبة فى حبس التعبير عن الضجر لانعدام حيلته وشدة تراحمه وكأنه يوشك أن يثب داخل الجهاز ليفعل شيئا ! لمن يتعذب ويبث شكواه !!

وعندما علم بقصة فتى المرحلة الإبتدائية الذى إستقل حافلة من ميدان التحرير بالقاهرة إلى العريش وحاول التسلل من معبر رفح فى غفلة من حراسه ولما سألوه « لماذا « أجاب كأنه لا يقول شيئا وبرصانة غبر معهودة فيمن هم فى مثل سنه أو حرج موقفه :

- كى أفك سحر من الأسر !

- ومن سحر ؟

- الفلسطينية الحامل التى جاءها المخاض فى المعتقل !

لم يتحمل إنفعاله بما سمع ، ولأن البث كان مباشرا هب من جلسته قاصدا إختصار الوقت بالقفز من البلكون ، ليلحق بالفتى عند المعبر ويحتويه بين أحضانه قبل أن يتم ترحيله على متن الحافلة العائدة للقاهرة ، لولا أن امسكت بتلابيبه هدى وأمها التى راحت تولول وتعزى سر أحلام إبنتها الغريبة إلى الوراثة ! فعاد لصوابه بعض الشىء وهبط الدرج الفاصل بين الردهة العلوية حيث مجلس السمر والتلفاز إلى الردهة السفلية حيث باب الخروج واثبا ملهوفا حتى كاد أن ينزلق وتندق عنقه !

وعندما بلغ الحشد أخفق فى النفاذ إلى الصف الأمامى لشدة الزحام ، فأرجأ المحاولة إلى وقت آخر ، واكتفى بمشاركة الجموع فى الصف الخلفى إستدارة الأعين مما يسرده الفتى على مسامعهم ، وقد توزع شعورهم الذى إتقد وتوحد بين الإعجاب به والعطف عليه وعلى صاحبة المأساة السيدة الفلسطينية المعتقلة .

وجاء وقت زفر فيه الفتى من عمق صدره الرهيف المحمل بالأثقال زفرة حرى واستتلى فائلا :

- جننت لما سمعت أن السجان أبو قلب حجر يرفض فك قيودها إستجابة لرجاء الطبيب المولد حتى يمكنه العمل .. و .. حتى يمكن للوالدة الشهيق والزفير والصراخ وإستجماع ما تبقى لها من قوة الدفع وفك أسر الوليد الأسير !

فهاجت الجموع وماجت إنفعالا وارتفعت الأيدى عاليا تصب جام غضبها ، بعضها فى قبضات تهدد وتتوعد وبعضها فى أكف تشكو وتتحسبن ، وصاحب ذلك حركة تململت فيها أقدام البعض على الأرض كأنهم يقبضون على الجمر وهم برددون « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ! « وجمجم البعض معقبا باستنكار « ليس مع هؤلاء ! « ومع الشد والجذب واختلاف الآراء إنفتحت ثغرات وجاءت الفرصة السانحة التى ترقبها النجار لشق الصفوف !

كان يروم أن يغرقه لثما وعناقا ودموعا وفى اللحظة التى تمكن فبها من النفاذ إليه مدافعا الحشد بشق الأنفس بكتفيه القويتين ، كان الفتى قد أنهى قولته من حيث كانت وقفته على باب الحافلة فاجتذبته يد من الداخل وأغلق الباب دونه وانطلقت الحافلة من فورها فعاد آسفا كسيفا يردد لنفسه كالمذهول :

- رحل !

وبدا محبطا يكبت دموعه كيلا يراها أحد ..
كان فى حال تدعو للرثاء والحزن مما أبكى هدى وزينه فتشجع وأنشج نشيجا محزنا وكرر مشيحا بوجهه فى شبه ذهول :
- سافر .. سافر !
وبقيت هذه الحادثة لوقت طويل عالقة بالأذهان ، وممسكة بخناق البيوت فى الرفحين وغزة .
كان جيشان الأحزان من عمق المغزى والمثل الذى ضربه طفل للكبار فى التراحم والمشاركة مثيرا لوجدان هدى إثارة كافية لأحلام يقظتها ، فشكت أنمل إبهامها بدبوس إلتقطته من شعرها وعلى الفور تفصدت منه نقطة من الدم اتخذنها مدادا كتبت به على زجاج بلكون مخدعها الذى تقضى به معظم أوقاتها عنوانا يقول « شجرة تنمو فى غزة ! « وتعاظم الحلم وتخيلت أن العنوان تكاثر وكبر حتى صار قصيدة شعرية مكتوبة على ثوب ترتديه الأم المعتقلة سحر التى تبدت لها على الزجاج والأغلال فى يديها ورجليها تضم وليدها إلى صدرها وترنو إليه بعينيها والقمر يرسل ضياءه الفضى حولهما ويشع منهما داخلا الغرفة وهى جالسة على السرير تتسمع بانفعال صامت مصبور لصوتها الأسير الخفيض فى أذن وليدها وهى تهدهده وترضعه منشدة :

يا شجرة الكلمة الطيبة .. بدمعتى تكاثرى فى قريتى
إبعثى أنساما ندية .. تنفخ الروح فى زنزانتى
ومن الأنجم الزاهرة .. بصيص نور فى ظلمتى
تين وزيتون غزة .. يغذيان جنين بذرتى

وتخيلت نفسها وهى على الفراش تردد معها مترنمة بتأثر :

أبدا لا أعانى وحدة .. ولا حصارا فى محنتى
مثلك أنا شامخة .. أتداوى برطب نخلتى
أرفع أنامل شاكرة .. وعينان تبثان شكوتى
آيات الكتاب نافذة.. لربيع قلبى وعزتى
ريحها تهب دائمة .. على مدار حصنى ومنعتى !

وعلى حين غرة حطت طيور خضر وهاجة الأجنحة لها رؤوس ووجوه أطفال ملائكية كأنها لأبرار الجنة على سياج البلكون وراحت تزقو وتغرد كأنها تشاركهما الإنشاد مرددة :

يا قتلة الأنبياء قاطبة .. لن تنالوا أبدا رشفتى
لدينى ووطنى حافظة .. أبى وزوجى وعترتى
تنهال الأسواط لاهبة .. ظل أبى وزوجى وزهوتى
رأيتهما من عين سحرية .. يرتقان الأمل لشقوتى
ولسبب ما (لعلها تعليمات قائد خفى لأوركسترا البلكون فى حلمها !) سكتت جميع الأصوات وألفت هدى نفسها تغنى فى صوت بدأ قويا ثم تخافت لاكتشافها بكل الدهش أنها تغنى وحدها قائلة :
لن أبالى أية أسلحة .. تسرق عصمتى ووجدانى
وأجفلت كأنها تطلب الغوث من الأسيرة فجاوبتها تلك على زجاج البلكون منشدة بدورها وسط الضياء الذى اشتد لسبب ما أيضا حتى كاد أن يصنع هالة :
الإيمان للأمن كفالة .. وأمانة الغد فى أحشائى
تضرب بأرجل واثقة .. جدران عزتى وكيانى
مع قلة الغذاء وفقره .. ينمو من دمى وعظامى
يا شجرة الكلمة الأبية .. ببسمتى أنيرى ولادتى !
وسكتت كأنها تتسمع شدو الطيور التى ناحت بصوت ضعيف ذاهل :
أتانى المخاض فى أوله .. يا سجان فك قيد حريتى
لألد ولادة أنسية طبيعية .. بإقليم الشرك أوسطى !
وبلغ الإنفعال بها كل مبلغ وعلا صوتها مرددا بقوة بغتة :
اعطنى نسيم الحرية .. استمع لنصح طبيبتى
اعتقنى هذه الساعة .. لأضع مشد ظهرى وبهجتى
تحذر مسنقة حبل سرة .. ودمار إنفجار حمض نووى
ياشجرة الكلمة الطيبة .. بصرختى أنشرى قصتى !
وهبت هدى من السرير واقفة وألقت بأوراق فى الهواء كانت بيدها طول الوقت وصاحت :
بكاء وليد يخيف سجانه .. فى الخيال والأغانى
أسير جديد يسجلونه .. مجرد رقم لا إنسانى
وجاوبتها الطيور مرددة بعين الصوت الوانى المتناهى :

الحزن بعينيه يوهن أمه .. بأى ذنب ولد يعانى
خداع النفس ياذراف الأمة .. عار لرأس الهلالى !
وتمتمت الأسيرة وهى تنقشع وتتلاشى عن الزجاج :
عدونا يعدها صفقة .. لمقايضة الأسرى بالمبادى
فقط يعرف لغة القوة .. ذكروه بالأقوى فى العلالى
لضمان عدالة المبادلة .. بعيدا عن سراب الأمانى
يا شجرة الكلمة الواعية .. انفضى جليد نسيانى
وفى ذات اللحظة التى انقشعت فيها صورتها رفت الطيور بأجنحتها الوهاجة وألقت وجوهها الملائكية بسمة على سبيل تحية الوداع على هدى التى وثبت صوب البلكون فى إثرها بعدما اختفت جزعة ترجوها ألا تتركها فريسة للوحدة والبطالة من العمل ولما أيقنت أنها ذهبت إلى غير رجعة آبت تدمدم آسفة فى شرود :
الفوضى الخلاقة نظام للغفلة .. وحسنة تستدعى الفكر النازى
ترويع تجويع محاكمة مبهمة .. الدفاع متهم والمدعى قاضى
رغام إظلام فى أعين محكمة .. إعدام البراءة والمحامى راضى
دفاع عن النفس ذبح المرحمة .. وعذارى أضاحى أمن نادى
ضحية بريئة بمحرقة الضحية ..عالم يطفف الكيل بكف الغازى
افئدة حجرية ألباب مهلبية .. أعين زجاجية لإرضاء الجانى
قرارات أمنية عدالة ثأرية .. النصر بالغدر حامى للسامى !
قنابل عنقودية وانشطارية .. أعين فى الغمام سلاح ماضى
أشلاء رضع بمعارض دولية .. ورد أحمر وإبداع علمانى
يا شجرة الكلمة الصامدة .. بدموعها ترعرعى فى مدينتى

- ٢ -

لم يكن من قبيل ترف المشاعر والتمرمر الوطنى (أو القومى) أن تغرورق عينا الأب بالدموع كلما وقعت على مشهد يذكره بمسيرة حياة البشر الصعبة التى الغلبة فيها للأقوى ، تلك التى كان يخفيها كيلا تراها إبنته وتحلم حلما مزعجا آخر ! ، فإذا ما اشتد به الكرب وكان بالقرب منها فزع إلى أدنى نافذة أو بلكون ليطل منها على لا شىء !

وفى الغالب كانت قطرات الدمع تناثر على زجاج النافذة وتفضحه ! تاركة أثرا محزنا عليها لفترة طويلة إبان إلتفاته يمنة أو يسرة أو للخلف فى توتر ليتيقن من أن أحدا لايراقبه ! أو وهو يبارح المكان متعثر الخطى تتقاذفه إنفعالات شتى تعبر عن إنهياره النفسى والعصبى و عن حرصه ليبدو الرجل الأب أو الزوج القوى !

وكان بمجرد هبوطه درج الطابق الثانى إلى الردهة السفلية يختفى دون أن يسمع أحد صوت الباب الخارجى يفتح أو يوصد ..

وعندما كانت زوجته تفتقده .. كانت تبحث عنه فى كل مكان فلا تعثر له على أثر وكأن الأرض (تحت البيت) انشقت وابتلعته فهو (ياإلهى بالتأكيد) لم يخرج منه !

وكان هذا يخلف علامة استفهام كبرى فكرت هدى طويلا وكثيرا أن تجد لها إجابة ذات مرة فتابعت من طرف خفى أقدامه ودبيبها الذى (يرقع) الدرج ويوحى كأنه يهرب من دموعه أو بالأحرى بها ويوشك أن ينكفىء على وجهه « كارا « الدرجات الباقية وأنفه وجبينه يدميان بالمكتوب الذى رأته العين !

آنئذ وجب فؤادها بهلع ووثبت كل الدرجات كأنها طارت فى الهواء لتعينه قبل السقوط فاستدار هو إليها وتلقاها بقوة جسد وقوة أبوته بين ذراعيه قبل أن تهوى كالذبيحة على آخر درجة ولمحت فى عينيه الحنو والفضول فلم تجسر على إطالة النظر وآبت إلى حجرتها وهى تغالب مزيجا من الخزى والندم والأسف ! وقبعت بها طويلا تفكر فى الحماقة التى أقدمت عليها وكادت أن تكلفها حياتها وتمشط شعرها فى غياب ذهن وماهو إلا أن جاء وانتبهت إلى أنامله الحنون تربت على كتفها قائلا :

- هادى آت الليلة ..

إلتفتت إليه بفضول فتبسم وعاجلها بمفاجأة ثانية قبل أن يزايلها أثر المفاجأة الأولى مستطردا دفعة واحدة كأنه لا يقول شيئا :

- ليعقد قرانك !

وبالطبع إنعقد لسانها للحظات وودت لو استطاعت أن تأمر فؤادها أن يكف عن دق أجراس الفرح بشدة ليعطى كامل الفرصة لإنطلاق تلك الصيحة الحبيسة المهذبة الأشبه بالشهقة من الباحة الفسيحة ذات الأضلاع والأعمدة التى لا تسعه وإذ أخفقت إتقد محياها بحمرة الخفر وتمتمت متسائلة وعيناها إلى الأرض :

- صحيح ؟!

وما لبثت أن ظهرت أمها « زينه « على باب الغرفة وهى تخطر وتتهادى فحدثت نفسها « هذه أمى هى الأخرى تمشى مشيتها الطيبة التى تنتمى دوما لفؤاد عامر أكثر من انتمائها لدلال نفس آمر ! .. وإلى رخاء حياتها مع هذا الزوج الحنون .. وإلى إنبساطها وسعادتها بما سمعت من خبر مفاجىء مجنون ! .. تسبقها إبتسامة بشر توسعية وومیض حدب وتحنان يأبى أن يفارق عيناها الأمومية ! «

ولا غرو فهى أيضا أم العروس المستحية التى أسندت رأسها على صدرها حتى لا تفضح عيناها كلفها وبهجتها التى لا توصف بما تحمله بين راحتيها وعلى باطن ساعديها من دثار حريرى أبيض كالقشدة هو بعينه على حد صدح الغنوة المحببة التى اندلعت عن جهاز بث مكير فى الصالة وفى صدرها :

- فستان الفرح ياحبايب !

والذى ألقت به على ركبتيها وهى جالسة إلى المرآة تتشاغل بتمشيط شعرها المرسل فلما استراح الفستان على تلكما الركبتين المرتعشتين راحت تجدله خصلات فى عصبية وتتساءل :

- كيف تنقلب دفة الحياة على هذا النحو فى سرعة البرق !

وتوا كأنه ترتيب إندلع فى الصالة فى تك اللحظة المارش البهيج المصاحب لأفراح كل البنات :

- يا دبلة الخطوبة عقبى لنا كلنا !

فلم تتحمل خفقان قلبها وهتفت به كأنها تلومه :

- كف أيها القلب الأرعن عن الخفقان !

ولكن أنى له ذلك وهى تعانى تلك المرة من حلم حقيقى جميل لا من أحلام يقظتها ! ورفعت عينيها عن الفستان إلى أمها وأتحفتها بأجمل نظرة لا تؤاتى البنت إلا إن أصابها

التوفيق مع أول نصيب فى الحياة وشهقت بحبور فانتقل اللمعان من لؤلؤ الفستان إلى لؤلؤ العينين برهة خاطفة وتمتمت فى همس :

- ما كل هذا يا أمى ؟!

لم تكن تسأل ولكن كان عليها أن تقول شيئا تغالب به أحاسيسها وإلا قضت عليها ! فأسرعت تلك التى تفهمها أكثر من نفسها قائلة وهى تهدهد الفستان ذات اليمين وذات الشمال دون أن ترفعه أكثر مما يلزم لتفحصه بعجب ! :

- فستان الفرح يا حبيبتى !

- أى فرح ؟

عاجلتها وبالطبع لم تكن تتساءل وإنما بغت أن تشنف أذنيها المرة تلو المرة بأجمل الكلام (بعد كلام ربيع القلوب) واوشكت زينه أن تجيب :

- فرحى !

قاصدة بذلك أنه كان فستان فرحها حفظته لها ، لتلك الليلة المباركة ، من فعل السنين وفى اللحظة المناسبة ألجمت لسانها وتمتمت :

- فرحك !

وسكتت هنيهة ثم أضافت كأنها تغنى :

- إتمخطرى يا حلوة يازينه !

فجاوبها المذياع بالخارج :

- ياوردة من جوه جنبنه !

وكأنهما على اتفاق وليس محض صدفة فأغرقت الإثنتان فى الضحك عجبا وتبادلتا الأحضان والقبلات وجاء وقت بدت فيه الأم وكأنها تذكرت شيئا هاما فتركت نفسها على سجيتها ، ومضت تخطر فى أرجاء الغرفة كأنها ترقص وتردد فى إنتشاء :

- زينه .. زينه .. زينه .. زينه أنا .. زينه أنا !

وثانية داعبهما المذياع وبدا يردد غنوة :

- زينه غالية علينا ! .. زى ضى عنينا !

فتبادلت كلتاهما فى وقت واحد نظرة فضول جادة هذه المرة وخرجتا إلى الردهة وكانت المفاجأة أن الأب هو الذى وراء هذا التدبير الظريف وأنه يداعبهما وقهقه ثلاثتهم وارتمت الإبنة فى أحضان الأب وهى تنهنه فى سعادة غامرة حتى أدمعت عيناها وعادت

الأم تخطر جذلة كأنها ترقص حتى أنه بعد أن كفكف أدمع حبيبته غمغم ملاطفا :
- شباب يا إمراة .. شباب .. كفاك .. أنت والله زينه !
واضافت له هدى وهى تدفن وجهها فى حنايا صدره :
- واسم على مسمى يا أبى !
كان نادرا ما يغازل الأب الأم أمام إبنته .. بل كان نادرا ما يغازلها إبتداء ولذلك لم تكف وتمادت فى دلالها إستجابة أيضا لذكريات أفراح الشباب وجيشان مشاعر تلك اللحظة التى تنتظرها كل أم وبدت كأنها أخذت على المرأة (التى تجاوزت الستين) كل جوارحها فأمسكت حبيبة قلبها من منكبيها مبتعدة بها عن أحضان أبيها وراحت تدور بها بخفة غير متوقعة راقصة قاطعة أرجاء الردهة ولسبب ما لعله خجل أنثوى مفاجىء إنسابت بإبنتها داخلة غرفتها بعيدا عن أعين الأب ! الذى كان ما يزال واقفا فى مكانه لا يتحرك ، وكانت وقفته على مقربة من الباب المفتوح على وسعه فلم يفلح سعى زينه فى التخفى الأنثوى الراغب فى التبدى !
ومع أنه كان يحرص على ألا يعطل وجوده الخشن سيلان الفرحة ! فإنه بدلا من إدارة ظهره أو أخذ جانب إستخفه هو الآخر الجذل وطفق يتراقص بدوره (رقص الرجال) دون أن يبارح مكانه ولاحظت الأم والإبنة أنه يراقص نفسه فأشفقتا عليه ودفعت الأم إبنتها (التى إستسلمت لها) إليه لدهشته وفرحته ليأخذ دوره فى مراقصتها ودار بها دورة ثم أعادها إلى الأم ليتشارك الثلاثة فى رقصة واحدة وهى بينهما حيرى ولكن فرحة لا تفكر أنى تذهب بخفة شبابها بين هذين الأبوين العجوزين الذى أعادهما العرس المرتقب لشبابهما الضائع وحيويتهما المفتقدة .. آه .. تأوهت وهى تتذكر الأحداث الجسام على جانبى المعبر وارسلت نظرات ضارعة عبر زجاج البلكون إلى السماء شاكرة ربها داعية ألا ليت الفرح يزور بيتهم وكل بيوت الجيران .. بل كل البيوت فى الوطن (وكل الأوطان) كل يوم !
وعلى غير توقع توقفت زينه وخشيت هدى أن يكون ما بذلته من جهد قد أثر على قلبها فتسمرت تنظر إليها وقد إتسعت حدقتاها مع أنها تدرك أن القلوب تنتعش وتقوى بالفرح !.. فما بال هذه الأم الحبيبة ؟ .. آه يالها ..إنها تحدق فى محياها كأنها تراها بعد طول غياب ! أو لأول مرة ! .. ثم هاهى تبتسم إبتسامة ماكرة تضمر من أسباب الفرح ما يجعلها تطير لا أن ترقص فحسب ! .. وارتيمت فى عينيها علامة استفهام عما

تنوى أن تفعل وقد دست يدها فى صدرها الوثير المتسع ؟! .. آه .. أخرجت منه علبة لا بأس بحجمها من القطيفة الحمراء وأودعتها بكل الحب والبهجة بين يديها مزيلة ماران عليهما من ندى التوتر والقلق قائلة وكأنها لا يهمها كأم بعدما نالت أعز أمانيها فى الحياة الدنيا أن تجود بآخر أنفاسها :

- مبارك عليك .. إنها ليلتك وحلم حياتى !

وتعالى صوت المذياع الخبيث فى تلك الآونه مغنيا « هذه ليلتى وحلم حياتى « فشهقتا شهقة المفاجأة وتفقدتا الأب ! آه .. إنه هو بعينه يداعبهما كعادته التى إكتسبها حديثا فى تلك الليلة ! وغمرهما المزيد من الإعجاب والرضى وهتفت زينه كأنها تعلن خفة ظل زوجها للعالم بأسره :

- لم أكن أعلم أنه رقيق وظريف إلى هذا الحد !

واشرأبت هدى بعنقها للأمام ووقفت على أناملها وهى تضم العلبة الحمراء إلى صدرها وتنادى عليه كأنها طفلة صغيرة تلعب مع أبيها لعبة الغميضة :

- إظهر وبان عليك الأمان !

وظهر الأب واثبا كأنه يلاعبهما فعلا واجتذب ما بين يدى إبنته نظره واهنمامه فتساءل :

- ما هذا ؟

ولم يدم سؤاله غير لحظة إذ فتحت إبنته « العلبة « وهى تحملق فى أمها كأنها تتساءل كيف اتسع صدرها لها وكيف ثبتت فى مكانها وهى ترقص ؟! وطالعتهم على الفور مجموعة من الحلى واللآلىء الثمينة وشهت هدى فرحا وعجبا وصاحت :

- يا ربى .. هذا كله .. لى ؟!

- نعم لك يا حبيبة أمك فأنت عروس الليلة ..

- ولكنها على مايبدو غالية جدا و ..

- ماتغلى عليك .. ما لى غيرك !

- تخصك .. تخص ذكرياتك يا أمى ؟!

- بل تخص ذكريات .. آه .. قد جاءتنى صدفة من قريب ما زال بأم الرشراش !

- إذن فهى من .. آه يا أمى آه !

قالتها ثم ارتمت فى أحضانها وأنشجت مستعبرة جهيشا محزنا وكأنها استعادت لتوها ذكرى أليمة لا يمحوها الزمن لأم أخرى عزيزة وكبرى .. وكانت فعلا ولم تزل كذلك ..

وانخرطت الإثنتان فى نهنهة مشتركة لها ما يبررها ولدرجة لم تتحملها أعصاب الأب الذى توفز واضطرب وأوشك أن يفقد رباطة جأشه لولا أن تصاعد فى عين الآونة صوت دق متتابع له رنين ممتلىء وغليظ كأنه آت من باطن الأرض ! لطارق دق طويلا ولم يسمعه أحد .. وفهم النجار من أين يأتى الصوت فهو خبير بالخشب ! وهمهم معلنا عن شخصية القادم فى ضجة :

- العريس وآله !

وسكت برهة قبل أن يؤكد لهما أنهم جاءوا من المعبر ، دون أن بعطيهما فرصة للتفكير فى أهمية أن يؤكد ، وفى إجابة لسؤال تبادر إلى ذهنهما من شدة حذره وحرصه « كيف نفذ وآله من بوابة المعبر المغلقة ؟! « وأكثر من ذلك حرصه وهو يخرج على إغلاق باب الغرفة خلفه متذرعا بأنه من المستحب ألا يرى أحد العروس قبل تمام زينتها دون أن يفطن إلى أن ذلك محال وهى بعيدة بالطابق العلوى !.. فماذا يبغى أن يخفى هذا الرجل ؟ .. أهناك أمر جلل لا تعرفانه على قدر مكثه النهار بطوله وعرضه فى ورشته بما لا يتساوى وطول وعرض إنتاجه ! .. أم أنه مجرد إرتباك طبيعى عابر لوالد العروس ، ثم إن صرير الباب الخارجى المميز لم يعلو عند فتحه قبل أن يجرف سيل السلامات والتحيات ما عداه من أصوات فى الداخل والخارج ! والذى ظل على درجة واحدة فلم يرتفع ولم ينخفض وكأن أقدام الضيوف تسمرت بالباب ولم تمض إلى غرفة الأستقبال ! وجاء وقت صعد فيه مجاهد النجار وطرق باب خدر العروس فى تلهف كأنه يستعجل فتح « هويس « أحد أنهار الجنة وفتحت زينه الباب وهى توسع له الخطى ، مشيرة بطول ذراعها ناحية أحد الأركان إلى مخلوق نورانى يرتدى أبيض فى أبيض من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، بحركة إستعراضية لطيفة إنثنت فيها ساقها اليمنى حتى الركبة ورأسها حتى إلتصقت الذقن بالصدر ، كأنها تعرض عليه رؤية مفاجأة هائلة لم يتوقعها أحد فى ليلة أسطورية من ليالى ألف ليلة ، تحلم فيه فتاة كعادتها وقد تمت زينتها أنها إحدى « حور العين « قد استعدت لتغنى « هذه ليلتى وحلم حياتى « وفتح الأب (الذى لم يعر حركة الأم إهتماما) فاه على الرغم مما فيها من جمال يصل إلى حد الإبداع فلم يرها فى حياته موهوبة بهذه المقدرة الفائقة على التمثيل والتظرف ! ، وتجاوزها إلى ما هو أجمل وأبدع فرحا مغتبطا بالفستان الأبيض و» الطرحة « واللآلىء المضيئة والزينة التى حذقتها زينة ، وهذه موهبة أخرى لم يكن يعلمها فى شريكة حياته قبلا .

وتقدم كأنه يمشى ذاهلا فى حلم فعلا نحو إبنته ونأبطها كما يرى فى « الأفلام « ليحافظ على ما بدأته الأم من رونق التمثيل وقدر الخيال الذى بدأته لتضفى على الفرح قدرا أكبر من البهجة والمرح خاصة وأن فعالياته تدور فى حدود عائلية ضيقة إلى أقصى حد .. فلا أحد حضر غير العريس وأمه المصرية ومأذون رفح وغير والده الذى رباه وحرص كل الحرص أن يزوجه بمصرية من دمه ترجع أصولها إلى « أم الرشراس « ربما حتى تظل فكرة مصريتها حية تبحث عمن يعيدها لأحضان سيناء ومصر .. موحدة الوطن العربى كله .. ومعيدة أمجاد البحر الأحمر كبحيرة عربية فيستقر ويهدأ ويكف عن تهييج الأقراش السمراء على توائمها البيضاء وإغراق السفائن والعبارات أوالقرصنة ! ، ناعما حتى الثمالة برحلته الأبدية مع رفيق عمره نهر النيل الذى إنعكس تياره من أسفل فثارت الدوامات وتعكر صفوه وبارحت مواطنها الأزلية تماسيحه آكلة بعضها ! ، وتمزقت أواشج البشر التى تحيا فى حوضه والتى لن تعود إلى سابق عهدها من التعاون على البر إلا بنزع الرجل المعتدية التى تخوض فيه طمعا فى مياهه التى تسقط من سماء الجنة فى عليين ! وطالما الحكماء فى غفلة عن التكافل الذى يحقق التكامل فلا أقل من أن يعبر الأفراد عن وجودها « بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها « والتى بالقطع أبهى رموزها زواج حفيدات شهداء أم الرشراش بالأحفاد تيمنا وقربانا للمحافظة على رباط من هم فى رباط إلى يوم القيامة ! لتنتقل الوصية المباركة من الأجداد إلى الأحفاد .. وتتربى الأجيال على الولاء للأصل فهذا ديدن وشأن الأحرار فى كل مكان ظليل وزمان جميل حتى يظل جميلا ! وتمت إجراءات عقد القران فى تلك الليلة بسرعة مدهشة لتوافر كل أسباب التمام بعد مشيئة الله بين الأهل والعروسين على حد سواء ، والعريس بوجه خاص الذى كان لحسن الطالع يحمل جواز سفر وهوية مصرية ، والتى بمجرد أن اطلع المأذون عليها تأهل وتمتع بقبوله عقد القران ، وكان مقدرا لولاها أن يطلب إليهم الذهاب لمكتب الشهر العقارى المختص بالزواج من أجانب !

تلك كانت ليلة سعيدة حقا .. عاشها الأحياء واغترفوا منها راحتهم قدر ما تسمح به شريعة الله فالزواج مؤجل إلى أجل غير معلوم .. واستراحت أيضا كما لاكت ألسنتهم أرواح الأجداد فى أجداثهم !

ولكن ما أقصر وقت السعادة عندما يحين وقت فراق الأحبة حيث كان الإتفاق أن

يكون قبيل آذان الفجر فى السديم حتى لا يرى أحد عودة الأحباء الثلاثة من حيث أتوا فينكشف سر العبور المستور !

واقتطفت هدى من عريسها نظرة أخيرة وصافحته وترك كلاهما للآخر أنامله لحظة يتنسم فيها دفء قلبه وكان هذا غاية ما سمح لهما به ، والذى أسر إليها خبرا مفرحا ومدهشا إبان ذلك عندما قال :

- وجدت لك عملا غير بعيد عن هنا .. والدى باع مزرعته فى رام الله واشترى أخرى للزيتون والتفاح بالقرب من بلدة تل الهوا .. إن لنا أقارب هناك .. من آل النجار و..

تمتم بشىء لم تسمعه عن أم الرشراش قبل أن يصمت ليضيف بعد لأى كأنه يقذف بقبلة فى الهواء :

- سيلتئم شملنا بهم بعد أن ننتقل إليها بإذن الله ويتحدد موعد الزفاف يا حبيبتى ..

وقدر إمكانه عالج أن ينطق بالكلمة الآسرة فى سرية متناهية كيلا يسمعها أحد غيرها .. وكانت تلك أجمل كلمة سمعتها فى تلك الليلة .. بل فى حياتها كلها من رجل .

***

مضت على تلك الليلة البهيجة بضع ليال ، ودخل الشتاء بأمطاره وبرده مع انتخاب أول رئيس ملون لأمريكا ، ومع البرودة والأمل الخافت فى تغيير ما ران على أفئدة البشر والشجر والحجر من منخفضات ! إندلع مرتفع جوى فى طبقات الجو العليا حول الأقمار التى تنقل الأخبار ، بسبب تهديدات زعماء الدولة العبرية .. إستغلالا منهم لفاصل التمدد الذى تنتقل فيه الحرارة الأمريكية من إدارة غاربة لكن متواجدة وإدارة بازغة تشرق على استحياء ! وتذرعا بتصاعد وتيرة إطلاق صواريخ القسام محدودة المدى والتأثير والتى توقع رجال المقاومة أن يكون لها ردفعل كالعادة فادخروا الصواريخ الأبعد مدى وقوة لتقول كلمتها فى وقت أصعب .

وكانت هدى تعد الأيام والليالى منذ بارح هادى فى صحبة والديه ، وتحلم أحيانا بأنها اخترقت الحدود عبر البوابة أو عبر الأنفاق سواء فى المنام أو اليقظة لتكون معه .

أجل هى لن تصبر على فراقه طويلا قد قر عزمها على ذلك ..

يقولون أن له على الأرض صولات وجولات جهادية ليكن ستلازمه !

ولن تكون عبئا عليه فلها باع كبير فى جهاد أحلام اليقظة ! وبمشيئة الله ستنجح فى بعثها

حقيقة فمعظم الإنجازات البشرية العظيمة كانت أحلاما !
وليدافع مع إخوانه ماشاء من أجل تحرير وطنه الحال من بعضه ! فهى بوطن يبدو محررا !
رباه أما لهذا التفكير المضنى من نهاية ؟
وأنى ان تكون له نهاية والحبيب الزوج محرم عليه إن يستعمل الهاتف الخلوى !
ترى أين هو الآن .. فى أى أرض تدب قدماه الحبيبتان .. آه لو تستطيع فقط أن تهاتفه ! .. سامحك الله يا أبت لم لم تزفنى إليه ؟! .. كنت على الأقل أعمل مهندسة فى مزرعة أبيه ! .. آه .. ما أشد شوقى لرائحة الأرض .. لعبق طين الأرض الزكية !
رباه ماذا تود أن تقول ؟ .. بل ماذا قالت والكلام دوما له غرض ؟! .. هل جنت إلى هذا الحد ؟ القرار التنفيذى لم يصدر بعد يابنت !
ستنخرط فى صفوف المقاومة فهى تحمل جائزة الجامعة فى فنون الدفاع عن النفس لتكون بقربه ! فأنى لها أن تمارس أبسط حقوقها وهى تقضى معظم أوقاتها فى التطلع من بلكونها إلى أرض الأحلام وراء الأسوار !
لكن .. كيف تسنى له الإنصراف كما جاء بوالديه فى تلك الليلة السعيدة حتى تفعل مثله ؟!
آه .. إنها تفكر بعمق .. كيف عبر بهما مجيئا وعودة ؟!
قد كانت وأمها فى حجرتها تعالجان معا الخروج من فستان وزينة الفرح مثلما فعلتا عند معالجة الدخول فلم تعرف أى منهما كيف ذهبوا كما قدموا .. آه .. ما أشد دهاء مجاهد النجار ! .. لسبب ما تعمد أن يطيل فى وداعهم حتى انتابهما على هون واستحياء السأم فصعدتا السلم .. لكنه غاب .. فأين غاب وهى لم تشعر بالباب الخارجى يفتح أو يغلق فهو له صرير ؟!
« أيكون قد سربهم من نفق بالبيت ؟! «

***

أيكون ما فكرت به فى خيالها الخصب حقيقة ؟! .. أيوجد تحت بيتهم نفق ؟! .. وفيم يستعمل ؟ .. هى لا تشعر بحركة كبيرة أو ضجيج مما يحدثه تهريب الأشخاص أو البضائع .. وأبوها لم يكن يوما من محبى جمع وكنز المال .. ومعيشتهم لا تعكس نوعية

حياة من يعمل بالتهريب من أجل إشباع حبه الجم للمال .. ومواصلته عمله الشاق فى النجارة تؤكد عفة نفسه عن الدنايا وإن صح وجود نفق (وهو إحتمال قائم بقوة لأنها حادة السمع جدا !) فهو حتما يخص أحد الأنشطة التى لا تقدر بالمال !

أيكون مجاهد النجار عضوا فى منظمة سرية لتحرير أم الرشراش ؟!

ذات مرة سمعته يتحدث أن الطريق إلى تحرير فلسطين لن يكون إلا بوحدة العرب .. وهذا لن يحدث إلا بعودة الطريق القديم للحج !

قد كان إبان حرب الإستنزاف ما بين معركة الأثنين الأسود عام ١٩٦٧ ومعركة السبت الأبيض .. سبت النور عام ١٩٧٣ عضوا فى منظمة تحرير سيناء ..

أفتكون تلك المنظمة ماتزال موجودة تعمل لتحرير الإرادة بعد الأرض ؟!

لم لا تتيقن بنفسها من ذلك وتتفقد خلفية المنزل المواجهة لسور بولبة صلا الدين ؟! .. أكيد فى أرضية هذه الخلفية قبو يفضى إلى سلم نازل تحت الأرض !

آه هاهى فرصة سانحة ووالدها غير موجود بالبيت أو بورشته وأمها مشغولة بشئون المطبخ فلم لا تتسلل إلى تلك الخلفية المباركة ؟!

رباه إنها ما خطت بضع خطوات حتى سمعت لدبيب أقدامها من الصوت ما هو أعلى وأكثر إمتلاء بجوار الحائط تحت السجادة القديمة المفروشة بلا ضرورة أو ذوق فى هذا المكان القصى !

ثم هاهى ترفع طرف السجادة لترى أن ثمة غطاء حديدى لبئر بقفل مفتوح !

فلماذا هو مفتوح ؟!

تبادر هذا السؤال إلى ذهنها وهى لاتكاد تصدق عيناها وتمد يدها لترفعه فى الظلام الدامس وتتحسس .. ماذا ؟ .. رباه كما توقعت تماما .. سلم .. نفق ؟ .. قد نفق ! .. آه .. الآن تدرك سر دموع النجار المغوار كلما سمع غنوة وطنية أو وقع حدث وطنى ! ! .. إنه بطل قومى ولا أحد يعلم ! .. يدارى الدموع حتى لايلم أحد بخبيئة ذاته البطلة ! فما أجمل الدموع من مجاهد يبدو عصى الدمع شيمته الوثب !

- هدى .. هدى !

لمن الصوت .. آه .. إنها زينة ولتسرع وتؤجل إستكمال فعاليات هذا الكشف التاريخى الذى توصلت إليه على حين غرة من مجاهد !

- نعم يا أماه .. أنا قادمة !

وأسرعت تغطى القبو أو البئر بغطائه الحديدى برفق وحرص شديدين كيلا تثير ضجة وأعادت السجادة إلى سابق وضعها وهى تغمغم لنفسها :

- بل كشف من الكشوف الجغرافية .. أليس فى الأرض !؟

وسكتت برهة ثم أردفت وهى تخطو بخفة فوق الدرج الصاعد للطابق العلوى كأنها تطير فى حلم :

- رباه أحلم ! .. مرة أخرى أنا فى حلم لاعلم وبعلم ! .. كل هذا يخرج منك يا ابت ! .. بى رغبة عارمة فى الغناء .. نعم أغنى إحتفالا بأبى الحبيب ! .. قد حظى فى عينى بجائزة تفوق على مستوى الوطن أيضا ! .. أنا أغنى .. أغنى !

وطنى الكبير أسير .. من خليج سالم لمحيط خطير !

يعرفونها غيبة ضمير .. إفتئات على الحق من غرير

يرهب العالم بمكاء وصفير ..ناطحات سحاب وحاملات طير

شعاره تمثيل الأفيال والحمير .. شنف آذانك لتسمع من نمير

خيل إليها أن صوتا يأتى من البئر يهتف :

حكاية ليث إستمرأ الزئير .. لسبى الأذناب والزفير المرير !

ودفع أصلاب خزق البعير .. خطأ صغير من صديق نصير

وتوقفت عن الصعود فوق الدرج كأنها تفكر « لمن الصوت « وخمنت أنه « لنجار الأنفاق الوطنية فهو يشبهه « ثم انتبهت وصعدت درجة واحدة وهمهمت :

لاحساب عليه من عسير .. يحرق النبات والأرض بسعير

صاح الصوت ثانية عن البئر المغطى :

العبرة بالنوايا ونيته خير .. لنوم أهل الكهف والعزير !

صعدت درجة أخرى بإصرار وهى تدمدم :

فرقوا بين الشهيق والزفير .. محنة أوطاننا خيرها الوفير

حباها الله القدير براع خبير .. وربيع أشرق فى الفجير

صاح الصوت ثانية كأنه يتعالى من أعماق بئراليأس والقنوط :

كبر الفجير صار نهير .. يضىء أوطانا تعبد الستير

أجدادنا مهدوا دروب المسير .. خلفوا لنا السراج المنير

وماء يرفع هامات الزهير .. الآلية لا تفوق أعتق زير

يوفر تنقيطا من طبع بصير .. لا يسمح له برشح كثير
يتماشى ونواميس كون وثير .. حكمته التدرج لحفظ المصير
وجاوبته هى متسائلة دون أن تراوح مكانها وبحماسة تناقضه :
نرتوى يالحب أم الحقد المرير .. شجرة حنان أم قهر الصغير ؟
أبيض أم أسود خيط الوزير .. حائك عوينة لكل عوير !
جهل الفارق بين سفير وأسير .. يخال شخير الخفير سمير!
وحامى الحمى نمير من بكير .. خطاط الوهم سلاب للعشير
يبيعنا مظلة نووية ليقيم بهجير .. صرحه المنهار من زمهرير
وقاطعها الصوت مجلجلا :
اقبضوا الجمر يا عباد البصير .. أهيلوا ثلج القطب الحسير !
النينو طوفان لأصم ضرير .. تنكر لحضرة الهادى البشير
درس نوح يتكرر وهو نذير .. لفصل الأذى عن حرية التعبير !
وواصلت الصعود كأنها تهرب من الحلم مندفعة وتلقفتها أمها بالأحضان وهى تلفت نظرها بلطف وتحنان :
- حاذرى !
إبتدرتها كأنها تطلب الغوث :
- مجاهد مجاهد !
استنكفت الأم بعين اللهجة والتلطف :
- نحن بالمطبخ حيث المواقد والأوانى لا فى دار الأوبرا نعزف موسيقى الأوانى !
فانفلتت منها ودأبت على الحركة دونما تحوط وترنمت كأنها لم تزل تحلم :
- مجاهد بطل .. أكاد أطير .. أطير زى العصافير !

***

وفى صبيحة اليوم التالى لم يكن لديها من شاغل غير ما قضت الليلة الفائتة ساهرة تفكر به وما عساها أن تفعل ، وكيف تستغل هذا الكشف (التاريخى الجغرافى العظيم) للإنفلات إلى الناحية الأخرى من الوطن الذى صار يزاحم وطن إقامتها بما ترتب على عقد القران من قلق ومخاوف على زوج لم تكد تفرح به يواجه الخطوب مع رفاقه دون

احتراز لا ريب !
ولكن ماذا تفعل لسلامتهم وسلامته وهم فى أتون الخطر ؟ .. أتحلم مفتوحة العينين بأنها يمكن أن تصير غير مرئية وترتب الأمور بطريقة تؤمن البقاء على قيد الحياة وتحقق لهم النصر بالنجاة ؟!
- مستحيل ..
همست لنفسها :
- صحيح من قال أن الحب بهدله !
وساورتها فورة غيرة على كرامتها فأضافت :
- أيصل بى الشوق لدرجة التباريح ؟! .. أأفكر فى الإنضمام لخلية مقاومة للسير على دربه من أجل حب الوطن ! الذى هو فرض على .. أفديه بروحى وعينى ! .. أمن أجل حبه حب الوطن !؟
ومضت تفكر « إنها إبنة إسم على مسمى ! وأم طيبة .. ماذا يبقى لهما لو أنها نفذت بالفعل هذا الذى تفكر به كالحلم ؟
ما أيسر الأفكار والأحلام إن لم نقدم للوالدين إحسانا ! .. صحيح أنها يوما ستفارقهما للحياة مع رفيق عمرها المجاهد فى مزرعة أبيه لتعمل مهندسة !.. ولكن لهذا حسلبات واستعدادات أخرى غير ما تفكر به وأحلام اليقظة ضرب من جنون مرحلة المراهقة والسعى الطائش للنضج لاشك ..
أترضى لنفسها هذا التردى وهى مهندسة قدر الدنيا ؟!
لا .. تلك ليست حقيقة ما يجرى وما تعانيه فالحريق قد اندلع منذ نعومة أظفارها ، وبداية إدراكها لما يدور حولها ولا
علاقة البتة لحب الحبيب ولا المراهقة وأكل الزبيب بما يندلع فى كل آن مائة مرة فى أعماقها وأعماق كل ذى قلب فى هذا العالم من الممارسات الوحشية والإفراط فى القوة من جانب من يأخذه الغضب وحب النفس أسفل سافلين فينزع من قلبه الرحمة ويحل محلها الكبر والعنجهية ! ..
وما تراه فى شريك مستقبلها من تصميم وعزة وإباء لخليق بأن يجعلها تفكر بعنفوان وإقدام وأمل لا بجنون من خوف !
والآن أيمكن لعقلها أن ينصهر فى بوتقة حب مشروعها للمستقبل على نار مواقد الأوطان

والأهل الحكماء الشجعان ؟!

آه .. لتكن الإجابة بنعم طالما قد إنكب المجاهد النجار على العمل الذى تعلو فيه (لحسن حظها) أصوات الدق والنشر والمسح على أى صوت آخر وبعد خروج زينه إبنة عمه للتبضع ..

قد قر عزمها على إتمام ما بدأته أمس من إكتشاف يلزمه كشاف يضىء لها الظلمة الحالكة وقد كان !

أسلمها الدرج النازل على ضوء الكشاف إلى ممر مكعب مستقيم طول ضلعه حوالى المتر ونصف يمشى فيه المرء المتوسط الطول مثلها محنى الرأس إجلالا لحب الوطن وحب المجاهدين أمثال هادى الزوج المؤجل نشاطه !

وبالطبع فهمت لتوها سر عدم تناسب إنتاج والدها من الأخشاب المصنعة مع ما يبذله من جهد ووقت فالسرداب مبطن

تماما من الأرضية والحوائط إلى السقف بفوائم وعوارض من ألواح خشب الزان « السويدى « المتين تتراص إلى جانب بعضها متلاحمة بحذق تندمج فيه الفواصل بينها وتختفى كأنها كتلة واحدة ولاغرو فالصانع خبير بصناعة الأبواب والشبابيك وهذا النفق باب للحباة أو نافذة على الدنيا ! .. ومن يدرى لعل هذا النفق يتصل من باب سحرى بأنفاق أخرى بطول محور صلاح الدين وهذا سر شهرة وزعامة والدها الذى لن تكون جديرة بالإنتساب إليه إلا إذا تنكبت دربه ودربته !

ماذا ثم ماذا فماذا ؟! .. أو قررت السير على دربه حقا لتقف فى نهاية الدرب الذى لم تتحدد له للآن نهاية على أعتاب بوابات الدنيا الباقية بعد إنغلاق أبواب الدنيا الفانية ! تلك التى تشهد الأرض الفلسطينية على الجانب الآخر من رفح وبقية الأرض بعض عتباتها الدامية !

ولم لا قد يمكنها حينذاك على الأقل أن تكون قريبة من الطريق المؤدية لمزرعة التفاح والزيتون بتل الهوا !

قف أيها القلب الأرعن عن الخفقان فيم تفكر ؟!

على مهل مشت تخطو مسلوبة الإرادة كالنائم وبعد إجتياز بضع مئات من الأمتار تدافع إلى عينيها أكثر من بصيص نور فأدركت أنها بلغت نهاية النفق ، وأنها بعد بضع عشرات من الأمتار ستلمس درجات سلم خشبى ، ثابت فى أحسن الفروض أو معلق فى

أقلها حسنا ، من هذا النوع الذى تتبادل عليه الأقدام مواقع الأيدى على عوارض قصيرة مثبتة بإحكام فوق عمودين طويلين .

عثرت على أقلها حسنا ..

ملقى كالجثة على جانب من الجدار ..

أقامته وارتقت ما يشبه بئر يوسف ..

لتكون بعد صعوده توا واختراق غطاء توأم يشبه ذلك الذى تحت السجادة فى خلفية البيت ..

فى أرض وطأتها أقدام الحبيب القديم الجد الشهيد وأقدام الحبيب الجديد القريب البعيد !

- ٣ -

ما إن وطأت أقدامها ثرى الشقيقة رفح ونظرت خلفها إلى السياج الفاصل والبوابات الحديدية المغروسة فى قوس النصر الضخم الذى تعرفه جيدا لكنه أشد ضخامة ومنعة .. أو هكذا خيل إليها بما يحويه من حواجز واستحكامات على تلك الناحية حتى أدركت مدى فداحة وخطورة ما أقدمت عليه ..

كان الوقت ظهيرة واليوم سبت لا يوقد فيه يهودى نارا ، حسب القاعدة الدينية المرعية التى يبدو أن قادة الجيش الذين قالوا عنه أنه (لا يقهر) لم يغمض لهم جفن منذ سبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ فاستبدلوا بها قاعدة علمانية أو (على الأقل) أوجدوا لها إستثناء فى تعاليمهم وأن ذاكرتهم قد وعت الدرس جيدا ..

وارتفع آذان الصلاة فى المآذن مع أعمدة نيران تلاحقه صاعدة من باطن الأرض إلى عنان السماء مع صوت دوى شديد لم تدر هدى فى البداية كنهه .. دوى متلاحق إهتزت له الأرض وارتجت فخيل لها أن زلزالا قد وقع وأنه كان ينتظرها هنا ليقع !

كانت قد قطعت الخلاء الفاصل حتى البيوت وفكرت أن تقف على الإفريز المحاذى ، عسى أن تسند ظهرها إلى جدار عندما شعرت بأزيز شديد فى الجو أعقبه صوت فرقعات تصم الآذان لإختراق طائرات حاجز الصوت ، وبغتة وكما لو أن الفضاء قد تمزق حولها إنفجرت لدى الإرتطام بالأرض أجسام أسقطنها الطائرات فدكت الأرض وأثارت النقع وملأت الجو غبارا وأعمدة دخان أسود من ألسنة نيران وأبخرة مختلفة الألوان يغلب عليها اللون الأحمر والأصفر والبرتقالى ! تتحرك فى هبات هوائية ملتهبة صانعة حرائق هائلة بطول وعقر ما إنتقلت إليه من شطر محور « فيلا دلفيا « وما بعدت عنه من الشطر الآخر شطر « فيلا نجار « شطرها ! ومادت الأرض تحت قدميها وعلت الصرخات والآهات واهتزت البيوت المطلة بشدة وتكسرت واجهات المحال الزجاجية وتهشمت النوافذ واستشعرت شيئا ساخنا يلتصق بإحدى ساقيها فصرخت بألم شديد وأحست برغبة خبيثة فى القيىء وأن الجدران والأشجار تتمايل وتدور من حولها كبريمة أرجوحة حديثة تعمل بنظرية الطرد المركزى ! وأن دفقات متلاحقة من أبخرة الغازات والدخان تتدافع إلى عينيها وتحول بينها وبين الرؤية وإلى طاقتى أنفها وتمنع ما بينها والتنفس فأطبقت أجفانها وأسلمت نفسها لما حاق بها ونطقت بالشهادتين وأغشى عليها .

وعندما أفاقت وألفت نفسها على فراش ظنت أنها تحلم حلما مزعجا هذه المرة ، أو أن أحدا أعادها إلى بيتها وخالت أن والدها كان يتابعها وتركها لترى نهاية فعلتها الحمقاء .. ثم لما وقعت الغارة وراحت فى غيبوبة كلن وهو (البطل) أشد إمتلاكا لنفسه فحملها وعاد بها فى أمان الله .. لكنها سرعان ما أدركت بعد نظرات تأمل سريع ومركز أنها فى بيت غريب وعلى فراش لايمت لفراشها بصلة .. وفى اللحظة التى قررت أن تصرخ مستنجدة بالله سمعت دبيب أقدام تدنو وأصوات تتهامس :

- قد أفاقت .. قد أفاقت !

فانتفضت منزعجة من الفراش لما أصاب قواها من وهن والخوف يوشك أن يطوى ساقيها ملقيا على الأرض بجسدها الجريح المنهك الذى لاتدرى ماحدث له فى غيبوبتها لدى مرأى فتاتين صغيرتين من ذوات الضفائر قد إبيض محياهما وفقدت أعينهما الزرقاء تظرة الطفولة البريئة الآمنة ! وكل ما يمت للفطرة بل بكل ماهو (إنسانى وجميل) بصلة من فرط ما تعرضتا له من هلع لا يوصف لاريب ، وامرأة ضخمة مشعثة الشعر ماهوجنى تهل فى أعقابهما وتتجه نحوها وهى تحاول بصعوبة رسم ابتسامة أموية عاطفة على شفيتها اللتين فر منهما الدم فبدت محاولتها يائسة عاجزة تدعو للرثاء ولسبب ما رأت فيها هدى إعوجاجا ضاعف من خوفها كأنها فى بيت الجن وصرخت :

- أين أنا و ..

- إهدأى يا بنيتى !

- ولكن أين أنا ؟!

- بالله لاتخافى .. إطمئنى .. البيت بيتك ونحن مثل أهلك !

- بيتى .. أهلى !

ودنت الفتاتان الصغيرتان منها وتبسمتا لها فى خجل وبراءة ، وكان لهذا فعل السحر فى نفسها فتطامنت وهدأت كثيرا خاصة عندما طالعت فى محياهما الإنزعاج الطفولى الذى مرجعه قلة الإدراك والفهم .. فلم تسطع أن تقاوم شعورها العارم بالعطف عليهما وطفقت تداعبهما بلمس أرنبة الأنف بانمل سبابتها تارة وبتخلل كل الأنامل جدائل الضفائر تارة أخرى ، فتولد من زخم المحبة والود ما لا يتوافر إلا فى طول المعاشرة بين الكائنات الحية بغض النظر عما إذا كانت من الحيوانات أو البشر ، وتزايد قربهما منها حتى لم يبق بينها وبينهما ثمة مسافة ، وأخذتا تتمسحان بها كل واحدة من جانب كما

لو كانت هرة أليفة نقية السلالة ! ، فتنفست الأم الصعداء وتهللت أساريرها للإنقلاب السريع الذى وقع على غير ما توقعت ، وحانت منها إلتفاتة عفوية إلى مرآة كبيرة بقطعة أثاث تختص بزينة المرأة تسمى « تسريحة « تقع دوما فى الجهة المقابلة للسرير فى كل غرف النوم ، فرأت ماهالها وجعلها تجلس توا إليها لتصلح ما أفسدته الرهبة والذعر الذى أشاعته الطائرات العدوة المغيرة على البشر العزل أجمعين منذ حين بينما واصلت هدى ملاطفة فتاتيها فأتاحتا لها الفرصة كاملة إلى أن أجلستهما على ركبتيها وراحت تمطرهما بالقبلات ثم حملتهما فى أحضانها إلى أريكة تقع تحت النافذة وأجلستهما برفق وحنو فى حجرها كأنها تقصد أن تفرجهما على المناظر والأحوال فى الشارع وفى الحقيقة كانت هى أحوج ما يكون إلى التعرف إلى ما آل إليه حالها وأين هى ؟ فأدركت على الفور بمجرد النظر أنها داخل بيت يقع فى عمق شوارع وحوارى رفح التوأم لغياب الشريط الحدودى وملحفاته من أسوار وبوابات وتوترت مرة أخرى وتساءلت دون أن تشعر :

- أين أنا ؟!

فعاجلتها السيدة بسرعة لتباعد بينها وبين أن تستحوذ عليها الرهبة ثانية ، وكانت قد فرغت لتوها من إعادة وجهها وشعرها إلى هيئة الطبيعة البشرية وبانت عليها أمارات الإنس لا الجن ! قائلة بلهجة تماثل لهجة أهلها فى رفحها ! وهى تربت على كتفها فى حدب وترمقها بكل ما أوتيت من نظرات العطف والشفقة :

- أنت كما سبق وقلت فى بيتك .. أرجوك لا تخافى ولا تحزنى .. نحن الأعلى دائما !

- ولكنهم فى طائرات !

- ومع ذلك نحن الأعلى كما و ..

وسكتت بغتة عن الكلام إذ توالت أصوات إنفجارات بعنف من صواريخ ثقيلة إستدارت لها الأعين فى وجل ولا أحد يدرى إن كان القصف لمروحيات فى الجو أم لزوارق فى البحر أم لمدفعية راجلة أو داخل دروع أو دبابات على البر ! واضطربت الفتاتان وتفككت عقد ضفائرهما من شدة الهلع بفعل أناملهما التى راحت تتخبط وتتخلل جدائل الشعر وتشدها وقد طاش صوابهما فى حركات عصبية حيثما أتفق .

وتأثرت هدى لمنظر أشد إيلاما وهما تلوذان بأمهما وتلتصقان بها والمسكينة لاتدرى ما تفعل حتى تدرأ ما ألم بفلذتى كبدها لشدة ذعرها هى الأخرى ، وفاقت وطأة الإنفعال طاقة الإحتمال فاندفعت إليهن وراحت تمرر أناملها بعصبية على شعورهن دون أن

تفرق بين ما ينسب للأم التى جثت على ركبتيها لتكون فى مستوى طولهما وخبأتهما فى ثنايا صدرها وبين ما يخصهما ، ودخلت دون أن تشعر فى منافسة غير متكافئة مع الأم ، فى توزيع اللثمات واللمسات والهمسات المحمومة ! لتعيد دون وعى ترتيب ما أفسدته الرهبة من الموت سواء فى الشعور التى تنزلق على الرأس أو التى تنزلق على النفس !
كانت الإنفجارات بعيدة ولكنها من شدتها وقوتها بدت كأنها بجوار البيت ..
ثم على غير توقع من هدى ، ظهر رجل يرتدى زى رجال الإسعاف ويمسك بيده القبعة الحمراء المميزة لهم فلم تفهم لم جزعت منه حتى أنها كتمت صرخة فخرج الصوت حشرجة أشد وقعا وارتدت للوراء كأنها تنظر لعدو بتخفى فى صورة رجل إسعاف ، غير أن الأم أسرعت بتقديمه إليها مفهمة إياها أنه الذى أنقذها وأتى بها إلى هنا ليسعفها فهو فى بيته ووالد البنتين الجميلتين ، وفقط تطامنت عندما لاذت الفتاتان به واحتضنتاه من ساقيه !
وقص الأب عليها ما حدث فأدركت من الأقصوصة أنه مضى عليها فى هذا البيت يوما كاملا غائبة عن الوعى . وأنها إبتعدت كثيرا .. وأكثر مما تصورت عن التوأمين رفح !

***

- يا ناس ؟ أين أنا ؟
نادت بعذاب ثابية قلم يلب نداءها أحد وضاع صوتها وسط الدوى والأزيز وأصوات الإنهيارات والعويل والصراخ وضراعات الإستغاثة التى تعالت فى الخارج ، أيقنت أنها فى أتون العدوان وأعادت النداء على الناس بالسؤال أين هى
فغمغم الرجل مطيبا خواطرها :
- لا تجزعى أنت فى قرية من توابع رفح .. بين أهلك وإناسك .. ولكن قولى لى يا ..
- هدى ..
نطقت إسمها فاستتلى وهو يومىء برأسه :
- أنت فيما يبدو مصرية ؟ .. ماذا أوصلك إل هذه الناحية التى عثرت عليك بها ؟
وقصت عليه بدورها قصتها وكانت كلما توغلت فى القص ساءلها بنوع من الفضول :
- أنت إبنة الشيخ مجاهد النجار ؟!
فتجيبه :

- نعم النجار إسما وعملا !

وسرها كثيرا أن تعرف أنه يعرفه ويكن له كل محبة واحترام ، ليس هو وحده (كما أكد لها) بل جميع الأهلين هنا لما قدمه ويقدمه لهم كل يوم من عطاء فى صنع السراديب والأنفاق التى خففت الكثير من العنت والمعاناة فى الحصول على حاجاتهم من المواد الأولية التى يعتبرها المحتل خطرا عايه !

وأحضرت لها السيدة كوبا من الشاى وبعض قطع « المخبوزات المحلاة « المصنعة منزليا فشكرتها وأبحرت وهى ترشف وتتبلغ دونما تحفظ فى سرد كل ما تعرفه عن أسرتها وأصل العائلة التى تنتمى إليها فأبدى إعجابه بصراحتها ووعدها أن يعاونها فى الوصول لشريك حياتها فى المستقبل وأبدت هى (وقد منحها القدر الفرصة لكى تكون جديرة بأبيها !) إستعدادها لمد يد العون لضحايا العدوان إن عمق لها هو معرفتها السطحية بالإسعافات الأولية فهى تعرف كيف تدافع عن نفسها وكيف تقود سيارة فى الظروف العادية ، فوعدها بما طلبت وبتدريبها على قيادة سيارة إسعاف وسط المخاطر والشراك المبثوثة فى كل مكان حنى تصل بالجرحى للمشفى ! وكيف تحصل على ما يقيم أودها من إعانات « الإغاثة « فى الأوقات الضائعة التى يقوم القائمين عليها بتوزيعها ..

ثم أنه سيعلمها أيضا (بخلاف ماتجيده من اللغات) لغة ثالثة أجنبية لن يكون لها غنى عنها طالما قررت المشاركة فى مقاومة الشر واهتبال الوجه الثانى للصدفة التى يمثلها هو كرجل للإسعاف الذى هو أنسب مجال لها كفتاة رقيقة ولأن أعداد المصابين وفاقدى الأمل فى إنقاذهم بسبب قصف العدو من يقترب منهم ! للأسف فى تزايد ..

وعبر عن كل ذلك عمليا بأن منحها حقيبة صغيرة إلتقطها من الدولاب مرسوم عليها علامة جمعية إسعاف الهلال الأحمر فتناولتها بفضول وهى تقول :

- ماهذا ؟

كانت إجابته حاضرة فغمغم :

- هدية بسيطة .. أول تدريب عملى على الإسعاف ! .. إفتحيها من فضلك ..

فقالت له وهى تضحك على إستحياء :

- وأنا بدورى سأدربك عمليا كيف تحلم وتعيش حلمك !

وفتحتها وبمجرد أن وقع بصرها على محتوياتها شهقت بجذل وهى تفضها ورمقته بنظرة إمتنان كبرى ورددت :

- هذا كثير على .. بذلة إسعاف نسائية وكتاب عن الإسعافات الأولية .. ومجموعة متكاملة من الإحتياجات الشخصية للمرأة من أول فرشاة الأسنان إلى المرآة ! .. ودفتر تدوين يوميات وقلم .. أنت لم تنس شيئا .. كأنك كنت تتوقع حضورى ! .. لماذا كل هذا العطف ولم تكد تعرفنى ؟!

ومرة ثانية كانت إجابته حاضرة وقاطعة قال :

- يكفى أنك إبنة مجاهد النجار .. أما عن حكاية الحقيبة الجاهزة فأقصها عليك فى وقت آخر ! .. وأشار لوجود زوجته التى وقفت تراقب صامتة وأردف بمرح :

- هيا إذهبى مع أم البنات الحلوات وغيرى ثوبك حى أطمئن على أن البذلة على مقاسك وأن ..

وقبل أن ينتهى من قولته أسكته برغمه صوت إنفجارات تدنو منهم حثيثا وتعلو تدريجيا حتى خالوا أنها باتت بالبيت المجاور فاتسعت الأحداق وتدلت الألسن فرقا وبكت الطفلتان واشتد إلتصاقهما بأبيهما وكانتا ما تزالان تطوقانه من أسفل فاكتنفت أذرعهما الصغيرة إرتعاشة محزنة زلزلت منهما الجسد كله على رهافته وقالتا بهلع :

- سنموت يا بابا ..

ثم تحولتا بخوفهما إلى أمهما رافعتا الأذرع لتطوقانها وهما ترددان بنفس الطريقة :

- خبئينى من الموت يا ماما !

وجذبتهما الأم إليها وضمتهما إل صدرها بعصبية وأنشجت تبكى لبكائهما فنهاها الأب عن إبداء الضعف كيلا ينهار أملهما فى جدارتها بإنقاذهما مما يهابانه ، فحبست مدامعها وأمسكت بيديهما كل فى جانب وخرجت وبمجرد أن توارين عن الأنظار تناهى إلى الأسماع صوت أزيز مروحية يقترب من بعيد ثم امتلأ المكان بالضجيج والعجيج وتيارات مزيحة من الهواء الشديد تطايرت لها الستائر والكراسى والأجهزة وكل ما فوق المناضد والأثاث الذى إنقلب بعضه رأسا على عقب وتأرجحت كذلك بعنف جميع المعلقات من مراوح السقوف والمصابيح المدلاة فى كل الإتجاهات وتخبط بعضها فى بعضه وتحطم .. وماهى إلا أن ضعفت الرؤية ثم اتعدمت تماما لانتشار دخان كثيف أبيض وأصفر حار وخانق فى أعقاب إنفجار رهيب شعرت معه هدى بضغوط فراغية لا تحتمل حول جسدها تمزق له ثوبها مع بعض نتف رقيقة من جلدها بانت منه حمرة اللحم والدم الزاهر وكله إلا هذا الضغط على أذنيها التين راحتا (توشان) صوتا غطى على كافة

الأصوات فلم تعد تسمع أيضا واكتنفها شعور فظيع بالرهبة وبأنها على وشك الإنحدار إلى وهدة زلقة غائرة وشاء حسن حظها أن تسقط من السقف قطعة على أم رأسها أفقدتها الوعى !

وعندما أفاقت ألفت نفسها ملقاة (والحقيبة فى يدها) بين قطع كبيرة من الخرسانة والحديد الذى خرج من مكامنه وتلوى حتى ليكاد يبقر البطون أو يخزق الأعين ، وتربصت بها إحدى أعواده لولا أن تراخت تحتها كومة من التراب فى عين اللحظة ، وانتقل جسمها كله مبتعدا عنه بين أكوام أخرى بعضها صلب قاس وبعضها رخو رحيم وبعضها الآخر من الهشاشة والخفة وحب الطيران فى الجو يساهم مع أعمدة الدخان المتعددة الصور والألوان (لإختلاف المادة المحترقة سواء من الخشب أو أحد مشتقات البترول الصلبة أو المطاط أو الأنسجة القطنية وغيرها) فى منع الرئات من القيام بعملها على الوجه الأمثل ..

وتناهى إلى سمعها الذى عاد إليها بعد تبدد دوامة الضغوط الهوائية صرخات تتعالى فى البيوت المجاورة التى يبدو أنها هى الأخرى أصبحت ركاما وتساوت بسطح الأرض ، وتساءلت عن مصير من كانوا معها وطفقت تفند ما حولها لكنها لم تعثر لأحد على أثر ، وفقط سمعت صوت رجل يعالج فيما يبدو البعض غير بعيد عنها لكنها لم تتمكن من رؤيته إلا بعد أن سمعت صوت محرك عربة يدور فأدركت أن ثمة عربة إسعاف فى الشارع وصرخت مستجيرة :

- يا إسعاف .. يا إسعاف !

ولم يسمعها أحد لأنهم كانوا جميعا فى شغل عنها بما هم فيه من جنون الدماء التى سالت والعظام التى نتأت واللحوم التى تهرأت أو أنتزعت منها بعض القطع أو غارت فيها شظايا أو حوايا مواد كيماوية من جيل أحدث مما تم إستعماله فى عملية عناقيد الغضب !

كانت ماتزال على رقدتها ورأت أنه من الأفضل لها أن تقترب هى منهم حتى يرونها ، وبجهد جهيد إستخرجت نفسها من بعض الأحجار التى غطنها وهالك الخرسانة والطوب الذى تراكم عليها ، وتجلدت حتى أتيح لها أن تنتصب على ساقيها وجربت أن تخطو خطوة فلاحظت انها يمكنها أن تمشى ! ..

مشت وهى تترنح وتتحامل على نفسها بصعوبة بضع خطوات أسلمتها إلى مكان آخر

وأجالت النظر تبحث عمن كانوا معها فرأت لهولها كتلة من الدم والتراب تخثرت على شعر وجبين طفلة إنسدحت على ظهرها تحت الركام قلم يبين منها غير الرأس فوق بحيرة من الدم برزت تحتها من جميع الجوانب مما بوحى أنها تكونت لكبر حجمها من تلاقى دماء أكثر من شخص فارتاعت وانتابتها حالة هستيرية لما رأت يد الفتاة ممسكة بشيء فى غور الركام وجذبتها فهالها أن يكون الشيء يد شقيقتها ..

ودون أى تفكير شرعت فى إخراجهما من مدفنهما وبعد جهد لا تدرى من أين واتتها القوة على بذله فى إزاحة قطع من الخرسانة والأحجار والتراب بانت لها جثة إحداهما وقد تمزقت لكنها حافظت بعض الشيء على بعض التماسك ولم تتحول إلى أشلاء تختلط فيها نتف اللحم مع التراب والدم ونتف الثياب كما الجثة الثانية .. قد ضاعت كل المعالم لكن .. بقى سليما فقط وجهها .. أزالت عنه ما التصق بتقاطيعه من أغشية الدم والتراب فخيل إليها أن عينيها الذهبيتين تفتحتا تنظران إليها وأن شفتها قد إنفرجنا عن بسمة صغيرة تسأل « بأى ذنب قتلت ؟ « وطالعت بجوار جدار هار بدن إمرأة بلا رأس فعرفت أنها الأم النبع الرئيسى لبركة الدماء التى تسربت تحت كومة الركام (لتظل كنبع متصلة بالمصب) فيما تبقى من صغيرتيها ..

غرقت بدورها فى بحيرة من الدموع وهى تخلص اللحم المهروس والأثواب المحترقة وهشيم العظام وتعيد الترتيب والتنظيم ليمكن لها أن تلتقط بعينيها صورة تخلد ذكراهما على طابعة فؤادها كلما عن لها أن تقرأ الفاتحة أوترتل بعض آيات الربيع المؤكد الكمال على ربيع خر صريعا قبل أن يبدأ وهى صامتة مصبورة تردد الآية الخالدة « وإذا الموئودة سئلت بأى ذنب قتلت « وفكرت فيمن إرتكب تلك الجريمة الشنعاء وتساءلت :

- أيدرك بشاعة ما اقترفت يداه وهو يتلاعب بالمروحية كطفل يلهو ؟

وساقها هذا إلى سؤال آخر :

- ترى لو هو أب .. هل كان يرضى لإبنتيه أن تموتا هكذا ؟

وتأوهت من كبد مفطورة وتمنت لو أن الله من عليها بآلة تصوير تصور بها الفتاتين وهما غارقتان فى دماهما ولو أنه من عليها أكثر فأودعها الطائرة حتى يتسنى لها أن تعرض على الطيار صورة مافعل ! .. ومن أدراها أن يتأثر .. لعله بلا قلب .. فى تلك الحال سيلقى الله فى وهمه أنهما لإبنتيه ويبقى يرينى نفسه وشعوره وأين عقله وقلبه وهو

ينظر إلى رأسيهما وقد تهشما وفرت منهما الدماء .
جثت على ركبتيها فى ضراعة ودعت الله (دعاء المظلوم) مستجيرة به أن يحقق لها ما تفكر فيه وأن يريها سحنة القاتل وكيف ستنقلب عندما يقع بصره على فتاتيه ولو فى حلم من أحلام اليقظة .. وكان الله أقرب إليها من فكرها .. حقق لها دعوتها توا .. إذ (وكأنه فعلا محض حلم من أحلام اليقظة) غمر ضوء أخضر فيروزى المكان الذى عبق بروح زكية ووجدت فى يدها صورة لجثمان الفتاتين ولكن بوجهين آخرين لاتعرفهما ولم يمهلها واضع الصورة وقتا للتأمل وكأن قوة مغناطيسية حملتها فى الهواء وطارت بها فى سرعة البرق إلى عنان السماء .. ورأت أو خيل إليها أنها تتجه من فورها صوب مروحية بعينها .. وفى لحظة كانت فى قفا الطيار الذى فوجىء بها وكاد أن يترك مقود الطائرة فتهوى بهما لولا أنها مدت يدها ورشقت الصورة نصب عينيه فلم يطق النظر إليها واختطفها منها وراح يبكى باحتراق فسألته على هون كأنما تعذبه :
- أتعرف من هما ؟
هز رأسه وهو يجأر قائلا من خلال بكائه :
- أى نعم .. ويلى قتلت إبنتى .. من جاء بهما هنا .. قتلت روحى .. حياتى .. من أعيش لأجلهما !
عاجلته بسرعة قبل أن يفيق :
- عدنى بشىء وأنا أسأل الله أن يعيدهما للحياة !
- من أنت أيها الملاك ؟!
صاحت بحزم آمرة :
- عدنى !
تساءل بخوف :
- بماذا ؟
- ألا تعود لركوب تلك الحوامة .. وإن عدت فلنقل الناس ومنفعتهم .. لا قتل الأبرياء والأبرار ..
- أعدك ..
- وكيف أتأكد ؟
- خذى هوية الطيار ضمانة .. فيها كل بياناتى التى تستطيعين بها الإتصال بالقاعدة

والتأكد ..

- ليكن هات !

أخذتها بأطراف أناملها باشمئزاز مصطنع ليتغلغل ويستقر فى سويدائه الشعور الصحى بالذنب ، وكل خلية فى بدنها كل قطرة من دمها تقاوم (نزولا على حكم الظروف) رغبة ملحة للرقص والفرح وتحرضها من حيث قاومت على اختطافها قبل أن يغير رأيه ويختطفها هو ! ولاتدرى لم ركزتها وملأت أعطافها ثقة ورصانة تلك الفكرة الأدعى لبث المرح وهى تتحول عنه وتنقلب على عقبيها واثبة بظهرها من الطائرة كما يفعل أمهر فرسان الجو وركاب الهواء ! وما أسرع ما وجدت نفسها تقف وقفتها الأولى أمام الجثامين الثلاثة ..

جثت على ركبتيها ثانية ولكن بروح أخرى أكثر تفاؤلا واستبشارا وتمثلت نفسها مثل (أبو خطوة) الشخصية الفائقة الطيبة التى ترد كثيرا فى القصص الشعبى لتدلل على مدى كرامات صاحبها ورسوخ قدمه فى منازل الإيمان التى تتنقل به من مكان إلى مكان فى لمح البصر ليقسم هذا بأنه رآه يطوف مع الطائفين حول بيت الله فى مكة وفى ذات الوقت يقسم آخر أنه رآه فى عين اللحظة جالس أمام بيته فى شرم الشيخ !

لم تستحوذ على فكرها تلك الخاطرة الغريبة طويلا وقالت لنفسها :

- المثل الشعبى يقول يخلق من الشبه أربعين !

وكفت عن الفكر هنيهة وأضافت كأنما تستجيب لنقاش داخل عقلها :

- والحديث الشريف يعلمنا أن الله تبارك وتعالى إن أحب عبدا أحبه جبريل ومن ثم كل الملائكة فى السماء .

وكأنما ساقها هذا إلى نيجة أراحتها همهمت :

- ربما أكون أم خطوة لأن الله سبحانه يحبنى !

ومضت تنلو القرآن على الأجساد المسجاة بلا حراك وتعزى نفسها بأنهن الآن فى جنة الأبرار فى عليين ، ونظرت إلى إنطباقة قبضة يدها اليمنى حيث كانت اليسرى تمسك الحقيبة وهالها أن تحس أنها لاتضم شيئا وفتحتها آملة مع ذلك أن ترى هوية طيار لكنها وجدتها خاوية فوجب فؤادها بخوف وانهمرت دموعها بحزن وتحسر كاد أن يضج له فؤادها ويثب من صدرها كالحمامة الصغيرة الهاوية التى لاتقدر على الطيران وتمتمت بعذاب :

- لم يستجب الله لدعائى .. كنت أحلم .. كنت أحلم !

وفكرت فى أن هذا الخواء فى يدها ليس دليلا على عدم إستجابته عز وجل لأن الإستجابة بالدليل المادى الفورى معجزة وزمن المعجزات ولى ، ويجب أن تطوى الأمر كسر لا تبوح به لأحد وهمست لنفسها وهى تتلفت حواليها لتتأكد أنها وحدها وأن ليس ثمة جدران قائمة تسمعها :

- المثل يقول دارى على شمعتك تقيد يعنى تنور !

وبغتة إنتبهت لأصوات جموع غفيرة من الناس معظمهم من شيوخ وعجائز وأطفال تجرى باتجاه واحد فى الشارع صوب وجهة معينة .

أسرعت تلحق بالركب وما زالت دموع الفرح تمتزج بدموع الحزن وتسيل من محجريها وتحجب عنها الرؤية وتقتحم طاقتى أنفها وشفتيها وتساهم مع روائح الموت المتمثلة فى الدخان والغبار والدم فى حبس أنفاسها التى كادت أن تفر منها ، وتآمرت عليها كل تلكم الأسباب لنجاح الفرار .. فكرت فى هذا وهى ترى على الرغم من كل ذلك ومنها الأسقف والجدران والأعمدة التى كانت تقف شامخة وقد إنهارت كالأحلام وصارت هشيما أو مهروسا أو حطاما لتسمه ما شاءت طالما « مفروم كل شىء يختلط بكل شىء « .. حتى الحيوانات الضالة من الكلاب والقطاط وأعمدة النور والشجر لم تسلم وسدت الشوارع ..

أوشكت أن تستسلم لرغبة خبيثة فى القيىء وتسقط مغشيا عليها ثانية لولا أنها تذكرت منة الله عليها بالحلم الذى يلهم الثقة وجدد مدده عزمها وقوتها ، سمعت أحد الشيوخ يدعوها أن تمشى بجانبه وتتكىء عليه كلما أحست بالتعب ، نظرت إلى وجهه بدهش وفضول .. إنه يشبه والدها إلى أبعد حد ولولا تلك اللحية القطنية البيضاء الطويلة وهذه القامة المحنية وتلك الحدبة الصغيرة فى الظهر والعصا الت يتوكأ عليها وأنفاسه المتحشرجة لقالت أنه أباها .. إنه صورة طبق الأصل منه لكنه ليس هو ولتقبل تلك الحقيقة ! .. أقنعها تفكيرها بهذا ووجدت نفسها تشكره وفرصة لأن تسأله :

- إلى أين يتجه الجمع ؟!

أجابها بضعف ووناء إضطرها لأن تعطيه كتفها ليتكىء عليه (ويبدو أن هذا ما كان الشيخ يقصده) قائلا فى تلقائية :

- إلى بوابة صلاح الدين لعله يأت من هناك وينقذنا !

- أه !

هذا شيخ طيب طيبة متناهية ويحلم فيما يبدو مثلها ..

- آه !

وكانت « آه « الثانية هذه آخر ماصدر عنه لها فقد سقط وسط الزحام وداسته الأقدام .. وعبثا حاولت أن تتلقفه بيديها لتقيم عوده ويقف على رجليه ثانية ليحلم هذا الحلم الذى لابد أنه يدور فى مخيلة الجميع لكنها وإن تكن لم تفلح بيد أن غيرها أفلح وانتشلته أيد قوية تعرفه من تحت الأقدام قبل أن تهرسه عن غير قصد وحملته بعيدا ..

- حمدا لله على نجاته كثيرا فالأمل ينبغى له ألا يموت تحت الأقدام ! ..

واستسلمت لدفع الجموع فى سعيها اليائس غير المنظم إلى بوابة صلاح الدين لا تعبأ بالأيدى والأرجل التى تنوشها وتنال من أمنها الأنثوى المصون عن غير قصد تمشى بأفكارها الخاصة المختلفة كالنائم ليس لها من هم إلا المشاركة فى الإحساس بالغير وما يعتصره من ألم أو يحدوه من أمل للبقاء على قيد الحياة .

- ٤ -

إنتبهت لنفسها على الصراخ والبكاء والعويل وجماهير غفيرة سيقت وتجمعت على بوابة المعبر طالبة فتحها والسماح لهم بتخطى الحدود نجاة من الهلاك .

كانت فى مؤخرة زحام الموجة الأخيرة من البشر بحكم حالة الإنهيار الجسدى التى كانت عليها ، ولم تدر كيف وصلت إلى هذا المكان وتأملت ما يحوطها من أجسام تتداخل وتتباعد تحت ضغط الزحام كأنهم فى يوم الحشر كتلة من اللحم برؤوس وأعين حيرى يروغ فيها سؤال واحد عن المصير وتتعالى الألسن هاتفة :

- ما جنينا وبأى ذنب نقتل ؟

- وتدمر بيوتنا ومواشينا ومزروعاتنا ..

- حوانيت البيع والشراء خاوية على عروشها !

- لإغلاق المعابر الأخرى وعدم كفاية ما يمر من معبرى رفح وكرم أبو سالم من مواد غذائية وطبية ..

- تلك التى تجمعت منها آلاف الأطنان أمام المعابر قادمة من كل الدول المحيطة ..

- والبعيدة أيضا عربية كانت أو إسلامية أو أجنبية ..

وتبينت من لغط الكلام الدائر الذى ينتهى أحيانا إلى معان مبهمة أو عسيرة على الفهم من كثرة الألسن التى تلوكه فى آن واحد أن :

- التظاهرات تعم شوارع العالم منذ بدأ العدوان الوحشى الذى لا يجد له رادع من قوة أو ضمير ..

- أو أى وازع إنسانى آخر ..

- أو حتى دينى ! ..

- ولا يهمه غير تحقيق هدفين هما القضاء على المقاومة ومنظمة حماس بما لديها من صواريخ ووسطاء ومهربين وأنفاق تهريب .. وتحرير الجندى الأسير ..

- إن المعتدى يدافع عن نفسه !

- على حد زعم الرئيس الأمريكى المنتهية ولايته وبعض أذياله من الساسة الأوربيين ..

- أما الرئيس الأمل المنتخب فقد آثر الصمت والتربص لمنصبه الرفيع !

- يبدو من الحملة الإنتخابية التى ثبت نجاحها أنه يعد العدة لانتهاج سياسة القوة

الناعمة !
كان هذا ما استطاعت أن تتبينه من ثرثرة الألسن أو طى ماتنشره اجهزة صغيرة فى يد البعض من أخبار وسمعت أيضا أن :
- العرب كالعادة فى حيص بيص !
- لا تتجمع لهم همة لعقد مؤتمر قمة !
- إكتفوا بالإتفاق على عقد مجلس وزراء خارجية الدول ..
- يجامعة الدول ..
- بمقر الدول !
- بعد أيام دول !
- رباه ماذا يحدث ؟
تعالت أصوات :
- المعبر لا يفتح إلا للجرحى ومساعدات الدول و ..
وضاعت تلك الأصوات فى ضجيج أصوات أعيرة نارية تم تبادلها على جانبى البوابة وسقط بعض الجرحى ورفع رجل عقيرنه صائحا :
- قتل الضابط ياسر ! .. أصابته رصاصتان فى قلبه !
وجاوبه صوت آخر :
- وبعض حراس البوابة سقطوا جرحى ..
- من الذى أطلق النار عليهم ..
- أهذا سؤال طبعا لم يطلقوا النار على أنفسهم !
- إطلاق النار جاء من ناحيتنا ..
- منك استفدنا !
- هذا فعل غبى فمن سيفتح لنا البوابات بعد ذلك !
- نحن قلنا الضابط رئيس الحرس المصرى ..
- قلت منك استفدنا !
وما لبثت أن سرت المقولة بين الجماهير التى أصيبت بمزيج من الأسف والاحتجاج واليأس والقلق والألم وما هو أكثر إضافة لما يشعرون به من تلك القائمة التى لم يكن ينقصها تعقيد الأمور بقتل من لا ذنب له ولاجريرة سوى تنفيذ أوامر رؤسائه (والأمر

العسكرى تنفيذه واجب مغلظ ولو كان خطأ) وأداء واجبات عمله المنوط به .. وهناك من الجموع من ساءهم ذلك لدرجة الإدماع لأنهم بحكم جيرتهم يعرفون كيف كان هذا الرجل متعاونا وتتمثل فيه كل الصفات الأخلاقية الطيبة فهتفوا بغضب :

- كأننا قتلنا أنفسنا !

- هذا الضابط رتبة كبيرة !

- بل الرتبة الكبيرة المدير الحقيقى الذى يصدر التعليمات لضابط للبوابة لم يقتل وهو نائم الآن على ظهره يتنعم بحمام شمس شتوى على رمال منتجع شرم الشيخ رأسه فى الظل ورجليه فى الماء !

- صدقت من مات ليس أكثر من رائد !

- منك استفدنا !

- خللونا الآن من الرنب فاهتمامنا بها لن يقدم أو يؤخر وفراغة عقل !

- معك حق ..

وما هو إلا أن سرت إشاعة بأن جنود الأمن المركزى المصرى يحتشدون بأعداد كبيرة لإنقاذ حرس البوابة وفرض إحترام وسيادة دولة «جارة « ولو أدى ذلك للقتل دفاعا !

- سبحان الله .. الكل يقتل دفاعا !

وذاد من تأثير التفسيرات الخاطئة سماع إطلاق رصاص فى الهواء تحذيرا وإنذارا « لدعم نداء وجهنه السلطات المصرية بمنشور تم توزيع ورقته على الجموع وتناقلته الأيدى لإنهاء الأزمة وفض التجمهر واللجوء للمخابىء قبل تداهمهم غارة طائشة وتبيدهم جميعا ! .. وألا يأملوا فى العبور وإضافة معسكر جديد لمأساة اللاجئين أو تحقيق هدف العدو من فصل غزة عن بقية الوطن الفلسطينى بإغلاق كافة معابر إلتئام شمل الجسد الواحد وفتح معبر رفح فقط مما يحقق ما يشبه إنضمام غزة وقطاعها لمصر وانفصالها عن الضفة ..

ولاكت الألسن التى قرأ أصحابها المنشور بإمعان عبارات نارية حماسية :

- تردد هذا المعنى التخازلى فى خطبة للرئيس المصرى العميل !

- فهو بهذا يشارك العدو حصاره الظالم لنا ويضع الشعب المصرى كله على المحك !

- ألم يسبق له الإعلان بأنه لن يسمح بتجويع الشعب الفلسطينى ..

- وفتح المعبر على مصارعه فى يناير الماضى فكيف يغلقه الأن ونحن نتعرض لعدوان ؟

- معك حق يا أخ كان مجرد إعلان فهو لا يسمح بتجويع ويسمح بتركيع !
- خيانة للأخوة !
- إبادة عرقية !
- إنبطاح وعمالة !
- إنسلاخ وسفالة !
- ولاد ستين فى سبعين !
- تقصد سبعة وستين !

وانهالت الشتائم والسباب المقذع على حين صاح صائح فى طليعة جماهير أخرى إحتشدت خلف البوابة بقليل على الجانب المصرى من رفح على سبيل التضامن قائلا كأنه يرتجل قصيدة حماسية عصماء :

- لنكن أولاد سبعة وستين .. فقط إسمحوا لنا بمد اليمين !

فرد عليه مثيله عل الجانب الفلسطينى كأنه يشكو :

- بدت غزة بنت وطن النبيين .. كأنها فرت من حضين لحصين !

بعد طول إئتناس بأقصى رصين .. صاحب القبلة الأولى للمسلمين
صاح ثان من شيعته مكملا :

- تخطيط مكير لحاخام منين .. يتقوى بالجنين فى مهد الدين

أقصى بقدس تتركونه سجين .. حلم برأس دفين آلاف السنين
مجرد الهمس مقاومة للتنين .. وصواريخ تزعج مستوطنين !
وجاوبه ثالث :

رد التنين بحصار محكم متين .. أمن مواطنى بأرواح المساجين
زنزانة كبيرة باردة لجائعين .. عرض تهدئة بلا معابر أو بوابين
أعيننا بمعــبر أم المصريين .. والإبنة رفح توأم ختم على الجبين
وطأطأ رجل رأسه بأسف وأسى وغمغم :

- كل المعابر مغلقة للهادئين .. حتى معبر المحروسة قرة العين

وسخر آخر من قوله :

- إهدأوا واهتفوا يا مقاومين .. فرقعوا صواريخ ورش الحدادين !

دفاع عن النفس إدعى المكين .. ذبح وحصار يأتى بهم راكعين !

الحق الساطع يخبو بالسنين .. توافقوا على إطفاء نوره عامين
أمسك آخر نهاية الخيط وهمهم بعين اللهجة :
- ظلام وبرد وجوع عامين .. هدنة المستكين لا راحة محاربين
لن نجدد شباك الصيد الثمين .. لصياد يلعب غميضة المفاوضين !
على ماذا نفاوض ياعالمين .. والأبواب والنوافذ جحيم من سجين
قاطعه على الجانب المصرى من قال :
- تجددت الفرصة لوساطة أمين .. تقوم به محبة ربابنة السفين
جاءت القاهرة وزيرة قمرالدين .. المدعوة كن دا لى يا ذا البطين
إشتد على المائدة ولع الحماسيين .. بفرقعة فى هواء جبر الجبين ..
مجرد غسل أيدى باشر الحصين .. عدوانه بطائرات بلا طيارين
وبدوره على الجانب الفلسطينى قاطعه من يوضح بصوت زاعق :
- ضوء أخضر أشار العارفين .. أعطته قاهرة نصر صلاح الدين ..
واستدار إلى بنى جلدته واسترسل بلهجة مغايرة رصينة :
- سلوا أنفسكم متى يا تائهين .. أخذ معتد الإذن من تابع فطين ؟!
ثم عاد لسيرته الأولى يزعق فى محدثه على الجانب الآخر :
- إنسراق بسكين مخطط مشين .. لمحو الهوية والعزل الكهين ..
الكنانة مجرد جمعية للمصابين .. وليغلق المعبر أمام العارفين ..
وتضاحك بمرارة وأضاف :
- أدخلوا الإغاثة من جانب معين ..لايسمح بخروج الألم والأنين !
فتداخل آخر معضدا وكأنها قصيدة إرتجلوها :
- رجموا إتفاقا مع العدو وغربيين .. ينظم عمل بوابة صلاح الدين
جيشوا أبناء حماس والفتح المبين .. لإقامة دولة الفلس والطين !
تدبير متقن يتربص بإناس طيبين .. لإلقاء عبء الخبز على جائعين
وإخراج كهين كشعرة من عجين .. ليبدو الأمر خلاف بين بوابين !
وطى وضم بعض النهر والضفتين .. نهاية عصرية لنصر حطين
قهقه الجمع الفلسطينى المصغر الذى تولى إدارة الحوار أمام البوابة من شدة المرارة
تهكما فهتف آخر مصرى تحدث بعد أن هدأت عاصفة الضحك وساد صمت أخاذ :

- وتصدى ضابط شرطة أمين .. إستشهد برصاصتين فى الأذين
وقفنا للشهداء وقلنا يانكسار عين .. صبرا يا أم وبشر الصابرين
فقاطعه على الجانب الفلسطينى صوت أكثر تأثرا وهدوءا قائلا :
- تعظيم سلام للشهداء واللاجئين .. قبلة الحياة ودم الهلال المتين !
الهضاب والتلال تدعو للمقاومين .. أبواب الحياة تصرخ يا مسلمين
فأسرع الآخر على الجانب المصرى يؤكد بحماس زائد :
نقسم غزة لن تنكسر يا فلسطين .. ولن يضاف مخيم أخر للاجئين
ولسبب ما ساد الصمت ثانية على غير المألوف كأن على رؤوس الجميع طير غير منظور وبغتة صاح صوت :
- غارة .. غارة قادمة !
فاشرأبت الأعناق وانقلبت الرؤوس للخلف وتعلقت الأعين بالسماء ترصد ما يشقها من تشكيل طائرات تدنو فى سرعة البرق من بعيد وتمزق حاجز الصوت فى تحليق إتخذ هيئة الإنذار بالدوران للخلف والتقدم للأمام وتكرار الحركة كما توهم المنذرين أنها تعطى أعدادهم الغفيرة فرصة ثمينة ضائعة للتفرق والإفلات بالجلود والأعضاء قبل أن تصير أشلاء مع دك مواقع الأنفاق حول المعبر على الشريط الحدودى فى جهة رفح الفلسطينية بالصواريخ النافذة للأعماق وكأنه سحر إنفرط عقد الجموع فى لحظات وتبدد ..
وخاب فأل الذين توسموا فى العدو الإنسانية والإلتزام بالمواثيق والمعاهدات الدولية ولابد أنه عمد لكسب إحترام غير مستحق لعلمه أن التحذير تحت التهديد والنير يسقط بالإنسحاب الهلع غير المنظم والهرج والمرج الذى يسود ضحايا أكثر تهرسهم الأقدام .. وبالفعل تحقق مبتغى العدو وانهمرت الأجساد والقلوب وسيول المدامع تحت الأقدام وانطبق المثل الذى يشير إلى رمى عصفورين بحجر ! والكل يبحث عن النجاة بروحه فى الشوارع الخلفية والمخابىء التى غصت بأعداد هائلة لتكتمل المأساة بما يرتبط بالتزاحم من مشاكل فقد المقدرة على التنفس والأنفجار السكانى المؤقت ! وإن تكن لم تسجل حالة تحرش واحدة بعد خيبة الأمل فى النجاة المتصلة بالعبور من خلال ميناء رفح البرى إلى الجانب المصرى وضمان الأمن والغذاء والدواء والإيواء أو على الأقل عدم التعرض لقصف الطائرات التى وسعت دائرة العدوان وإلقاء الحمم عشوائيا على جميع مدن وقرى القطاع لتحرق البشر والشجر والحجر وتهدم الأرض وما عليها من غض ويابس أو

على حد وصف البعض :

- جابوا عاليها واطيها !

ولاحظ التعساء الناجون من الهلاك الذبن تكدسوا بالآلاف خلف المتاريس والسواتر أن الطائرات القاذفة إستهدفت بتركيز واضح الشريط الحدودى وهذا هو الهدف الثانى لتلك الحملة الجنونية (إن لم يكن الأول) فليس المقصود فقط العناصر المقاتلة من رجال المقاومة .. بل أنفاق تهريب السلاح إليها والمرافق العامة والشرطة والبنية التحتية لخدمات المجارى والمياه والكهرباء ، والمزارع بنوعيها النباتى والحيوانى حيث لم تسلم مزرعة تنتج الغذاء الأخضر والأحمر والأبيض من القصف والعصف !

- إنه قضاء مبرم ولانهائى على الحياة !

حدثت هدى نفسها وفكرت أن تقترب من البوابة المصرية وتفصح لحراسها عن شخصيتها ولابد أن فيهم من يعرف ملامح وجهها فهى من سكان المنطقة الحدودية وبيتهم الأقرب للبوابة وملامح الوجوه وبالذات للإناث اللواتى خارج الحدود لا تغيب عن ذاكرة الرجال ! وإن كان هذا لايعفيها من عدم حمل بطاقة هويتها .

هى فى موقف شائك يصعب التراجع عنه وأول شوكة توخزها هى أنها ستعجز حتما عن تبرير وجودها خارج الحدود دون تصريح رسمى .. وهى لسبب باطنى غامض أعمق من مجرد إنجذابها وشوقها لمن إرتبط بها وارتضته شريك حياتها إستشعرت التقزز والشعور بالحقارة والنذالة لو أنها سلخت فسها عما يجرى من تصفية لهؤلاء الأشقاء البؤساء الذى تنتمى إليه بوجه مؤكد باحثة عن النجاة لنفسها .. وأكثر من ذلك إمتلأت حواسها بحماسة غريبة للبقاء والمشاركة فى المقاومة ولو بالإغاثة والإسعاف كما قال الرجل الذى أنقذ حياتها ووعدها بمنحها الفرصة وتعليمها لغة لا تدرى للآن أية لغة .. وأنى لهما الوقت للتعليم والتعلم والحال يكرس أسباب التبلم !

ثم هل نست أنها مكلفة من الآن بمهمة يحسن كتمانها تخيرها الله عز وجل لأدائها ؟ .. أم أن الأمر لايعدو أن يكون أكثر من حلم من أحلام اليقظة التى تجيد التعايش معها وتصديق نتائجها ولو كانت مستحيلة !

هى الآن يمكن وصفها ناشطة حقوقية من نوع خاص فلم لا تبحث لها عمن يعاونها من هذا الشعب المحتار الذى يجرى إحراقه ومن الشعب المختار الذى يحرقه !

لم لا تواصل الطريق الذى بدأته وتصعد إلى هذا التشكيل المكون من ثلاث طائرات وتحد

من غلواء طياريها !
إنها جربت ركوب متن الفضاء وارتقاء مطبات الهواء مخاطبة ذلك الطيار فى أضعف ما يحمله الإنسان بين جوانحه وحناياه من عواطف وغرائز فهل حقا سيبر بوعده .. أم أن الأمر مجرد أضغاث أحلام !
ولكن متى كانت تحلم ولا تعيش حلمها ؟!
إن تجربتها مع الأحلام فى الفترة الماضية من حياتها التى أعقبت تخرجها مباشرة (لأنها وقت الدراسة وكليتها عملية لم تجد الوقت الكافى لتحلم !) لتؤكد أنها تعايشت مع تلكم الأحلام كما يجب وأن حلما واحدا منها لم يفلت ليخذلها !
فعلام تقلل قيمة وصدق حلمها السار مع الطيار ؟!
لتستمر على الدرب علها تنجح فمازال الوقت مبكرا جدا للحكم واستخلاص النتيجة !

***

ولم تفكر أكثر من هذا وألفت نفسها تمشى مطأطئة الهامة فى الإتجاه الذى رسمته لنفسها لدرجة أنها نست أو تناست أن تتيقن أن السرداب المفضى إلى بيتها ما زال على حاله أو دمر فى غمرة هذه المحارق والمجازر التى لا تبقى ولا تذر ..
على أن تؤدتها لم تدم إلا طرفة عين إذ سمعت هدير الطائرات يعود ويتعالى ، وأجالت النظر فى السماء فرأت التشكيل الثلاثى يقترب ويعدو فى اتجاهها كأنما يترصدها ، فأعملت لساقيها الريح تجرى بأقصى سرعة ، وفى غمضة عين كانت تتوغل فى الإبتعاد تلاحقها أطنان من الغبار المثار ومرتفعات من الحرائق الهوائية المشبعة بالغازات الملونة ودقائق المواد الطيارة سريعة الإشتعال وقطع مختلفة الأحجام من شظايا الزجاج وخرسانات المبانى والرخام بعضها كبير كالأنصال والسكاكين وبعضها كحد الموسى وبعضها الآخر لا يرى بالعين المجردة ! .. أما المقذوفات فكانت إما من النوع الذى يحترق فى الهواء على شكل مظلة أو سحابة بيضاء أو برتقالية تظلل الجميع وتسقط أمطارها الملتهبة مدرارا أو على مهل حسب الحاجة والجسم الذى تلتصق به أو بمعنى أدق الذى يسمح لها بالإلتصاق به ودرجة حرارته أو وصلابته أو ميوعته ! .. أو من النوع الذى لا ينفجر إلا بعد أن يخترق سطح الأرض وينفذ فى الأعماق متخيرا هدفه بذكاء ! .. هذا غير مجموعة من المتفجرات العنقودية واسعة الإنتشار فى محيط دائرى لا تنفجر حباتها التى لا نهاية

لأعدادها إلا بعد النفاذ إلى ماتحت الجلد من أعضاء حيوية !
وبعضها ينفجر صانعا على سطح الجلد حريقا توسعيا ينطفىء بعد أن يتعمق ويغور ويتوغل مذيبا كل ما يقابله !
وفيما هى تجرى شاهدت طفلا صغيرا لا يزيد عمره عن عامين يقف على ناصية شارع بين ركام وأنقاض البيوت يبكى بكاء مرا وفى عينيه اللتين إحمرتا علامة ترسم سؤالا كبيرا يعبر عن عدم فهمه لحقيقة ما يجرى من حوله بعد أن فقد صدر أمه ويد أبيه ورعاة أمره ومحبيه وما يراه ماثلا من الهول والرعب فى الأرض والفضاء وبالتالى لا يعرف كيف يعبر بلسانه ولكن فى عينيه أبلغ وأوضح تعبير إجتذبها إليه فهطعت صوبه تقصد إنتشاله وإيداعه إحدى دور الحضانة ريثما يظهر له أهل .. إن كان قد بقى منهم على قيد الحياة أحد ! ..
غيرأنها تسمرت فى مكانها على قيد خطوات منه فقد نالته إحدى الشظايا وشطرته نصفين فى منطقة الخصر من البطن للظهر وألقتهما كالخرقة البالية بجوار بعضهما على الأرض التى تخضب أديمها بالدماء وطاش منها الصواب وهى تحدق فيما ترى متخيلة (بحكم دراستها) أنها تنظر لقطاع عرضى من جذع شجيرة .. جزها منشار عالم حيث بدت حلقات الجلد والدهن البيضاء تحيط بحلقات أخرى من اللحم حمراء ثم حلقة غير متصلة من العظام .. وانتابتها نوبة هستيرية من الصراخ وأخذت تخمش وجهها بأظافرها حتى أدمته وتشد شعرها كأنها تنوى أن تقتلعه من جذوره ! ولسانها يلهج بالسؤال الذى كان لا يزال ينطق فى عينيه .. وفكرت أن تهوى عليه وتلتقطه وتضم شطريه إلى بعضهما وتخبئه عن الأعين فى حنايا صدرها بين الأضلع لئلا يصيب أصحاب الأعين التى تقع عليه ما أصابها من فظاعة المنظر الذى لا يتحمله بشر .. فكرت أن تقبل كل خلية حية فيه فهو مع الأبرار يرف بجناحيه فى سماء الجنة فوق رؤوس الفديسين والشهداء ويغرد أعذب أغلنى الخلود ليسعدهم ويملأ أفئدتهم فرحة بحياتهم الأخرى ! .. فكرت ثم أحجمت لأن السؤال فيما تهيأ لها طفر من العينين البراقتين وقفز كالخفاش يريد أن يلتصق بعينيها ليجاور السؤال الأزلى « بأى ذنب قتل ؟ « ويدعوها لإستقطاع الإجابة المقنعة من قلوب وعقول البشر وراحت تجرى فى لاوعى كأن خفاش السؤال يطاردها فعلا لا تدرى أين المهرب ولا حتى أين تذهب هذا المساء !
كانت تجرى فى الإتجاه المضاد على غير هدى ووقع فى وهمها من شدة غياب وعيها

أنها تسمع أصواتا رهيبة تهوم حولها وتزجرها بخليط من الصراخ والنواح والإستغاثات وأصوات الإنفجارات وارتطام الجدران ببعصها فى تطوحها ذات اليمين وذات اليسار قبل أن تنهار والأعمدة التى تئز وتطقطق قبل أن تركع وتخر ساجدة والأسقف التى تقرقع تود لو نطقت بشهادة التوحيد قبل أن تفارق وجه السماء .. ياالله .. ماذا أصاب خلقه وما صنعوا فى كل النواحى وأطفال ونساء وشيوخ يفندون الأرض بحثا عنن ملجأ ترتسم فى أعينهم رهبة بصعب وصفها وعلامة الإستفهام الكبرى .. لا بل أكثر من علامة .. علامات إستفهام لاحصر لها .. لماذا وما المصير وأين المفر ؟ الأرض كلها صارت ساحة قتال من جانب واحد ! .. الموت يحدق فى كل مكان .. الأطفال الأبرياء مذا جنت أيديهم وكل الضعاف من النساء والشيوخ والنبات والحيوان والأرض الزراعية الخصبة التى تفحمت مادتها العضوية والدوبال المغذى صار جافا هشا و .. وينكم يا عرب !؟ .. وينك يا دعوات العجائز والمظلومين فى أخريات الليل ؟! .. وين صلواتكم ودعوات الأمهات والآباء للأبناء ! .. وينك يا دعاء الكروان فى السحر ! ومالك الحزين فى شفق المغيب ! .. لامفر .. لا مهرب .. إنه يوم القيامة فى الدنيا .. قيامة صغرى فكيف بالكبرى ! .. الجو حار فى عز الشتاء من شدة الوقيد والتحريق ونار جهنم أشد حرا ! .. فمن يعمل لعبور الصراط المستقيم .. من بحتسب .. رحماك يارب !

- حسبنا الله ونعم الوكيل !

لمن الصوت الرخيم ؟ .. إنه صوت غير معذب ! وشعرت بانامل رفيقة خفيفة توضع على كتفها الأيمن من الخلف كأنها تمسك بتلابيبها لتتوقف عن سباق الجرى الذى نهاية له ! توقفت مخلوعة القلب ونظرت خلفها فرأت وجها جميلا سمحا يبسم لها فى وداعة ولطف لرجل فى عمر الشباب وفتوته بادرها قائلا فى رقة وعطف :

- أنا من أعطاك صورة الطفلتين الشهيدتين فى المرة السابقة ..

وتريث ثمة ريثما يقرأ أثر تصريحه على محياها ثم استتلى عندما تأكد له أنها تتفهم ما يقوله :

- معى الآن ثلاث صور للطفل ال ..

قاطعته فى حرارة وحماس :

- أعلم بقية الكلام .. إعطنيها وسأصعد بعون الله من فورى للطيارين الثلاثة ! .. بسرعة قبل أن يهربوا منى !

واختطفت الصور من أنامل الرجل الممدودة إليها ثم رفعتها ورفعت معها ذراعيها ورأسها للسماء وعيناها تبرقان بشرا وتصميما وصاحت :

- يا قوة الله إرفعينى إلى الطائرة الأولى !

لم تتحرك وانتظرت أن نواتيها نلك القوة .. إنتظرت طويلا واكتنفها الخوف من أن تكون فقدت قدرتها على الحلم مثل بقية قومها !.. أو أن يكون الله غير راض عنها أو عما تفعل فأجفلت وحولت أنظارها للرجل تستجير به فلم تره إختفى

كما ظهر دون مقدمات وتركها وحدها تواجه الموقف كله وكأنه يضعها فى إختبار لياقة فضائية ! ويتحداها أن تنجح ولا تدرى لم شعرت بفورة من الغضب آنذاك وقالت لنفسها :

- أقبل التحدى .. وإن كنت لست على ثقة من أن يقوى أى إنسان على تحدى مثل هذا الرجل الطيب .. ذو الوجه الصبوح !

وبغتة شعرت بشىء يضربها على رأسها من الخلف فى منطقة (المخيخ) وأعصاب الوعى والتنبه .. لعلها إحدى الحصوات الطائرة .. أو شظية من السماء أو الأرض .. واستشعرت الوهن يسرى فى بدنها كما النار فى الهشيم ورغبة فى القيىء ودارت بها الأرض حولها وسقطت مغشيا عليها ، وفى التو رأت نفسها نطير فى الهواء وتعلو أجواز الفضاء حتى إذا صارت فى مستوى الطائرات الثلاث التى يبدو أنها كانت تقفل راجعة لقاعدتها بعد أن أتمت مهمتها طارت فى مستو أفقى تدفعها قوة صاروخية ولحقت بأول طائرة .. وإذ رآها الطيار تقتحم عليه مملكته التى لم يكن (ولا فى الأحلام) يتوقع أن ينازعه فيها منازع حاول أن يترك مكانه ويقفز من الطائرة نافذا بجلده .. لكنها لم تعطه الفرصة وعرضت أمام عينيه صورة إبنه وقد إنقسم جذعه نصفين متجاورين فى بركة من الدماء وفى عينيه وعلىطرف لسانه سؤال صارخ :

- لماذا قتلتنى يا با با ؟!

فساورته حالة إنفعالية إنهيارية شديدة وهتف من فؤاده :

- آه يا حبيبى يا شلومو !

ونثر دموعا غزيرة وتوسل إليها ألا تقول لوالدة الطفل أنه هو الذى قتله ! فراحت تكفكف دمعه وتهدىء من سورة نفسه وهلعه وإنكاره لتلك النفس وماجنت ! وسألته ماذا يفعل لو أنها توسلت إلى الله فى صلواتها أن يكون ما يراه حلما ويعود فيرى فلذة

كبده حيا .. قال :

- لا أعود لهذا العمل ..

قالت ببسمة من عبنيها وشفتيها متسائلة على هون وبتركيز :

- وعد ؟!

فأجابها بحماسة لم تر لها مثيلا :

- وعد .. وهل فى ذلك شك ؟!

غمغمت مفاجئة إياه :

- إعطنى هويتك العسكرية !

تساءل بفضول وعدم فهم :

- ماذا ؟

- إن كنت حقا صادقا وسأعيدها لك فى الوقت المناسب !

أعطاها إياها وهو صاغر فغادرته فورا وانتقلت إلى الطائرة الثانية فالثالثة .. وأتمت مهمتها مع الطيارين بعين النهج وبنجاح ملأها حبورا ونشوة وهى تهبط من علياء السماء وتقول لنفسها :

- تالله إن الحياة الدنيا لرائعة بكل ما تغص من زينة ومآس !

ومع ملامسة قدماها لسطح الأرض أفاقت من غيبوبتها أو حلمها الذى سيطر عليها فلم تدر إن كان حلم يقظة أم غياب وعى فهذه المرة كانت مختلفة .. وعندما فتحت قبضة يدها اليمنى تحيرت وحزنت لأنها كانت فارغة من بطاقات الهوية العسكرية للطيارين الثلاثة .. لكنها حافظت على إيمانها وثقتها بنفسها وقناعتها بأن الرحمن سبحانه سيريها آية نجاحها ذات يوم فكل شىء عنده بقدر وأوان تجلت قدرته .

- ٥ -

ألفت نفسها تعدو فى المكان الذى بارحها فيه الرجل الصبوح وكانت رائحته الزكية لاتزال لها الغلبة على ما عداها من روائح الحرب الكريهة فلم تشأ تفكر فى طبيعته هل هو بشر أم « ؟ « .. هل هو حقيقة أم محض خيال ؟ ، يكفيها أنه ظهر لها فى صورة آدمية محببة على خلاف ما وقع فى المرة الفائتة من عدم تجليه لها ، وهذا ربما يعطيها فكرة بأن الأمور تتقدم رويدا ، من يدرى لعله يرافقها فى الجولة القادمة للمعاونة ، وأحست بخلفية رأسها تؤلمها فلمستها بأناملها وهى تركض وتأكدت أن ثمة « ورم صغير « بها ونظرت لى باطن الأنامل عندما سحبت يدها فرأت ما أقلقها وغمغمت :

- دم ؟!

لكنها سرعان ما تخلصت من أثر مارأته فى نفسها وهو هين إذا ما قيس بما عساه قد وقع للآخرين .. ومن هذا كثير فالأرض وما عليها من مبان وأشجار وإنشاءات تشارك الآلات العدوة فى رشق الأحياء (والأموات أيضا) بما يضع نهاية لحياتهم أو يسيل الدم من جسومهم ، وقد نالت نصيبها منها فى مواضع عديدة من بدنها بيد أنها وحال الجميع أسوأ لا تستحق الذكر ولتحمد الله ، إرتفع صوتها :

- الحمد لله !

فهى لم تزل تجرى بساقين وقدمين وبقليل من العقل إلى لامكان ولاهدف !

لم تكن تفكر كانت تعدو فحسب مع من يعدو ، وبقيت ساعات طوال على هذا النحو حتى خرجت بعيدا عن مشارف المدينة المنكوبة ، وصارت ضائعة فى تيه شبكة من الطرق المدمرة التى تبعثرت عليها بكثرة طبقات وقطع مختلفة الأحجام والأشكال من « الأسفلت الأسود « ومالت عليها أبراج تهشمت قوائمها وعوارضها وتركيباتها وأسلاك توصيلاتها للكهرباء والهاتف الأرضى وسقطت معها « الأعشاش القش « بما تحويه من أفراخ وبيض العصافير والورور !

عبرت جسرا تهاوى سطحه وخرج عن قواعده وأعمدته التى تلوت أسفله وكادت أن تتدحرج فى بعض مواضعه لتلاقى أحضان جثث تعفنت لحيوانات إنقلبت على ظهرها ورفعت أذرعها وأرجلها لأعلى فى أوضاع تثير العطف والشفقة وكأنها كانت تدعو الله دعوتها الأخيرة قبل نفوقها أن يجعل لها نصيب فى جنته .. ولم لا أليست من خلقة ؟ .. ألم

تكن لها أرواح وأحاسيس ولغة تتفاهم بها وتسبح بحمده ؟ .. ألم يكن لها عمل ورسالة فى الحياة تؤديها للمشاركة فى إعمار الأرض وتنعم أعقل حيواناته ! .. أهذه نهاية سنوات الخدمة ؟! .. بأى ذنب قتلت هى الأخرى ؟ ومن ذا يقتص ويثأر لها ؟ ..

اوجعها المشهد المأساوى ووقفت ثمة تلتقط أنفاسها وتكفكف مدامعها وكان الرهق والجوع والعطش قد أخذ منها كل مأخذ ومع ذلك واصلت الجرى لا يربطها بما يحيط بها إلا النظر والفؤاد وكل من حاستى السمع والشم اللتين ضعفتا من شدة الأصوات عالية التردد التى إخترقتها أو الروائح عالية القذارة وتلك المتعلقة بأنفاس الحرب التى لم تشمها قبلا عن قرب التى تفغم الأنوف ومن إنسداد كل الفتحات والمسام بالوجه بالأتربة وغبار الدخان .

وكانت عيناها لاتفارقان الأرض لتتحاشى العوائق والمزالق والحفر الغائرة وقطع الشظايا الملتهبة والحادة التى كست وجهها وهى متنوعة من القذائف والمعادن ومواد البناء والزجاج والفللين والبلاستيك والكاوتشوك ! .. كل شىء صار حادا وملتهبا وساما وقاتلا لتغير طبيعته بفعل الحرب والكراهية .. وكم من مرة رفعت رأسها للسماء تستعجل أن ينزل الله من المزن غيثا يهبط بردا وسلاما على الأرض وساكنيها .. أو بمعنى أدق من بقى منهم على قيد الحياة .. سبحانه قادر على كل شىء ..

كم من مرة تمنت أن ترى الطير الأبابيل الوهاجة الأجنحة التى عرفتها فى ربيع القلوب ورأتها فى أحلامها تتسلح بأمر الله بحجارة من سجيل لتجعل كل ظالم تجاوز المدى من بنى آدم فى كل زمان ومكان كعصف مأكول .. والظالمون اليوم يعرفون أنفسهم مهما ركبوا الأعالى أو تدرعوا فى حصون ثابتة أومتحركة من الحجر أو الحديد أو البشر !

ولن تكون حجارة سجيل مثل تلك الأرضية فى أيد ومقاليع الفتيان الذين رأتهم وسمعت عنهم يطاردون عدوهم المتحصن فى الدبابات والمدرعات والسيارت المصفحة .. رباه ياقوى .. من يقاتل من ؟ولمن جيش هؤلاء إن كانوا عقلاء كل هذا العدد من الطائرات والدبابات والمدرعات المحتشدة على مداخل القرى والمدن على البر فليس ثمة حدود ! .. وزوارق الصواريخ والمدمرات والغواصات فى البحر .. من يقف أمامهم ؟ .. من عدوهم ؟ .. بأى سلاح يدافع ؟ .. على حد ما استطاعت أن تتلقطه بأذنيها من هنا وهناك من بعض الأصوات الآدمية التى لاذت بالأحراش والأدغال والمغارات وراحت تتناقل الأخبار مع الأصدقاء وذوى القربى عبر الهواتف المحمولة نقلا عن الإذاعة المحلية ووكالات الأنباء

الأجنبية من خلال أجهزة بث صغيرة بالأيدى .. أن رئيس وزراء دولة كبرى جارة وصنوة فى المنطقة للأمة العربية وفى ذات الوقت تسعى للإنضمام للإتحاد الأوربى إسمه طيب (وهو بالفعل طيب) زار قادتهم وسألهم :

- من تقاتلون وماهدف حربكم ؟

فأجابوه :

- نقاتل الإرهاب وندافع عن أنفسنا ولن نتوقف حتى تتوقف الصواريخ !

-- أية صواريخ ؟

سأل فاجاب قادتهم :

- كاتيوشا القسام !

فتبسم وأمسك نفسه من الضحك وقال :

- تلك التى تصنع فى ورش الحدادة !.. وماذا سببت لكم ؟ .. ما عدد من قتلته منكم ؟! لم يجدوا جوابا وكان هذا يعنى أنها ليست حربا .. بل عدوان جيش مدجج بأسلحة حديثة كيماوية وبيولوجية وغير تقليدية .. إزاء مدتيين عزل معظمهم من الشيوخ والعجائز والنساء والأطفال .. أما الرجال فإنهم إما كانوا فى مرابض تحت الأرض يطلقون قذائف الهاون والصواريخ من فتحات لا يراها عدوهم سرعان مايتم تغطيتها بعد الإطلاق .. وإما كانوا يتربصون خلف الجدران أو الأسوار وفوق الأسطح أو داخل حفر بالكتل السكنية ينتظرون بعد المعركة الجوية معركة أرضية توعدهم بها العدو وقيل كما (سمعت) أنها تنقسم إلى مرحلتين .. مرحلة إصطياد الأهداف على مخارج ومداخل وأحزمة المدن على مبعدة .. ومرحلة التعمق فى الكتل السكنية وهى التى كان ينتظرها بفارغ الصبر رجال المقاومة للإلتحام بالمدرعات والدبابات داخل الحوارى والأزقة التى يحفظونها عن ظهر قلب ..

- سنريهم العذاب فى أنفسهم .. سيعرفون قدرنا .. ويل لهم ! .. سنجرعهم نفس الكأس ومن حزب الله فى جنوب لبنان سنلقنهم نفس الدرس !

كل هذا تناهى إلى سمعها ووعته وتنبهت له وهى تفكر ولا تعرف أين نذهب ولا أية وجهة تتجه .. وبلغ بها تعبها وجوعها وظمأها حدا لم تعد معه قادرة على مواصلة الجرى وانهارت قواها ومقاومتها وسقطت على الأرض فى منطقة خالية تفحمت أرضها إلا من بقعة صئيلة يتوسدها جذع نخلة إنشطرت عنها قمتها واحترقت ونطايرت وتبعثرت فى

أرجاء المكان ولم يبق سليما منها غير الجزء القريب من الأرض فأسندت إليه ظهرها واستشعرت أنها فقدت إحساسها بما حولها ولم تدر تلك المرة أيضا إن كانت على وشك أن تفقد وعيها أو يداعبها النوم !

***

كان الليل قد أوشك أن يرخى سدوله عندما غلبها التعب فوضعت الحقيبة تحت رأسها ونامت نوما أرقا متقطعا تخللته أحلام مزعجة أشبه بالكوابيس عن عراك دار بين أفراد وعناصر مقاتلة بين منظمتى فتح وحماس ..

وكان لزاما على هدى فى أحلامها أن تنشط لإصلاح ذات بين الأخوة فرأت نفسها تقف على الأطلال تناشدهم قائلة :

أبناء وبنات ربى فلسطين .. يا حبات سنابل مروج القمح
كنتم حبـة أثمـرت ملايـين .. حراس مسرى الرسول السمح
أول قبلة وثالـث الحرمين .. يناشد رجال الحماس والفتح
بحق عرفات القوى الأمين .. جـبل ماهـز الريـح له سفـح
والرنتيسى والشيخ ياسين .. شهادتهم للحياة زغاريد وفرح
الوهم صحيح الأخـسرين .. والجهاد الأكبر للنفس أصح
والحكم شهوة الكلاميين .. ومن بأوطان لاتعانى مس قرح
محب البقرة يخفى سكين .. تطويش الرقاب بتفاوض وردح
أقصاه حائط مبكى الدين .. وأمهات ورضع بانتظار الذبح

وتجاهلها الرجال على الجانبين وواصلوا مابينهم من خلاف وشجار فاستطردت :

تنبهوا لمزاد أقيم من سنين .. لتركة مريض بالوهم والمسح !
كونوا بالإيثار حبل متين .. عروته الوثقى إعمار وصفح
أنظار العالم عليكم أجمعين .. ترقب أبواق الكلام عن الربح
أنصروا الله بفعل يستعين .. بما وقر بالقلب وصدقه الكدح
فرق تسد شعار المتربصين .. بدين يبتنى للأخلاق صرح

واستجاب لضراعتها أحد عقلاء المجاهدين وانبرى مؤازرا دعوتها فى إخوانه قائلا ومكملا :

يشترط إيمانا برسل الأولين .. ودين من يكيلون لرسولنا القدح
بنى وطنى هبوا مخلصين .. لنصرة الأقصى ونبى دين الفتح
نتفاخر بزمن منقطع ثمين .. جماله فى نواصل العطاء والمنح
فجاوبه رجل من المعسكر المخالف وهو يغمز بعينيه فى تهكم :
لاتحلموا بمستقبل دولة دفين .. وأنتم فى ميزان الجمع والطرح
فأمسكت هدى بتلابيبه (فى الحلم) متوسلة كيلا يسكب الزيت على النار وتمتمت :
بالعمل والتقوى يرتفع المكين .. والإصلاح للنفس تحليل وشرح
أسماء تسجل بقوائم الضائعين .. من تقاتل إخوان الذكر والمدح
شهداء وأبرار بجنان الخالدين .. يدعون لكم لهدى إلتئام الجرح
فقاطعها الأول مؤكدا :
لا تكونوا ظهيرا للمجرمين .. إغراق الجذور للشجر ذبول ونتح
وعاد الثانى للهجة التهكم لكن بنوع من التمزق والحنق :
إرفعوا الستار عن المفسدين .. يكفى الأسرى شرب العلقم والملح
وزمجر الإثنان ورفعا السلاح فى وجه بعضيهما فحالت هدى بينهما وهمست
تستميلهما :
بالأمس عرفنا المقاومة فدائيين .. أرواحهم بأيديهم سيف ورمح
ظلمتم أنفسكم بفعال الضالين .. لعبة كبرى لعبت عليكم بقبح
نورالله لا تطفئه أفواه منكرين .. والوئام تمام لنوره والصلح
فكروا بالأهل يا حماة العرين .. فلسطين لاتحتمل ترف النصح
والأقصى يتبسم بوجه حزين .. لمن بقلبه القرآن ربيع وصبح
آذانه تمتمة بنفوس السامعين .. الجبهة والجهاد حماس وفتح !

***

وصحت فى صبيحة اليوم التالى ولم تكن صحوتها للسع أشعة شمس اشتدت لهيبا شتاء وإنما على أثر حذاء ثقيل يركلها فى بطنها بترفق مبعثه أسباب لا تمت بصلة لرقة الراكل ! إستوت جالسة بجزع وهى تفرك عينيها فترقرق الدمع ألما من دقة تصويب الركل ولأن أناملها لم تكن نظيفة ! وأصوات غير بعيدة لمجنزرات تصلصل فى البر وطائرات تخور

وتصهل فى الجو ورفعت رأسها رفعة جسورة ليقع بصرها بعد أن زالت غشاوة الأدمع على شابين يرتدى كل منهما جلبابا أبيض فوق بزة عسكرية برزت من قبائه وأكمامه وذيله القصير ! وقد عقدا رأسيهما لسبب يبدو أنه يخصهما وحدهما بشريط أخضر مكتوب عليه الشهادتين مما يميز شباب حماس ..

واستولى عليها الحذر والتوجس مما ظهر عليهما من التلطف الذى شبهته بالجلباب فى كشفه لحقيقتهما التى تتماشى مع ماتنطقه أعينهما من بريق مفهوم مغزاه وأسباب إختلاط الرغبة بالعداء الذى لايمت بصلة لخائنة الأعين وشباب الشريط الأخضر !

وبدأت تفكر فى إستدعاء دربتها الرياضية وعزمها الرشاشى ! الذى إدخرته طويلا لتلك اللحظة وتلاقى نظراتهما النهمة بعلامة تعجب وتحد كبيرة تشى بما يعتمل داخلها ..

وخاطبها أحدهما موضحا (بصراحة) وبلغة عربية معوجة هويتهما وعلى الرغم من أنه لم يكن بحاجة لفهم أنها فى غير حاجة لتكذيبه فعلامات جنسيتهما غير الودودة التى يتظاهران بغيرها سافرة فإن الغبى إستنتج من نظرتها أنها لا تصدقه وأراد أن يثبت ذلك بغباء فرفع جلبابه وفتح سرواله ليبرهن لها من حاله أنه غير مسلم !

- أوو .. لا .. ليس غبيا بل ذكيا يكشف عن رغبته !

جرى الكلام بداخلها فصرخت بغضب صرخة مكتومة وأشاحت بمحياها بعيدا تبحث لعينيها عن مهرب فما كان منه إلا أن غرق فى نوبة من الضحك المنتشى المتواصل شاركه فيه زميله وأضاف لذلك تصرفا أخرق لاتفسير له سوى ما يكتظ به التاريخ من سمات المنتصر ! وقد أبان عن حاله بدوره وإبان ذلك يقهقه ويدمدم بلغة غير مفهومة فأدركت الخطر الذى أحدق بها وأنها حتما هالكة بعد اغتصاب أغلى ما حرصت عليه طوال حياتها فقررت أن يكون ذلك على جثتها .. ولم تفكر طويلا أو تحلم بالنجاة دون جهد فهذا هو الإرهاب الذى حاروا فى تعريفه ! .. وتم لها فى ذهنها وأعصابها وعضلاتها إستحضار رياضتها الأسيوية المحبوبة التى لا تستلزم قوة جسدية بقدر ما تستلزم تجميع قوى النفس الهائلة فى لحظة وبعثها من عرينها وتركيزها ومجابهة الخطر الداهم بها ..

قد شاهدت عشرات الأفلام « السينمائية « التى تمجد أصحاب تلك الرياضات وتضعهم فى مصاف أبطال الأساطير وهم لأجسادهم الخالية من كثافة اللحم والعضلات يحسب الرائى أنهم لايتحملون « نفخة « أو « غلوة « ! فإذا هم حينما يجد الجد لا يكاد يراهم من سرعة الحركة والطيران فى الهواء والدفع الماحق بالأيدى والأرجل ! .. إستحضرت

كذلك علم التشريح والضرب فى أماكن التأثير على تماسك وصمود الرجل !
ولأنها كانت تدرك أثر الجوع والعطش على القوى الذاتية تظاهرت بمجاراتهما وقالت تصطنع المرح :
- هل معكما جرعة ماء أو أى مشروب منعش !
تبسما وتبادلا نظرة تفاهم ترحيبا بكلمة منعش التى نطقتها الماكرة بصوت فيه غنة واستتلت بعين الصوت لتخدرهما : - وأى مخبوز يحتوى على شوكولا وسكر ! .. كى أستعد تماما لكما !
فتضاحكا سرورا وأعطياها معا فى وقت واحد ما طلبت فارتوت وشبعت وشكرت ولم تتقزز من رغيف الخبر الكبير المحشو لحما الذى عرضه عليها أحدهما لعلمها أن اليهود لايأكلون لحم الخنزير وشكرته قائلة بصوت يزيده بسكره خدرا ونشوة :
- يستحسن أن أكون خفيفة ! .. وألا يختلط بأنفاسى رائحة اللحم !
إستحسنا قولها حتى أوشكا على نوم الجياد من خدر الصوت المسكر ! فأدركت أنها على الدرب وأمعنت فى لهوها بهما فسألت :
- هل معكما عطر ! .. أريد أن أتعطر لكما !
تسابقت يداهما بما طلبت وانتهز صاحب الرغيف حالة الرضى والفتوح التى تظاهرت بها وبدأت يده الخالية تعبث على حين كان الآخر أكثر واقعية منه ولأن يده كانت أسبق لحظة من يد رفيقه فخلت كلتا يداه لها وطوقها بذراعيه من الخلف بتودد وهوينيم رأسه على كتفها ويلثم شعرها فتمتمت هى :
- اصبر !
وخبأت إحدى زجاجتى العطر فى صدرها فى المكان الذى إعتادت أن ترى أمها تخبىء به بعيدا عن أيدى النشالين كيس النقود ! إذ كان رداءها الممزق بفعل ما تعرضت له البارحة يخلو من الجيوب وضاعفت تلك الحركة العفوية صاحب الزجاجة الذى نام على كتفها من الخلف نوما فألهمها ملاكها الحارس أنها فى أنسب وضع لإتقان إحدى الحركات السهلة التى تدربت عليها وما زالت ذاكرتها الذهنية والعضلية تعيها وبادرت بتفيذها وفى لمح البصر ركزت رشاش العطر فى عينى العابث ! بيد وتعلقت بالرقبة التى طال نومها باليد الأخرى واشرأبت بجسدها كله لأعلى كمن ينوى أن يؤرجح نفسه !
وهى تستجمع فى كل خلية من ساقيها ورجليها كل ما استطاعت من قوة وتصرخ

بصوت مدو متواصل :

- الله أكبر .. !

ثم إنثنت فجاة وهى ترفع النائم من الخلف للأمام لينزلق على كتفها بعد أن دار دورة كالة فى الهواء إنسدح بعدها بظهره على ظهر الثانى الذى ناله منها بنفس التوقيت والحركة ضربة قاضية من رجلها فى بطنه من أسفل وسقط على هذا البطن الأمارة بالسوء وهو يصرخ ألما للحريق الذى شب فى عينيه أيضا وأصابه أو كاد بالعمى !

ولم ينته الأمر عند هذا الحد الذى تمخض عن نتيجة أغرب من الخيال والأحلام التى تجيدها فى اليقظة كما فى المنام وفاق جميع المناظر التى تفتقت عنها أذهان العباقرة مخرجو أفلام العنف العالمية التى تكرس لبث العولمة وتفوق الشخصية الشعبية الأمريكية !

فإن سقطنهما ظهرا لظهر كالعصفورين قتلتهما بنصل واحد .. كيف ؟!

لنسل من كان معها يعاونها بمشيئة الله عندما ضعطت يد العابث الأعمى دون قصد على سلاحه فانفردت شفرة حادة بيضاء مسنونة على حجر ! كانت مطوية داخله واتجهت مباشرة نحو رقبة رفيقه فجزتها قبل أن تهوى وتنغرس فى بطن صاحبها وتنقذ لطولها من ظهره لتعاود الغرس فى ظهر الآخر ! ويتدفق الدم منهما بغزارة ويخوران وهما يلفظان أنفاسهما الأخيرة .

خيال من نوع لايصدق ..

- ما رميت إذ رميت لكن الله رمى ..

وهتفت كذلك :

- الله أكبر .

لم تأخذ بالها من أنه كان هناك شخص ثالث يشبه كثيرا والدها ! تسمر مبتسما كالأبله أو كالتمثال على مقربة وشاهد وتسمع بالقطع لصوت طقطقة فقرات عنق زميل له تكاد أن تنخلع من شدة جذبها وهى تكاد أن تطير به فى الهواء من قوة دفعها لأعلى على الرغم من ثقله وما وقع فى ذات الوقت لزميله الثانى من تلك النمرة العربية الرياضية التى لا تمثل ! .. ثم ما قدره الله لهما من نهاية ..

- لكن لم يتبسم هكذا كأنه شاهد ما أسره وأمتعه ! .. ولم له هذا الوجه لأبى يا إلهى ؟! أطلق فى وجهها صرخة مروعة فأردفت :

- لا .. هذا ليس أبى !

ولم تجد لها تفسيرا إلا أنها صرخة « ما بعد الخوف والمقت « ولم يتريث حتى تستوثق إن كانت مصحوبة « بما بعد الغضب ! « لأنه كان قد أطلق مع الصرخة لساقيه العنان وأخذ يجرى وينكفىء على وجهه مبتعدا وهو يتوعدها ويبصق ويتفوه بألفاظ نابية بلهجة عربية ركيكة فأومأت برأسها بغير اكتراث كأنها ترد عليه وترثى لحاله وتؤكد لنفسها أنه ليس بالقطع والدها فهو ليس سليط اللسان هكذا .. فضلا عن أنه يستحيل أن يشتم ويسب فتاة أو امرأة !

كان خائفا لدرجة أنه نسى ان يستخدم سلاحه المعلق مع النجمة السداسية بكتفه .. واختفى وراء التباب المحترقة السوداء التى خيل لها لعينيها الهادئتين أنها إبيضت من شدة فرحتها بها فهى أرضها منها وإليها وجاوبتها النخلة التى تشاغلت بتصفيف جدائلها فرحة بإبنة الأرض التى أينعت عليها وبالطيور البيضاء.الناصعة التى تجمعت لتحيتها وحطت عليها لترف ما وسعت باجنحتها راقصة تزقو وتغرد .. تالله إن الحياة لرائعة وإن النصر لأعذب نعم الله لا سيما إن كان عادلا ! وفى تلك اللحظة البالغة الجمال وقع لها حادث سعيد آخر .. وكأنها فعلا فى حلم جميل من الله به عليها .. إذ توقفت عربة إسعاف بجانبها وهى تائهة كأن أحدا إستدعاها لتسعفها وأطلت على السائق بنظرة من إلتفاتة سريعة وقلبها يبعث إلى عقلها رسالة بديعة « إنه هو ولا أحد غيره منقذها « .. أتى لينتشلها من الهلاك ثانية مبتدرنها قائلا بمجرد وقوفه :

- إركبى بسرعة ولاتنس الحقيبة ! فإنهم سيأتون فى لحظات بأعداد غفيرة داخل الدروع للقضاء عليك .. بسرعة هيا بسرعة !

فركبت دون تردد وهى تسأله وكأنها على موعد معه :

- لماذا تأخرت ؟!

وبكت مما واجهته من هول وحدها فتركها هنيهة ريثما تصرف ماران على فؤادها من الوقر وتمتم وهو يضغط على يدها ويبتسم :

- ليس مسموحا لك بالبكاء .. إن الأهلين قد رأوك من حيث تعرفين أنهم يختفون وأنت تتفوقين على نفسك وعلى من هم أقوى منك بشجاعتك .. إن بطولتك ستجوب الآفاق وتلقى فى قلوب أعداء الله الرعب .. ولهذا ليس مسموحا لك بالبكاء !

ضحكت من طريقته فى الكلام مسرورة وسألت كأنهما فعلا كانا على موعد :

- أين نذهب ؟!
أجابها حاسما :
- طوع أمرك يامولاتى لأنك بطلة ! .. لكن لحظة حتى أرى طريقا آخر نسلكه بعيدا عن أولاد البعدا !

***

ولم يضع وقتا وانحرف داخلا كتلة سكنية فى إحدى ضواحى غزة التى كان يعلم أنها آهلة بالسكان وبالمقاومين وأن
قوات العدو تتحاشاها وأمثالها ليقلل إلى أدنى حد خسائره البشرية .. وهو ما كان يحرص أشد الحرص عليه فيما دلت عليه الشواهد منذ بدأ العمليات الجوية التى دمرت فيها طائراته كل الأهداف الحيوية من مناطق تمركز قوات الأمن الداخلى إلى مبان الوزارات والهيئات الحكومية ..
ويبدو أن غاراته كانت تتخذ من بعض العلامات المميزة لبعض المبانى هاديا ومرشدا إذ حرصت على بقاء بعض الأبراج وبعض الأسطح الجمالونية الشكل والنغطاة بشرائح طوب القرميد الأحمر .. وبدا الأمر وكأن العدو خلال سنوات إحتلاله للقطاع منذ الأثنين الحزين الخامس من يونية عام الف وتسعمائة وسبعة وستين وحتى سحبه لقواته ومستوطنيه بعد ما يقرب من أربعين عاما .. فد راعى فى تراخيص البناء والتوسعات بمخارج المدينة ومداخلها أن تصمم بطريقة تسهل له عملية إقتحامه لها ودخوله من أى إتجاه إلى الأعماق الحاكمة داخلها .. أو على حد قول « أبى رياض « وهو إسم منقذها :
- العدو أحاط غزة من ثلاث جهات .. شمالا عند « بيت لاهيا « و « بيت حانون « .. وشرقا عند « تل الهوا أو الريح «
و « حى التفاح وحى الزيتون « .. وجنوبا عند ماكان يسمى مستعمرة « نتساريم « أو أطلال تلك المستعمرة بعد نزوح المستوطنين عنها .. واتخذ من تلك المواقع ومن السيطرة على بعض التلال الحاكمة مواطىء لقدمه يمتد منها داخلا من شوارع غير مأهولة وخالية من المبان والسكان ليقسم القطاع إلى ثلاثة أقسام .. وخاصة هذا القسم الممتد من موقع تلك المستعمرة إياها حيث ينوى أن يمتد غربا وهى مساحة صغيرة

وقصيرة المحور ومنطقة ضعيفة تماثل الخصر من جسم الإنسان ! وأظنه فعل هذا وبلغ السهل الساحلى المشاطىء للبحر !

صاحت منزعجة وهى تتفرسه بعينيها حيث كان يتحدث كأنه خبير عسكرى :

- معقول .. دون مقاومة !

- كيف دون مفاومة .. هناك معارك طاحنة تدور الآن ف تلك المناطق لكنها غير متكافئة سلاحا .. حيث يواجه الرجال عدوا محصنا فى الدروع والدبابات ومعه أسلحة حديثة لا تكتفى بالمقذوفات النارية وإنما تتعداها لأسلحة مثل طائرات الإستطلاع بدون طيار التنطلق صواريخ تضرب الرجال بعد تحديد مواقعهم بكل دقة ..وأخرى تعتمد على إطلاق ذبذبات سمعية وكهربية تخاطب الأعصاب وتفتك بها مصيبة صاحبها بالشلل !

- ياساتر .. ! .. يا لطيف .. ! .. وماذا فعل الرجال ؟!

أجاب بحماسة وعيناه تدمعان :

- يقاتلون يشراسة وأصابوا العدو بخسائر مادية فى العتاد ومعنوية فى الأرواح والبشر !

- والصواريخ ؟

سألت وهى تفكر فأجابها :

- تقذف بمعدل ثابت يتراوح بين الثلاثين والأربعين كل يوم ! .. وإذا مر يوم بمعدل أقل ظن العدو أنه حقق نجاحا .. لكنه فى اليوم التالى يفاجأ بعدد من الصواريخ يعوض مالم يطلق فى اليوم السابق ..

لاحظ أنها سألته ثم إنبرت لتوها تحملق شاردة فى اللامنظور من خلال الزجاج الأمامى كأنها على وشك الدخول فى حلم فسألها مستطردا :

- فيم تفكرين ؟

أجابت وهى تمعن فى التحديق فيما أمامها وإلى بعيد كأنها ترى ما تفكر به :

- فى أم على رأس البحر الأحمر !.. أسيرة منذ قرابة ستين عاما بعد استشهاد جميع أبناءها

هز رأسه متفهما وغمغم :

- آه .. هكذا حال كل الأمهات بوطننا للأسى والأسف ! .. كنت أحدثك عن أن الصواريخ تصيب سديروت وتصل إلى مدن بعيدة مثل أشدود وعسقلان .. بل وإلى قواعده العسكرية والجوية .. وهناك خسائر فادحة غير معلنة !

- بأية نسبة ؟

إلتفت إليها وهو يتفادى إنحنائة مفاجئة فى الطريق وتساءل :

- ماذا تقصدين ؟

تلعثمت منتبهة وقد تيقنت أنه لامبرر لسؤالها فشرح لها بتوسع أن النسبة معروفة وتمثل الفارق الحضارى والفارق الكمى والنوعى الهائل بين قوتين إحداهما بالنسبة للأخرى غير موجودة ولولا شجاعة الرجال وما تضيفه للسلاح من إمكانات ترفع من أدائه لتم تصوير الحرب فى مجملها على أنها من طرف واحد متخم ومدجج بأحدث الأسلحة وبجميع أنواعها وإمكاناتها المسموح وغير المسموح بها .. مثل إستعمال الفوسفور الأبيض بكثافة ترفعه من مجرد غطاء تمويهى بالدخان الأبيض الكثيف (الذى يحدث نتيجة تفاعله مع الرطوبة الجوية) لتحركات القوات .. إلى هبات هوائية حارقة تذيب أسطح البيوت حتى الحديد .. ولحم البشر حتى العظام .. ولحاء الشجر حتى أبعد حلقة من عمر الخشب !.. وتضرم من النيران ما لا ينطفىء مهما استعملت ضدها من مواد الإطفاء فهى تأكل نفسها وما إلتصقت به ذراتها حتى تنتهى مادتها الفعالة وتتحول إلى سناج و هباب وتراب بعد أن تكون قد قضت على مظاهر الحياة والسر فى ذلك ..

سكت ليلتقط أنفاسه واسترسل :

- يرجع لنهمها للرطوبة التى تضاعف غليانها وتفاعلها مع الأجسام التى تحتويها .. وأنت تعرفين أن جميع الأجسام الحية غنية بها ! ..

***

- لماذا لا تسألنى ؟

- ماذا ؟

- أين كنت أبيت منذ حوادث المعبر !

- أين ؟

- فى العراء كما وجدتنى !

- مثلك لاخوف عليه ولاهو يحزن !

- ياسلام ! .. أتعرف بم كنت أحلم ومع من كنت الليلة الماضية ؟!

- كلا لا أعرف طبعا !

- كنت فى معمعة الخلاف بين منظمتى حماس وفتح ومع عدد من قادتهما الذين إنقسموا على أنفسهم وقسموا الوطن كله فلسطينى وغير فلسطينى معهم !
- فتح استقلت بالضفة الغربية المقطعة الأوصال وبسلطة الرئاسة وعاصمتها « رام الله « ..
- وحماس كما تعرف تمسكت بالحكومة على أساس حقها فى تشكيلها لفوزها بالإنتخابات التشريعية ولما أقالها رئيس السلطة إنقلبت عليه وشقت عصا الطاعة واستقلت بغزة ، التى إنسحب منها المحتل صوريا إلى حدود آمنة حول هضابها كما قلت منذ قليل وأنشأ لنفسه مكان المستوطنات التى أخليت مراكز ثابتة للسيطرة والحصار الذى أحكمه أرضا وجوا وبحرا .. وكان الفتيل الذى إشتعل كما رأيته فى الحلم وهونفسه فى الواقع قد تغذى بوقود المواقف المتعارضة بينهما ..
- وهى رئيسية ومعلنة كلنا يعرف ذلك فما الجديد فى الحلم !
- قلت والواقع أيضا ! .. طيب .. ما استجد عليها هو أن هذا العدوان الجديد المفرط فى استعمال القوة على غزة وأهلها كان يستلزم بداهة ترك الإخوة للخلافات التى أكلتهم والوقوف صفا واحدا لمجابهة صلف العدو وغروره وقسوته بمؤسسته العسكرية الأقوى فى المنطقة والخامسة أو السادسة على العالم والتى أصابها جرح عميق فى حربها منذ عامين مع حزب الله فى جنوب لبنان فأرادت بهذا العدوان على الشعب الأعزل فى غزة أن تحقق نصرا زائفا ..
- ماذا تريدين القول ؟ كل هذا معروف للجميع أمره ومن الغريب أن تحلمى به وتخلطين الواقع بالخيال !
- اصبر فقط .. فالترابط وعودة اللحمة إلى شطرى الجسد الواحد المفتت الأوصال أصلا بالمستوطنات والسور الثعبانى لم تحدث .. وبدا ويا للغرابة والأسى والأسف ..
- ماذا ؟
- على رئاسة السلطة وقادة فتح حيادية غير مبررة حيال المذبحة والمحرقة التى نكبت بها غزة وشعبها .. وكأن ما يحدث لا يعنيهم .. فهى مثل أية دولة أجنبية بالنسبة لهم لا يقدمون غير النصح والأرشاد !
- وحتى هذا لم يحدث ..
- أعرف ..

- إذ تم الإكتفاء بالكلام الذى يطيب للبعض وصفه بأوصاف تقليدية من قبيل « مسك العصا من المنتصف « .. وفى تلك الحال فالمطالبة بضبط النفس والإستنكار والشجب وحض البعض للخروج للشارع ودق الكعب على جانب منها بينما على الجانب الآخر أمور لا تسمن ولا تغنى من جوع مثل التحقظ على سلوك الجماهير الغزاوية والأحداث المأساوية التى وقعت على جانبى بوابة الميناء البرى لا العصا !

- ٦ -

ساد بينهما صمت عالج خلاله المروق بسلام من بعض إلتواءات وارتفاعات وانحدارات الطريق الخالى إلا من أطراد سحائب الدخان المتوالية التى تمتد مع الطريق شرقا وجنوبا مع اتجاه الريح ثم سألها :

- هل سمعت عن سلاح إسمه الدايم ؟!

أجفلت من السؤال ورمقته باستهجان وأجابت حاسمة :

- لا أعرف إلا وجه الله الدايم !

كرر السؤال جادا فردت عليه بتيرم هذه المرة وبنبرة شوبتها بما تيسر لها من التهكم :

- أعرف أيضا مقاوم إسمه عبد الدايم !

قالتها على سبيل تخفيف وطأة الحذر والهواجس والأحزان فلم يجاريها لدهشتها واعتبرها عبارة هجومية غير لائقة فى هذا الموقف الذى لا يحتمل التهكم وسكت ملتحفا بالصمت وأدركت هى أنه إستاء فأسرعت تصلح ما أفسدت موضحة :

- بالله كنت أمزح معك !.. قد صرنا أصدقاء أليس كذلك ؟ .. طبعا سمعت به .. يقال أنه نوع من العناقيد المعدنية التى تذوب داخل أجسام الكائنات الحية مسببة سرطانات مميتة !

أومأ برأسه وهو يقود السيارة بمهارة مؤمنا على كلامها وأضاف :

- طبعا فوق أنه سام وقاتل فورى للخلايا الحية ..

ولم يسترسل فى حديثه وبدا عليه أنه يفكر فى أمر يحزنه ويتألم له وحدست هى أنه يفكر فيما حاق به من خسارة فقده لزوجته وابنتيه وأرادت أن تقول له شيئا يؤاسيه .. شىء يشتت فكره بعيدا فسألته :

- إلى أين نحن ذاهبان ؟

- إلى حى الزيتون .. هناك الكثير من الجرحى من عائلة وائل السمونى !

- وشهداء كثر على ما أعتقد ..

- طبعا لكن ..تعال فى مكانى ! .. أتى أوان تعليمك السواقة وسط المخاطر وكيف تصلين بعربة تحمل مصابين بأمان إلى مراكز الإنقاذ والإستشفاء ! ..

رفعت يدها علامة على أنها تبغى إبداء رأى فلم يستجب لها وواصل :

- من فضلك .. أنا أعلم أنك مارست السواقة فى وقت ما .. لكن فى وقت الحرب للإسعاف وأدواته لغة خاصة لا يجيدها إلا قلة ممن عركوا المخاطر واجتازوا الطرق الوعرة والمنهارة والملغمة وتعلموا فن النجاة من هوام الجو كالشظايا والطلقات الطائشة والأخرى الصديقة أو التى يدعى العدو أنها خاطئة غير مقصودة ! .. وهذه اللغة هى التى وعدتك بتعلمها فى وقت سابق ! .. هيا ..

أوقف السيارة ونزل كل منهما من بابه واستبدلا المقاعد على حين سألت وهى تمسك عجلة القيادة :

- معك حق لكل حرفة فنونها وأسرارها وليس كل من عبر البحر بالسفين ملاح !

لم يعلق وتركها تقود على طريقتها دون أن يرشدها لتتعلم كيف لا تتردد إن اتخذت قرارا وكيف تعدل قراراتها بنفسها إن أخطأت دون أن تنتظر معونة من أحد ..

كانا قد إقتربا من منطقة سكنية عرفا أنها تعرضت للقصف منذ قليل من النيران والدخان وأصوات الشكوى والإستغاثة وخروج أعداد كبيرة من النسوة كاشفات الرؤوس وهن يحملن أو يسحبن أطفالهن أو (كلاهما معا) والأنين والحيرة من عدم توافر ملاذ آمن فى أى مكان يحللن فيه ينسجان مع الرعب وانهيار الأعصاب وتشتت الفكر والعقل مناق قريبة من الجنون .. وقد انكب بعض الرجال والفتيان على بعض الجرحى والمصابين يحاولون إيقاف نزف الدماء منهم بربط مواضع النزف واللحم الذى تهرأ بقطع من القماش إقتطعوها من ثيابهم على عجل وهم لايدرون ماذا يفعلون مع إضطرارهم إلى معالجة حملهم بطريقة لا تفضى إلى زيادة فتح الجروح وبالتالى النزف مع غياب وسائل الحمل الناجعة !

أوقفت هدى السيارة على جانب وهبط أبو رياض للمعاونة بخبرته ولم تهبط هى لأنها لم تتح لها فرصة لذلك للسرعة التى إمتلأ بها باطنها بالجرحى وبمن يعوزهم بجنون الملاذ والأمان فلم يتبق لهم غير الجلوس فوق بعضهم أو فوق السقف من أعلى ! وقد إضطر الرجل لنهر الأقوياء الذين لاهدف لهم إلا مرافقة جرحاهم للتخلى عنهم مؤقتا حتى تخلو السيارة لأكبر عدد منهم وليلحقوا بهم فى مستشفى الشفاء بغزة .. ورضخ له بعضهم على مضض وكان فيهم شخصا يشبه والدها أو هكذا توهمت وتأبى البعض ولم يحسم الأمر إلا إنطلاق هدى بالسيارة بعد أن تأكت من وجوده داخلها تاركة خلفها من يحاول التعلق بها من الخلف وهو يسب ويلعن من صممها خالية من أى إمكانية

للتعلق !
لم تكن بها حاجة لمن يصف لها أقصر الطرق وأسرعها للمشفى فقد كانت المشكلة التى واجهنها في مبدأ الأمر كثرة المرشدين الذين لا يدركون يقينا قيمة المثل الذى ينصح « بالمشى سنة ولا تعدية قناة « ! الذين أمرهم أبورياض بالسكوت فصدعوا لأمره ووزع نفسه بين توجيه مساعدته وبين إسعاف الحالات الأشد خطورة بما توفر لديه من المطهرات والقطن والأربطة (الشاش) والمراهم والمساحيق واللواصق التى تغنى عن إستعمال إبرة الخياط ! وتعمل على إحداث نوع من الإلتئام الصناعى المؤقت .. وقد تخير أحد الجرحى حالته تسمح ولديه خبرة لمعاونته لاسيما فى عملية الحقن التى كانت تتطلب سرعة ودقة فى تحميل الدواء وإمراره .. بينما ركزت هى كل همها فى اتباع إرشاداته والتخفيف من معاناتها والمصاعب التى اكتظت على المقعد الأمامى أكثر من الطريق لأن عددا لايستهان به من المصابين كان من الرضع الذين تعالى صراخهم فى أحضان أمهاتهم اللائى كن هن أيضا مصابات ولم تفلح جهودهن بما توفر لديهن من إمكانات خاصة فى إسكان روعهم ..
وكان أكثر ما أرهقها الأيدى والأنامل الصغيرة التى تداخلت بين أناملها وهى توجه عجلة القيادة أو بين أرجلها وهى تدعس الدواسات ! وكادت أن تصطدم أكثر من مرة ببعض جذوع الأشجار التى اجتثت ومالت على الطريق وبعض الأنقاض والإشغالات وأخطرها كان أعمدة الكهرباء وأسياخ الحديد التى شرعت أسنتها المدببة لاختراق الزجاج الأمامى وخزق الأعين ! . فضلا عن حتمية تحاشى دهم من اعترض سير السيارة من المستجيرين والجرحى ومن فقدوا أعصابهم على الطريق لإجبار سائقها على إيقافها وانتشالهم .. وما كانت تقتضيه الحالات الحرجة من القيادة بهدوء وتحاشى أسباب التوقف المفاجىء والسرعة لإنقاذ حياتهم فالبعض كان يعانى بالإضافة إلى الجروح صعوبة فى التنفس أو الإختناق أو هبوط الدورة الدموية وهذه كلها تحتاج أطباء وأجهزة وعقاقير المستشفى .
وقد مر وقت أصعب على الجميع عندما لفظ أحد الجرحى أنفاسه فتعالى صراخ النسوة وبكاء الأطفال والجرحى الذين توهموا أن الدور عليهم للموت ! وتمالك أبو رياض أعصابه .. أما هدى فقد كان الله فى عونها حتى تمكنت من بلوغ مستشفى « الشفاء « بشق الأنفس .

***

وحنى تمكنت من إمساك دور فى طابور الإنتظار الطويل بالشارع الذى لم تكن تتوقعه أمام بوابة الإستقبال ولما تم لها ذلك تنفست الصعداء واضطجعت بظهرها للوراء مسترخية قدر المتاح لها وتذكرت أمرا هاما فنظرت فى المرآة المعلقة فوق رأسها باهتمام وكأنها مانظرت إليها قبلا لاستشراف مايدور داخل وخارج السيارة من الخلف إبان القيادة وكانت تلك أول مرة فعلا تنظر إليها بغرض رؤية وجهها ! ..

هالها لأول وهلة ما رأته قد اختفى من تقاسيمه وملامحه ! وما تراكم عليه من مخلوط الغبار ومختلف دقائق أنواع المواد العالقة فى الجو التى تعرض لها والتى يبدو الهباب أكثرها إلتصاقا مع مزيج غير مألوف للدم والدموع والعرق إنتقل إليها بعضه من الضحايا ..

ورفعت يدها إلى شفتيها لتحبس صرخة احتجاج بأناملها على من أثار النقع بالحرب وطبائع البشر وتساءلت مستجيرة فى سريرتها :

- يا إلهى وجه من هذا !؟ ..

واستغربت أن يتعرف عليه أبو رياض الذى لم يره إلا يوما أو بعض يوم بينا هى صاحبته التى تراه كل يوم طوال سنى حياتها لم تعرفه ! .. والتفتت وراءها لتسأله فرأته ينزل بحركة رشيقة رافعا قبعته الحمراء لمعارفه وزملاء مهنته محييا وراح يتهادى بين قول العربات بخفة ظل ليشيع قدر ما سمح به فؤاده المكلوم جوا من البهجة والتفاؤل بتبادل السلامات وعبارات الحمد لله الذى كتب على نفسه الرحمة ونصرالمؤمنين إلى أن جاء وقت تطور فيه الكلام من شدة رقته وتركيزه إلى شعر وغناء فرفع عقيرته منشدا :

- سبت لايوقد فيه نار .. إندلع بالمحرم فى الأسفار !

فردت عليه جوقة من رجال الإسعاف الذين ترجلوا من عرباتهم ووقفوا لدى الأبواب ينشدون فى صوت واحد :

للخداع ومعالجة العوار .. ورحيل سبت آخر بقطار !

تمتم بصوت معذب :

ملأوا السماء غبار .. حجبوا الضياء بالأطيار

وغزة تحتفى بفخار .. بتخريج الشباب للنهار

وتغير صوته كأنه يبكى :

أفراخ بأغصان الغار .. ترفع صلوات وأذكار

تنعى صباح كل دار .. تحول لفشفاس وفشار
إنتحب فعلا وواصل :
امطروا الأم والصغار .. بمحرم حمم الدمار
كأنهم جيش جرار .. بالعار وذرات الإنشطار
سالت الدماء أنهار .. غمس الحديد والأحجار
ونتف خبز وأزهار .. تعلق بأشلاء بلا أوزار
وأنشدت فى أعقابه جوقة رجال الإسعاف وهم يرفعون القبعات الحمراء عاليا :
تأملى يا سماء الأبرار .. غضبة مختار إحتار
بسماء وأرض وبحار .. أعماه خوف إندثار
يتقوى بدم الأطهار .. لما بداخله من إنهيار
كلما اقترب اختيار .. القادة لمراكز القرار !
وتماسك أبو رياض وقوى صوته بغتة وهو يهتف :
الشعب العربى ثار .. لنصرة أشقاء أخيار
طالب حكامه بإشهار .. قطيعة معتد جبار
وشعوب عالم أحرار .. بالرحمة والإستنفار
قدموا العون أمتـار .. وصل بالكاد أشبار!
فالجانى أحكم حصار.. أحياء لموت وانكسار
وجاوبته الجوقة بصوت يتخافض حتى يصل لدرجة الهمس :
ودعوة لإيقاف النار .. حملها أشقاء كبار لكبار
رفضها مجلس نظار .. الأمن وتوازن الأسعار!
وبعين الصوت الذى يبدأ من طبقة عادية أوعالية ثم يتخافت تدريجيا كأن صاحبه تاه أو شرد دمدم أبو رياض :
ضغط الضحايا لإظهار .. الصمود وشعوب العمار
ومبادرة شقيق جار .. شاهد من أهلنا نصار
لفت المجلس الأنظار .. لأعينه لون ومقدار
لقاتل شدة إخضرار .. ولقتيل شدة إحمرار
وارتفع صوت الجوقة مكملا :

ببيان رئاسى لا قرار .. فلكل مقدار بمعيار
المعتدى شعب مختار .. فوق قانون الصغار
من حقه الوقت لإهدار.. دماء وفرض حصار
وواصل أبو رياض مع عودة لخفض الصوت لكن بتهكم واستغراب :
آلاف الشهداء والأبرار .. لا تكفى لإبرار قرار
أى بلغة الغناء والأشعار .. مجلس أنس بدولار
ثم إرتفع صوته فجأة وأردف :
يا رجال الفدا والإصرار .. لاتحزنوا لعالم مهزار!
إفرضوا سلام الإنتصار .. وإرادة التحاب والإعمار
باتحاد يسحق كالإعصار .. شطآن إنشطار وإزورار
يا إخوة ما أسهل إعتذار .. يصلكم والوطن بالأنهار
وما انتهى أبو رياض من شدوه حتى انطوى على نفسه وهويشيح بقبعته ليدارى دموعه وقفل راجعا للسيارة وجلس بعد مبارحة الأمهات وصغارهن الأشقياء للمقعد الأمامى إلى جوار هدى التى بدت له فى حال غير طبيعية وهى تصر على تعريض محياها له ليراه بعد أن انتهزت فرصة التوقف وإنشغال القوم بما إنخرطوا وماهم فيه واستعانت بمسح قطعة من ثوبها لم تكن بها حاجة إليها فى بعض زجاجات المطهرات من الخارج وبلعابها لتنظيفه وإعادته لوسامته ورونقه ..
وقد فهم هو ما رمت إليه من نظرة سريعة وشعر بالرثاء لها فقد كان رجلا حكيما بفهم أن دافع المرأة لتبدو نظيفة وجميلة غاية فى حد ذاتها وعليه أن يقوى قلبها عما رأته من مناظر غير إنسانية قاسية ، لاسيما أنها فقدت بالعدوان مثله الأقرباء والأهل .. صحيح أنه فقدهم للأبد لكن ما يدريه لعلها فقدتهم للأبد هى الأخرى .. إما بعدم أوبتها لوطنها ثانية بالموت وخلافه من أسباب وإما بعودتها لتجدهم قد إنتقلوا للحياة الأخرى .. ولابأس من إبداء الإعتراف بأن وجهها (وكل وجه) بالنظافة أفضل إن كان لا يستطيع نطق كلمة أجمل !
- وجهك الآن أفضل .. لكنك كان يمكنك إستعمال قطعة من القطن بدل قطعة القماش التى قمت بقطعها من ثوبك وغمسها بالمطهر بدل مسح الزجاجات من الخارج .. أعلم دافعك لتوفير مستلزمات الإسعاف .. وتشكرين عليه .. لكنك معذورة فأنت لا تعرفين

بعد إمكانيات المكان .. هناك بجوار البوابة دورة مياه عمومية .. وعلى ما أعتقد صابون معطر داخل حقيبتك ! ..

وتهدج صوته وهويضيف متذكرا آخر مرة قال لها فيها :

- يمكنك أيضا إرتداء حلة الإسعاف .. فهذا وقتها ..

وتأوه فى سره دون أن ينظر إليها كأنما يدارى دموعه التى ملأت عينيه وتحجرت تأبى أن تسقط لأنه جاهدها لتعود وذكرياته الأليمة من حيث أتت والغريب أنها بحسها المرهف لم تلحظ ما يعانيه لأنها كانت غارقة بعيدا عنه فى واد الإمدادات الطبية وقصورها الذى يعرفه أى إنسان فى أقاصى الأرض عن الوفاء بالحاجة هنا وفسرت إدارته لمحياه بعيدا عنها أنه يبغى أن يؤكد لها أن الحرص على توفير المستلزمات لم يصل إلى مرحلة التقشف ! .. وكان لوجهة النظر المتخيلة تلك أثرها البالغ فى مخاطبة حيائها وتواضعها فنكست أعلامها بإسقاط أنظارها بين أرجلها .. ويبدو أنها إستشعرت أن هذا الإجراء غير كاف فأسقطت أيضا محياها الذى كانت تعرضه ولم تنطق بكلمة .. أما هو فلما تمالك نفسه أعاد محياه إليها ورمقها بنظرة فهم بها ما يجول بخاطرها فتزايد عطفه عليها وأردف :

- قد أبليت حسنا فى قيادة السيلرة حتى وصلنا بأمان الله .. يبدو أنك تجيدين لغة الإسعاف .. ولست بحاجة لى ولا لخبرتى !

وكأنها كانت تقرأ خبيئة نفسه رفعت هامتها وابتسمت ابتسامة الشكر والعرفان وربتت بأطراف أناملها على كتفه وعلى يده الملقاة إلى جانبه على المقعد زيادة فى تأكيد الولاء والعرفان له ولسان حالها يقول أنها تدين له بالكثير ومن يدرى دونه كيف وماذا كانت تفعل ؟ ..

والتفطت الحقيبة من حيث كانت قد خبأتها (بعيدا عن عبث الأيدى الصغيرة) تحت المقعد وغادرته إلى دورة المياه العمومية الملحفة بمدخل البوابة واغتسلت جيدا بالماء والصابون (المعطر) دونما إسراف وارتدت كذلك حلة الإسعاف التى فرحت بها أيما فرح فقد كانت بالضبط على مقاسها .. وبعد أن تطامنت إلى أن نظافتها ورائحتها وهندامها على المرام آبت وسكنت فى مكانها دون أن تبتدره بالسؤال المتوقع عن رأيه لأنه لم يعطها الفرصة وتلقاها منذ وقع بصره عليها وهى تخطو على مهل عائدة بابتسامة عريضة معجبة ونظرة أعجب بحلة الإسعاف التى أصبحت بها مسعفة رسميا ! وساد

الصمت بينهما وقتا إشتدت وطأته وتضاعفت ببشاعة مناظر بعض الجرحى التى كان بصرها يقع عليها (إجبارا) ، ومع ضعف الأمل فى نفسها فى انتهاء العدوان أو دخول المستشفى فى وقت قريب مما أمسك عقارب الساعة التى خيل إليها وهى تتطلع إليها بين الفينة والفينة أنها لا تمشى ! كأنها تناصبها العداء أو تعاندها وقررت أن تضع نهاية للصمت الذى لا تدرى لما طال بينهما وابتدرته لإزجاء الوقت قائلة :

- الزحام هو ما يقلقنى فإن دورنا يحل بعد أن ينقشع وتخلو الصالات والممرات وبسطات السلام ! والفراغلت المحيطة بالأبنية وماكان يسمى حديقة أو مخازن أو جراجات .. حتى المسجد أقتطع منه جزء كبير وتحول إلى مستودع لإيواء ثلاجات حفظ الدم العربى ومشتقاته الأغلى من البترول (سر الكوارث والحروب) لمجرد أنه كان يجاور بنك الدم !

- للجار على الجار حق ! ..

- ولكن لابد من وجود عقل عالم وأب لإدارة المنظومة كلها خاصة وأنه فيما أظن يرد يوميا من المنظمات العالمية الصحية ومن كافة الدول الشقيقة والصديقة والمتعاطفة مع الإنسانية ! من الأطباء المتطوعين ومستلزمات العلاج ما بحسن التنظيم يفيض عن الحاجة .. وما بعكس ذلك يعتبر (بالفوضى غير الخلاقة) نقصان وافتقار مهما زاد !

- معك حق فعلى الرغم مما يبذل من جهود إلا أن الزمام يكاد يفلت من الأيدى المخلصة تحت ضغط إنهيار الأعصاب من فظاعة الحالات الحرجة وزيادة الطلب على الخدمات الخاصة بها التى يتم تحويلها إلى المراكز العلاجية بدول الجوار العربية ..

- أعلم ذلك !

- وتعلمين أيضا أن العناية الإلهية بعثت طبيبا عربيا كبيرا يعرفه العامة قبل الخاصة عاش طوال عمره عقب تخرجه كالناسك فى المحراب .. أجل .. كان زاهدا فى زينة الدنيا ويرى كل سعادته فى العطاء فأعطاه الله سبحانه من العلم والدربة مالم يعطه لغيره حتى أقام فى بلدته صرحا عالميا وعلاجيا من تبرعات أهل الخير يأتيه طلاب العلم والعلاج من كافة الأوطان لا من وطنه فحسب ..

- أظننى أعرفه !

- وعندما أعلن المشفى عن قرب وصوله وتأخر كان السبب فى ذلك بوابات الحدود فى وطنه !

- ولكن أين التنظيم ؟ .. إن الزحام على أشده كما ترى !

- لا تتعجلى إن مجرد الإعلان عن وصوله يبعث الطمأنينة والثقة فى أن كل شىء سيمضى على المرام كما هو فى مركزه الطبى ببلده !

***

وفى غضون الساعة التالية تناقص الصف الطويل الذى إنحشرت به سيارات الإسعاف المحشوة بالبشر بسرعة مدهشة وسمعت هدى الألسن التى تقطع وقت الإنتظار مثلهما بالثرثرة تلوك نفس المعلومات عن المشفى وظروفه والسيرة العطرة التى تسبق مديره الجديد وكأنه من غزه أو على حد قول أحدهم :

- مسقط رأسه لم يكن غزه ولكنه تربى فى البيت والمدرسة والجامعة والوطن الذى عاش فيه على أنه من غزة بالعزة والإيثار وبالروح والدم وفداء فلسطين وكل شبر من أرض العروبة .. ولا أجد أبلغ دليل على أنه اليوم من عزة ما قيل له عند توقيفه على بوابة المعبر لأنك ثروة قومية نخاف عليها !

- فماذا كان رده عليهم ؟!

- العمر واحد والرب واحد !

نطقها القائل بيسر وسهولة لكنها كان لها رد فعل ساحر تجاوز حدود الطاقة وما فى الإمكان فى المكان وضرب فى الآفاق البعيدة للعقل ومخزون القدرة الذى لا حدود له للنفس وحقق إعجازا بشريا فى مشفى كان وجه السيولة الحفيفى فيه إكتظاظ أعصاب البشر بآلام مناظر بشعة فوق طاقة البشر تذهب العقل وترعش الأنامل الممسكة بمبضع الجراحة أو إبرة الحقن او حتى منشار القطع الذى هو إلى منشار النجار صاحب الباب (المخلع) أشبه !.. فقد واكب وصول الطبيب الإنسان تلك الهمة التى تبعث أمة ! و...

- ما شاء الله الطابور يتناقص بسرعة مدهشة !

- ولم يمسك المدير الجديد عمله بعد !

- ما شاء الله حقا !

قالتها بتفاؤل حذر وهى تبحث لعينيها عن مهرب من المناظر المأساوية التى توهمت أنها بدأت تفقد قدرتها على تحملها لما خالته تزايد فجائى بأعداد من أصابهم فقدان لقطعة من لحم الوجه (الذى كرمه الله) أو فقأ عين (تخلى الحارس عن إحداهما أو

كلتاهما) أو بتر جزئى لطرف أو أكثر من أطرافه (أو جميعها) .. وقد علقت هذه الأجزاء أو بقاياها فى انتظار من يخلص باقى الأعضاء السليمة منها قبل أن يزحف عليها أطوار الفناء والتحلل .. وشعرت بالغثيان وبرغبة خبيثة فى القيىء وبأنها على وشك أن تغيب عن وعيها مرة أخرى وتدخل فى هذا العالم المريح الذى لاعلاقة له بتلك الدنيا التى لم تعد دنيا الحياة لشيوع وتعدد أسباب الردى بها وروائحه ومشاهده الأليمة ..

وجاء الوقت الذى خلت فيه السيارة من شاغليها وطلب إليها أبو رياض أن تتنحى عن كرسى القيادة فتحركت جانبا وركب هو وقادها فى شوارع كان يعلم بحكم خبرته أنها بعيدة عن أن تكون مزدحمة أو تعرضت لهجمات الطائرات المروحية أو طائرات الإستطلاع بدون طيار القاذفة للصواريخ التى توجهها أجهزة مبرمجة على القذف نحو هدف تم رصده وتصويره !

وإن كانت تلك الشوارع الخالية تغص على الأطراف بمخاطر من نوع آخر هو اصطفاف آليات العدو المدرعة والمجنزرة وبعض قواته الراجلة التى كان جنودها لا يتورعون عن إطلاق الأعيرة النارية على عربات الإسعاف بذريعة أن بعضها ينقل المقاومين أو الأسلحة والذخيرة !

ومع احتمال التعرض لمثل هذه الأخطار فإنها كانت أيسر من اجتياز شوارع تغص بالجثث التى كانت تنهشها الكلاب ولا تجد من يواريها التراب ! .. أو الجرحى الذين لا مكان لهم فى أى مشفى .. أو من يبغى ركوب هذه النوعية من السيارات للنجاة ! .. أو تلك الشوارع التى بها مراكز أمنية أو إدارية معروفة للعدو ..

وكلما مرت السيارة على لفيف من الجند إرتفعت صيحاتهم وصوبوا أسلحتهم لمجرد التهديد والطرب لمنظر الرعب الذى إكتنف الضحية أو الضحايا ! .. وقد ارتعدت فرائص هدى وأبو رياض أكثر من مرة فما يكادان يبتعدان حتى تظهر « أورطة « أخرى ويتكرر عين السلوك للجنود وسقوط فؤاديهما تحت أرجلهما !

بدا غريبا ألا يطلق عليهما النار وخامر هدى نوع من الشعور بأنها السبب وبأن أبا رياض يعتمد عليها فى منع الجنود من ذلك ! وحدثت نفسها والزهو الانثوى الحيى يملأها :

- إنه رجل ذكى ويدرك ما للجمال من تأثير على ألباب تلك النوعية من الجنود يعادل وربما يفوق ما لعربة الإسعاف من حصانة متفق عليها عالميا !.. والمسعفة الجميلة منظر

جذاب وغير مألوف .. ولذا وجب رفع القبعات لعربة الإسعاف !

ولما تذكرت ما وقع فى بكرة الصباح بينها وبين الجنديين الإسرائيليين إنكمشت فى مقعدها واستطردت تهمس فى سريرتها :

- لو كان بينهم من يشبه أبى وعلموا من أنا لأردونى صريعة !

- ٧ -

على تلك الوتيرة لعبت الأفكار برأسها وكلما مرت بهما السيارة فى شارع أوضاحية تتكاثر بها مشاهد إغتيال الحياة الآمنة من حطام بنى الإنسان والحيوان والعمران كانت تغمض عينيها وتدير محياها وجهة أخرى ..

ولكن أنى المفر ولم يسلم أى اتجاه من الأذى ومتى يتوقف هذان الخطان من الدموع عن السيلان من زاويتى عينيها إلى زاويتى شفتيها وقد سئمت كفكفنهما بظهر يدها التى كانت تزداد إثارة وسحا للأدمع مما علق بها ثانية وبسرعة من التراب وبقايا الأجسام والدماء وعوالق أخرى (تخص أى سيارة) جهدت فى تنظيفها منتهزة أية فرصة تسير فيها على مهل دون أن تتوقف فقد كانا فى سباق مع الزمن لإنقاذ أكبر عدد ممكن من الجرحى الذين يتهددهم العطاشى والجوعى والحيارى بإضافة أنفسهم لقائمة الضحايا واستبد بهم جميعا إفتقاد الماء والغذاء والحكمة لدرجة المرض ..

وكان أكثر ما نغصها أن عينا طبيعية للماء النظيف يحوطها العشب الأخضر اليانع وتحوم حولها الحيوانات سعيدة هانئة (بما فيها عفوا الإنسان) لم تلح للتوقف وتلمس بعضه .. بعد أن توقفت محطة تنقيته وضخه ومثلت المياه التى لاغنى عنها للحياة والكائنات الحية مشكلة وكثيرا ما رأت كلابا تنبح وتشكو تخشب ألسنتها وهى تلعق الجدران الهاوية وقططا تموء وقد تدلت ألسنتها المهددة يالتحطب تنشد الماء فى السيارات المحطمة عند مبرد الموتور أوبين خوافى الإطارات التى تتشمم روائحها القطرانية العطرة فى المقدمة أو المؤخرة تحت الصدام ! .. وجماعات من الأمهات والأطفال والشيوخ يتصدرهم شخص يشبه والدها يجوبون الشوارع وينادون :

- ماء !

وإذا ما عثر على غدير يتلقى خيطا رفيعا من الماء من أعلى هضبة أو تبة حجرية أو بئر ينبع منه الماء .. أو صنبور أمده ربه رحمة من عنده بتيار متصل من الماء مجهول المصدر الأرضى ! كانت ترى التكالب والتنافس إلى حد التطاحن عليه فتحجم عن مجرد النفكير فى مطالبة رفيق الطريق بالتوقف والإقتراب منه .. لا لهذا السبب وحده ولكن أيضا حتى لا تقابل الشخص الذى يشبه والدها !

قد صارت فى ريب من نفسها تتوهم أن والدها يظهر لها بين وقت وآخر وأنه يتابعها

وعليها أن تجد حلا لهذا الوهم .. كأن تثق مثلا فى أنه فعلا يسعى وراءها خوفا عليها ولكن لماذا لا يكون أكثر حسما ويكشف عن نفسه ثم يمسكها من يدها كما اعتادت وهى صغيرة ويعود بها إلى البيت ليريح قلب أمها التى لابد أنها لم تعد تجد من الدموع ما تسكبه بكاء عليها !

وعلى ذكر الدموع حاذرت أكثر أن تجففها بالمناديل الورقية المتوفرة بالسيارة لتشبعها (كالأيدى) بما فى الجو الخانق من غبار وأبخرة والتى كانت تشتد ضبابية فى بعض النواحى فتظلم فى وضح النهار خاصة تلك المتباينة الألوان تبعا لمادتها المحترقة والتى قال فى وصفها أبو رياض :

- هى فى الغالب عنصر الفوسفور الأبيض الذى يتم رشه من بشابير أو قواذف جوية فيما يشبه رذاذ النافورة .. أو شبكة الصياد لحظة طرحها على الماء لتتصيد سطح عمارة أو مدرسة أو مشفى أو أحد المخازن التابعة لهيئة إغاثة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة التى إحتج مديرها فى غزة من الحريق الذى أتى على ما بمخزنه من أدوبة وطحين ومواد غذائية فكان رد القادة « خطأ غير مقصود .. ولن يتكرر ! «

- كيف ؟!

- قيل إفتراء أن رجال المقاومة يتخذون من تلك الأماكن وغيرها دروعا ..لاسيما قادتهم .. وبصفة خاصة المستشفيات والمدارس التابعة لهيئة الإغاثة ..تبريرا لعدوان وقع بعد ذلك على إحدى تك المدارس .. وما كان هذا التصريح إلا مقدمته !

- معقول !.. تتحدث والحدث يحدث !

تجاهل ما يعنيه قولها من أنهما على مشارف منطقة عدوان وواصل :

- يا للفاجعة الكبرى والفضيحة العالمية ! فالمدرسة لم يكن بها غير أبرياء ضعفاء لاذوا بها إلتماسا لبعض الأمن فتصيدتهم الصواريخ !

- بالفعل أرى صواريخ ؟!

- تنطلق من إحدى الطائرات العمودية لتقتل وتصيب العشرات !

- مستحيل .. عيناك آلة تصوير ولسانك بوق إذاعة !

إستتلى وهو يدنو بالسيارة من أسوار مبنى على هيئة مدرسة يحترق وتتصاعد منه سحائب النيران والدخان ودوى الإنفجارات يصم الآذان :

- وتصادف مرور عربة إسعاف .. مثل عربتنا على المدرسة فى عين اللحظة .. وكادت أن

تصاب اولا أن الرحمن إدخرها لنقل الجرحى .. آه ..
وتغير صوته وعلا بغتة وبرقت عيناه وأشار بسبابته إلى الأرض ومنها مباشرة للسماء كأنه أدرك الآن فحسب فداحة ما يجرى أمامهما واستطرد :
- رباه .. الرحمة ! .. هدى .. أنظرى .. فوق .. فوقنا .. طائرة عمودية ..
وتهلل محيا هدى على حين غرة ! فهاهى فرصة سانحة تأتيها وهى جالسة لممارسة هوايتها المفضلة فى ملاحقة الطيار بحلم من أحلام يقظتها وبالصور التى « تخذق عينه « لأشلاء أطفاله وأقاربه وجيرانه ! وانزلقت بفكرها ووعيها فى غيبوبة صغيرة لا تتعدى لحظات خالها أبو رياض غفوة من نوم فزعق محتجا :
- تأخذين تعسيلة أهذا وقته !
وأوقف السيارة على جانب ونزل منها والطائرة تتباعد فى الفضاء بسرعة كأنها تهرب من أعين ضبطتها متلبسة بالجرم وعينا هدى عليها لا تبرحانها فجذبها من يدها للنزول وأردف بعين اللهجة :
- تمشين وأنت نائمة !
ودخل بها وهو يدفعها مسرح الجريمة وهى توزع أنظارها بين متابعة الطائرة وبين النظر إلى المنكودين التعساء الذين أصيبوا لتوهم وجاد بعضهم بأنفاسه الأخيرة ومازالت أجزاء من أجسامهم تنبض وتنتفض وتنثر الدماء على الأرض وبعضهم ما زال حيا يعانى سكرات الموت أو لحظة طلوع الروح وصرخت صرختها المعهودة :
- بأى ذنب قتلوا ؟
وألفت يد أحد الموتى تمتد إليها وتعطيها صورا عديدة للمجزرة فتناولتها دون أن تفكر أو تتساءل عن مغزى لجوء من يعاونها (وهو بالفطع شخصية من الخيال) لتلك الوسيلة الفريدة وحرمانها من طلعته البهية ! إلا بعد أن أدت مهمتها مع الطيار من أول خوفه ووجله إلى إنفجاره فى البكاء الهستيرى إشفاقا من مصابه الجلل وخسارته الفادحة !
وحتى عندما فتحت قبضة يدها فلم تجد بطاقة هوية وإنما هواء ! أجابت نفسها قائلة :
- لابد أن عدم تجليه سببه فظاعة وشناعة المأساة !
وكانت عملية إخلاء الجرحى الذين بقوا أحياء سهلة هذه المرة وميسرة لعدم وجود من يرافقهم من الأقارب أوالجيران وهذا أعطى هدى دليلا دامغا على فداحة الخطب ووحشية صانعه فالضحايا إما جرحى أو أموات وعلى ما تتوقعه من عنف لهجة مدير

فرع هيئة الإغاثة الأممية عندما يحتج وهو رجل يبدو أنه شريف وجرىء لايخشى أن يتهم من أبواق العدو بمعاداة السامية لإقدامه على الشكوى وشجب العدوان والمطالبة بتعويضات !

وسرعان ما حضرت لموقع النكبة عربات إسعاف عديدة ونالت نصيبها من المشاركة وكانت سببا آخر لتخفيف العبء عن كاهليهما ، ثم ما لبث أن ظهر فى الشارع الموصل لمستشفى الشفاء قول العربات تغز السير فى شبه مسيرة جنائزية فقد كان الوقت ليلا حالك السواد ولا أحد فى الشوارع يبرق غير أعين رجال المقاومة الذين كانوا يغيرون مواقعهم فالليل ستار أريب ! .. وغير أعين الحيوانات السائمة من الكلاب والقطط والفئران التى تكاثرت بصورة تلفت النظر .. وربما أعين بنات آوى والثعالب والذئاب التى فرت من المزارع والحقول التى احترقت ..

ثم ان الإنتظار أمام البوابة الرئيسية للمستشفى لم يطل وكان سهلا هذه المرة أيضا .. لا لزيادة قدرات المشفى الإستيعابية .. ولا لأن وارداته من المصابين إنخفض معدلها .. ولكن لأن الإدارة الجديدة إبتدعت حيلة ناجعة لتخفيض الأعداد بصورة عملية وسريعة وذلك بالكشف الفورى على الحالات فى أماكن تواجدها راجلة على البوابة أو داخل عربات الإسعاف والأهم من ذلك إجراء الإسعافات اللازمة للحالات الأولية وما فوقها المتوسطة وصرفها لتتابع فيما بعد بالعيادات الخارجية فى الأيام التالية .. أما الحالات الشديدة والحرجة فقط فهى من يتم السماح بدخولها أقسام المستشفى المتخصصة ..

وفى جميع الأحوال لا يحق للمرافقين الدخول يتاتا إلا فى أوقات الزيارة المحددة بالدقيقة والثانية ! مما جعلهم يشغلون وقت إنتظار موعدها التالى وهم جلوس على الأرائك المنتشرة حول البوابة تحت أشجار (الفيكس) على مساحات منتظمة من إفريز الشارع بالتعليق على الأحداث .. سمعت :

- الدماء تسيل والأشلاء تتطاير لإستحواذ الجنون على العقول التى تستهدف نساءنا وأطفالنا ..

- العالم كله صامت !

- حتى الأشقاء العرب لم ينعقد مؤتمر وزراء خارجيتهم إلا للإدانة الكلامية والشجب بالخطب لحمل مجلس الأمن على إتخاذ قرار إيقاف النار !

- صواريخنا رحيمة تسقط على الدوام فى الخلاء !

- فضلا عن الهدفين المعلنين العدو يسعى لتفريغ القطاع من سكانه ودفعهم لسيناء وبذلك تنفصل غزة عن الضفة ولا تقوم لفلسطين دولة !

ورانت برهة صمت تبادلت إبانها مع رفيقها نظرة فهم وتأييد لما دار من حديث وبغتة أصمت الآذان أصوات إنفجارات شديدة تدنو وخطفت الأبصار أضواء نيران وهاجة ترتفع فندت عن النسوة صرخات مكتومة وصرف الرجال بأسنانهم كظما للغيظ لكنهم لم يعبأوا وواصلوا تعليقاتهم .. سمعت وهى ترنو إليهم بعينين دامعتين وكأنه لم يقع ما يقطع حديثهم :

- وهذا ما يتخوف منه المعسكر المعتدل من العرب .. ولا يقيم له ماسمى بمعسكر الممانعة وزنا أو حسابا ..

وارتفع صوت المتحدث دون أن يشعر كما لوكانت قد واتته نوبة تحمس لأفكاره واسترسل :

- نعم .. نعم .. أصحاب المعسكر الأول يزعمون أن المقاومة ترفض رأب الصدع بين القطاع والضفة لاستمرار الإنفراد بالقطاع وتوسعته بسيناء ! وكأنهم يحلمون بإعلان دولة فلسطين الإسلامية ! وبعد ذلك يأتى دور الإنقضاض على الضفة وضمها للدولة الوليدة لتكون دولة وهذا سر كما يردد البعض إختزال القضية كلها فى معبر رفح !

كان كمن يخاطب نفسه لكن الجميع أصغوا له بإمعان وأومأوا بهاماتهم علامة على الفهم والموافقة ووعت هى كل كلمة وكفت عن ذرف الدموع ولم يعد لخطيهما أثر .. بل واتسعت حدقتاها تنبها ودهشا لدى سماعها فلسطينى من غزة يقول :

- هناك دولة عربية وحيدة تساندها دولة إسلامية وحيدة مع حزب الله ومنظمة حماس وهذا المعسكر يسمى محور الممانعة كما قال الأخ .. ولا يساعد فى إنهاء الإنقسام الفلسطينى والعربى وله مشروع إسمه الهلال العربى .. شرقا حتى ما وراء الخليج وغربا حتى المحيط ونجومه الإفريقية جنوبا حتى البحيرات ..

صاحت متحمسة ومتدخلة فى حديث الرجال لأول مرة :

- إنه المشروع المضاد للمشروع الصهيونى ! .. وإذا لم أكن مخطئة فهو بعث لمشروع قومى عربى صرف إنتكس للأسف عام سبعة وستين من القرن الماضى ,, وبالتحديد يوم الأثنين الحزين الخامس من يونيه .. مع ملاحظة أننى أتحفظ على على مقولة ما وراء الخليج إلا إذا كان القائل يقصد الجزء العربى من إيران المواجه لدول الخليج !

حدجها المتحدث بعدم إرتياح لأنها قاطعته وجمجم دون أن يفهم مقصدها :
- أنت يا بنيتى لازلت صغيرة ولا تفهمين كثيرا فى السياسة وإدارة دفة الدول فى أعالى البحار !
فحدجته بدورها بنظرة فاحصة فيما يشبه الإستنكار وسكتت ولم تسترسل فى حديثها ليس فحسب حتى لا يفهموا أنها تنتمى لدولة معتدلة ولكن لأن سحنة الرجل إنقلبت فجأة فأصبحت تشبه سحنة وجه والدها فأجفلت وخيم الصمت عليها طويلا .

***

هذا إذاً هو سر الإنسيابية والهدوء اللذين قللا وقت التريص بالبوابة وسادا جميع أرجاء المستشفى .. فلم يأت أحد بسحر غير حسن التنظيم وإحترام التخصص والإيثار والتفانى إلى حد أن بعض الأطباء والممرضون كانوا يفقدون رشدهم من التعب وحالما يفيقون ترى فى أعينهم الرضى والتودد .. وقد كان لهذا بالغ الأثر فى إستعادة البعض لرباطة جأشه ممن كان يشغلهم ما يلاقونه من معاناة فى العطاء أو أداء المهام التطوعية (أو الوظيفية) فوق الجهد الضائع فى تشجيع أفئدتهم جميعا على تحمل ما يرونه من مآس ومشاهد رهيبة تذهب العقل ..
ومن هؤلاء هدى التى أمكنها أخيرا أن تفكر فى أبيها وأمها وتسأل قلبها وهما فى طريقهما لإستراحة الإسعاف بعد فراغهما من إيداع آخرجريح بالمستشفى وهدوء عمليات العدو بعض الشىء وتوغل الليل :
- يا ترى ما حالهما الآن وهما يفكران فيما عساه قد وقع لي ؟ .. وكيف السبيل إلى طمأنتهما علي والخطوط الهاتفية الأرضية مقطوعة وجرى تشويش على شبكة الهاتف المحمول ! وحتى إن توافرت فهما ليسا من الجيل الذى يهوى إستخدامه ! .. لكن للضرورة أحكام ولابد أنهما الآن ينتحلان كافة الحجج والذرائع لتبرير إختفائى للأقارب والجيران ومن يسأل ثم يغرقان فى البكاء لأجل كذبهما وأجلى !
وساورها اذلك شعور بالذنب نحوهما لأول مرة منذ غادرتهما !
أمكنها كذلك أن تفكر فى عريسها المرتقب وشريك الحياة فى المستقبل وتساءلت فى نفسها إن كان حيا أو ميتا ..

ثم أمكنها أن تفكر أكثر فى جدوى هذه الحرب (غير العقلانية) وسألته :
- ماذا سيجنى العدو من وراء عدوانه ؟ .. حتى إن أفلح فى إيقاف المقاومة عن إطلاق الصواريخ على مستعمراته ومدنه الجنوبية وتوقفت كذلك عملية تهريب السلاح من البحر .. فى قوافل الإغاثة البحرية وأساطيل الحرية التى تنظم رحلاتها المنظمات الدولية والدول المحبة للسلام .. ومن الحدود المصرية عبر الأنفاق (الجوفبة) ! التى دعته إلى إستهداف تلك الحدود بالقصف بصواريخ تخترق الصبات الخرسانية بسمك ثلاثة أمتار وتنفجر حتى عمق ثلاثون مترا
أجابها :
- إن من الصعوبة القضاء على كل هذا كليا ولابد أن يتبقى شىء يقول أنا هنا .. أنا موجود .. لم تتحقق أهداف الحملة الوحشية !
- وبالنسبة للمقاومة هناك تباين واضح فى المواقف بين قادة الداخل وقادة الخارج .. فعلى حين طلب قادة الداخل إيقاف إطلاق النار .. أصر قادة الخارج على إستمرار المقاومة .. وكأن أشلاء ودماء الأحفاد والأمهات والجدود لاتعنيهم !
- رباه .. كان واجبا أن تتوحد المواقف .. فوجود الشوك لا يعنى خدش الورد .. وطفل واحد مهدد لسبب كاف يدعو أعتى المقاتلين لإلقاء السلاح من أجل إنقاذ حياته .. هذا ما تناقلته الأجيال البشرية من دروس على مدى التاريخ وهذه حكمة الجنوح للسلم !
- لازالت ذاكرتى تعى تلك القصة إبان إحدى الحروب بأحد بلاد الغرب .. حيث كان موكب الحاكم الطاغية يمر عبر شارع رئيسى بالعاصمة .. وكانت جماعة فدائية تحررية قد قامت بتفخيخ السيارة المكشوفة التى يقف فيها محييا أنصاره على جانبى الشارع .. وفجأة شاهد رجال المقاومة أن عدوهم اللدود (الماكر) يصحب طفلا معه ! .. فأسقط الأمر فى أيديهم والقنبلة الموقوتة على وشك الإنفجار وستؤدى حتما إلى الفتك بالإثنين .. فهل يسمحون بقتل الطفل البرىء الذى لم يقترف ذنبا من أجل قتل عدوهم .. ذلك كان السؤال الفاصل .. وتلك كانت القضية المأساوية .. وتشاور الرجال بسرعة حيث كان الوقت يجرى فى غير صالحهم وانتهوا إلى قرار بإيقاف « ساعة توقيت الشحنة « واختاروا من بينهم واحدا للقيام بتلك المهمة غير المضمونة العواقب .. فقد كان إنقاذ حياة الطفل ثمنه حياة واحد منهم والتضحية بهدف تم إحراز النجاح فيه سلفا ونصر للمقاومة مؤكد .. ووثب الفدائى المكلف على مؤخرة السيارة والتقط الفخ الموقوت الإنفجار من باطنها

بعد أن تعلق بها من أسفل .. كل هذا تم فى سرعة البرق لحذق المنقذ وخفة حركته وتمكنه من أداء الحركات الرياضية الصعبة .. وسط ذهول ألجم الجميع وهم يرونه يجرى بشىء قبضه بجمع يديه بحرص وشدة .. واخترق أحد الصفوف ثم وثب إلى ميدان خال خلف الشارع .. وفى الوقت الذى كان عليه أن يرمى بعيدا عنه القنبلة .. إنفجرت فيه وتبدد لحمه ودمه وعظامه فوق قمم الأشجار بالحديقة المجاورة والتى قيل أن براعمها القمية تغذت بعصيره النادر المثال فنمت وأثمرت الأشجار كلها بعد أن قطعت الخلفة وجفت وتساقطت قممها النامية والجانبية وأصبحت الحديقة مزارا يرتاح إليه أبناء البلد كلهم فسادت روح الأخوة والتضحية والإيثار بينهم ..

هذه قصة فرأتها عن حضارتهم وثقافتهم والآن أطرح سؤالا لاسبيل للإجابة عليه .. لماذا تتضاءل تلك الحضارة وتصيح ثقافتهم لا شىء أمام إظفر يهودى مهدد بالجرح مهما فعل وإن قتل الغير فهو فى جميع الأحوال إنما يدافع عن نفسه !

- عقدة الشعور بالذنب من الأفران والمحارق التى حرقوا فيها اليهود أثناء الحرب العالمية الثانية ..

- ولماذا لم تحركهم عقدة الشعور بالذنب تجاه الشعوب التى إستعمروها واستعبدوها وامتصوا دماها وخيراتها ؟ .. يخيل إلى أن الأمر أكبر من هذا وأنه بدأ قبل ذلك بحقب وعهود .. فوعدهم بوطن لليهود فى فلسطين كان هدفه أن يحققوا لهم ما أخفقوا فى تحقيقه على مر التاريخ ..

- معقول ! .. إسمعى أريد أن أقص عليك حكاية الحقيبة الآن !

- اسمع أنت عندى سؤال آخر يقصر علمى عن الإجابة عليه وهو .. ماهو دافع الغرب المسيحى لتبرئة اليهود بإصدار وثيقة تاريخية بذلك من الفاتيكان من دم عيسى بن مريم عبد الله ورسوله ؟! .. إن كانوا فى ذات الوقت بدعون فى شهر سبتمبر من كل خمسة وخمسين عاما إناس يأتون من كافة أنحاء العالم لمشاهدة ما يزعمون أنه الملاءة المطبوع عليها بالدم الجاف تفاصيل جسد المسيح بالمسامير التى تم دقها لتثبيته على الصليب وذلك بكنيسة بشلرع ٧سبتمبر بتورينو بإيطاليا حاوية الفاتيكان !

- القرآن يقول ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ..

- هذه هى الإجابة .. وتتفق مع وثيقتهم شكلا .. أما مضمونا فالقرآن لم يبرىء نيتهم وقصدهم .. وهم على كل حال قتلوا شبيهه على مظنة أنه هو وطالما الأعمال بالنيات

شرعا وقانونا فهم ليسوا أبرياء فلماذا لايصدقون القرآن ويصدقون أنفسهم !؟
- وهذا سؤال آخر يكمن وراء هذا الوجه الخفى الذى يحاربوننا به وبلتمسون لذلك كل وسيلة !
- ومع ذلك أعتقد أنها ليست حربا دينية فهم لا يتمسكون بدينهم إلا نكاية فينا !
- ومن فينا هذه .. وهم منهم فينا ؟!
- الموضوع بالغ التعقيد ولن يحل عقدته إلا الله سبحانه .
- هذا حق والحق أحق أن يتبع .
- معك حق ! .. لكنك لم تقل لى أين نحن ذاهبان ؟ .. ولماذا كل هذه المسافة التى قطعناها ؟
- قلت لك نحن ذاهبان لإنقاذ جرحى عائلة وائل السمونى ومن معهم من الجيران .. بحى الزيتون !
كانت تظن أنهما فى سبيلهما لنيل قسط من الراحة حتى يمكنهما مواصلة نشاطهما فى الجولة التالية التى يدرى الله وحده مداها .. رمقته بنظرة تأمل وتساءلت كأنها تصطنع الجهالة :
- أأنت قلت لى ؟!
ضحك من جديتها وتمتم :
- نعم !
تساءلت بعين الطريقة :
- متى ؟
أجاب وهو يتعمد ربما إثارة غضبها :
- لا أذكر .. ذكرينى بالله .. متى كان ذلك ؟! .. بخيل إلي أنه مضى على ذلك وقت طويل ! لكنها لم تنطق وخمنت أنه نوع من المزاح ثقيل لأسباب عديدة أولها أنه لاوقت الآن (تلك الأيام) ولا شهية للمزاح .. وفسر هو سكونها بأنه نوع من خيبة الأمل فتبسم وغمغم :وهو يكبح السيارة لتتوقف أمام مبنى محاط بأسوار وتبدو من بوابته الكبيرة عربات إسعاف كثيرة العدد وكأنه معرض لها .
- ليكن وصلنا إستراحة الإسعاف .. أطمئنى فيها قسم للبنات .. ستغتسلين وتتعشين عشاء ساخنا يعوض تعب النهار ثم تنامين نوما عميقا يعوض تعب ال ..

قاطعته مضيفة ومقلدة لهجته فى الكلام :
- النهار .. من له نفس ليأكل بعد الذى رأته عينه ! .. جائعة أنا للنوم أكثر .. وغدا أجيب سؤالك فلا تقلقن !
ودلف بالسيارة داخلا من خلال البوابة وهى إلى جانبه ولما بلغ بها موقف صيانتها وتنظيفها ومراجعة أرصدة حقيبتها الإسعافية لإستعواض ما نفذ أو ما قارب على النفاذ مع الصيدلى المسئول عن الإمداد تركها مؤقتا لمرافقة هدى التى تغالب النوم لإستكمال إجراءات إدارية كان قد بدأها فى وقت سابق بالهاتف مبلغا بياناتها لمسئول إلحاق نشطاء التطوع بجمعية الإسعاف لعرضها على مديرها ومجلس إدارتها لتسجيلها سائق مسعف أو مساعد طبقا لما يتم الإبلاغ به عن مستوى دربتها وعموما إستشعرت هى أنهم بفضلون تسجيل النسوة الأمهات كمساعد حتى يتاح لهن فرصة رعاية أطفالهن وبيوتهن إن كن ربات بيوت ولتفوقهن على الرجال فى أعمال التمريض أما الشابات فكان لهن ترتيبات خاصة تتعلق بالزى والإقامة الكاملة ببيت الضيافة ويخيرن عند تحديد المسئوليات والمهام التى يستطعن النهوض بها وعندما حل أوان تخييرها وسألها المدير تولى أبو رياض الإجابة عنها قائلا فى شبه إحتجاج :
- ما قلت لك يا أبا غسان أنها مساعدة !
- فقط أبغى أن أسمع منها !
قالت وهى تتثاءب باقتضاب وحسم :
- مساعدة !
ولما أتى أوان تسليمها حقيبة المهمات لاحظت من أول نظرة أنها نسخة مكررة من الحقيبة التى منحها لها أبو رياض وعلى الفور رفعتها بيدها ووضعتها على مكتب أمين المخزن وقالت له بصوت خفيض يلاعبه الكرى :
- هاك سبق لى إستلامها من أبى رياض حماه الله !
والتفتت إليه وهى تدعو له ثم مالت على أذنه وأردفت متسائلة بلهجة فيها تقريظ :
- أعلم الآن مصدر الشنطه ونصف الحقيقة لكن بقى السؤال كيف تسنى لك صرفها وهى مخصصة لأنثى !
قهقه ضاحكا وكانت ضحكنه الطليقة التى تنبع من فؤاده غاية كبرى فى نظرها فغمرها السرور وكشف أمين المخزن اللثام عن باقى الحقيقة دون أن يقصد وهو يقول مشاركا

فى جو المرح الذى ساد رغم الظروف التى تقيده :
- أه .. حقيبة أريكا ! .. أما زالت معك !
عاجلته بالسؤال :
- من أريكا ؟!
قبل أن يتدخل أبو رياض لتغيير الموضوع وعلى غير ما توقعت إلتحف الرجل بالصمت ليعطى إنطباعا بسلامة طويته على حين غمغم الآخر :
- ستتعرفين إليها بعد حين .. إنها ناشطة لا ندرى لها جنسية تجيد العربية وترطن بجميع اللغات ! .. كان أبو رياض قد أحضرها للتطوع كمساعدة مسعف .. وتم إعداد الأمور لذلك حتى تسليم الشنطة وحملها أبو رياض فى يده وغادر المكتب لشأن يتعلق بسيارته وعندما عاد لم تكن بيده إذ نسيها بالسيارة وعرف أن المدير قام بتغيير عمل أريكا وسلمها حقيبة أخرى للعمل داخل الديوان لما إكتشف معرفتها الواسعة باللغات وأنها يمكن أن تساعده هو فى الترجمة وتسجيل وكتابة المراسلات لمختلف الجهات الأجنبية الناشطة فى مجال الإسعاف وحقوق الإنسان التى نتعامل معها وكذا معاونة كل الأقسام فى التعرف على أسماء واستخدامات مايرد لنا من أدوات ومواد طبية ! ..
ومن ساعتها والحقيبة معه وكلما سألته عنها قال فى السيارة !
لعب الفأر فى صدر هدى وظنت بأبى رياض الظنون من طريقة سرد الرجل للقصة وحثت نفسها « أنه إذن صاحب موهبة ومتخصص فى توريد الناشطات الجميلات للجمعية ! « ومالت على أذنه وهمست :
- أريكا .. هيه .. مساعدة .. هيه .. والشنطة فى السيارة .. هيه !
ولم يفهم هو ماذا تعنى وإن كانت جادة أم تمازحه .. ولم يكن الزمان والمكان يسمح بالإستجواب فقرر كلاهما تأجيل ذلك لوقت آخر أنسب وانصرفا دون أن يتبادلا كلمة واحدة كل لحال سبيله .. هو إلى بيت الرجال الأعازب ! وهى لبيت الفتيات الذى لم يزد عن كونه حجرة منسعة قليلا (أشيه بعنبر إيواء) تحوى أسرة مفردة بيضاء من النوع الشهير بالمستشفيات ملحق بها حمام به غسالة ومطبخ به ثلاجة وفرن تسخين لأن الطعام كما قالت لها أريكا التى تعارفت إليها بمجرد دخولها وكانت جالسة على سريرها وأمامها كومة كبيرة من الأوراق تكتب ملاحظات عليها :
- يأتى لنا جاهزا من المطبخ العمومى ..

واضَافت وهى تتنهد بأنفاس وإحساس كله رضى وسعادة وهى تشير إلى ركام الملفات والأوراق :

- بريد المدير لا أجد وقتا للإطلاع عليه ومراجعته إلا على السرير ! .. ولأننى اعتدت منذ نشأتى القراءة قبل النوم ! وعرفت كذلك أنه لم يكن ثمة ناشطة أجنبية غيرها .. وكذلك لا عربية غيرها هى !

كانت فى أمس حاجة للراحة فأنهت تعارفهما على عجل ودخلت الحمام وقامت بتهيئة نفسها بسرعة لنوع من النعاس لم تذقه منذ بارحت بيتها .

- ٨ -

توقف السلام على طرف لسانها برهة قبل أن تنطق به فى صبيحة اليوم التالى إذ ابتدرها قائلا بصوت شاك معذب عندما تقابلا عند العربة :

- لم أنم لحظة واحدة .. تراءت لى جميع مناظر الموت التى رأيناها بأعيننا منظرا وراء آخر .. شريط ظل يدور ويتكرر طوال الليل .. أنا حاقد !

فاجأها قوله وهما يركبان فى وقت واحد السيارة وانبرت لتوها لما استوت جالسة تبثه عين الشكوى قائلة :

- هذه الأيام ثقيلة بدمائها .. ثقيلة بدموعها .. نمت نوما متقطعا مسهدا .. لكن أخبرنى يا معذب .. يا متعهد توريد الناشطات الجميلات .. كيف تقابلت وأريكا ؟! .. تريد أن تخدرنى بكلمتك الأخيرة الغريبة حتى أتوهن ولا أسألن !

تجاهل سؤالها الجاد الذى لاحق لها طرحه على رجل مثله بتلك الطريقة إن لم يكن دعابة وثقيلة لأنها تأتى فى ظل أحداث مأساوية وظروف عامة (وخاصة) غير مؤاتية وأضاف شارد الذهن وكأن قوله لم ينقطع :

على العالم بأسره وعروبتى حاقد .. على أمة الخير والجسد الواحد !

لا صفوف أرى ولا أسنان مشط .. ولا أحد بقوة الحب يمد الساعد !

سألته بفضول ممزوج بالمؤاساة والإعجاب المستتر :

- شعر هذا ؟!

سكت ولم يحر جوابا وبدت عليه أمارات الحيرة والدهش مما تلفظ من معان إحتجاجية مصدرها ما يكتظ بأعماقه وفؤاده من الأسى والحزن وشعور بالذنب لا يدرى أسبابه يحمل به نفسه مسئولية التقصير فى حق حبيباته اللائى أبدن بلا رحمة .. ود لو تسنى له أن يعتلى أعلى منبر ويصرخ :

- العالم كله مذنب .. وبلاد العروبة والإسلام وهو أيضا ودق على الجراح يا جدع !

وطفرت من عينه دمعة وهو يدير المحرك ويتريث حتى يسخن من طول ما برد مثل صاحبه طوال الليل ودمدم كأنه لا يعى لما يقول موجها أنظاره أمامه وإلى بعيد فى غبشة الصبح التى إدلهمت بما خالطها من عوالق فى الجو قللت مدى الرؤية وبصوت غاب فى

المسارب دفعة واحدة :

- حاقد !

كرر الكلمة كأنها أعجبته أو تحمل بلسما يداوى جراحه وهو يتحرك بالسيارة :

- حاقد .. حاقد !

وانخرطت هدى بدافع من شفقة التآخى ورثاء التراحم فى نوبة غير مستحبة من البكاء صباحا حيث يتوجب على المرء أن يستبشر خيرا ويفشى السلام بين الناس فتنبه إليها وهو يوبخن نفسه وشملها بنظرة تسأل « ما ذنبها حتى تعانى كل هذه المعاناة ؟ « إنها من العروبة وأمة الإسلام التى هو فى غضب شديد منها .. وهناك كثيرون وكثيرات يعانون معهما ..

حقيقة ليسا وحدهما !

وفكر أن يوقف محرك السيارة حتى تهدأ سورته ويسود من الهدوء ما يتيح له أن يطيب خواطرها بإظهار مايكنه لها من عميق التقدير والعرفان ثم تراجع حتى لا يشعرها بأن المصاب مصابه وحده واكتفى بتكثيف تلك المشاعر الطيبة فى بسمة تآخ ونظرة حدب تستقى نورها من منابع الغيث الأبوى فهو يكبرها فى السن بكثير واقتحمت عليهما غفلتهما تلك صاحبتهما أريكا وهى تحمل بيدها لفافة كبيرة تحوى شطائر ومخبوزات وتتمتم قائلة كأنها أم تلحق بنيها لتزودهم بما أغفلوه من إفطار الصباح قبل ركوب سيارة المدرسة :

- أمسكت بكما قبل أن تهربا منى ! .. نسيتما ساندوتش الصباح الهام ! ..

خذا بالهنا والشفا !

كانت لكنتها وهى تتكلم غير محكمة لكنها لم تكن ركيكة وكانت صادقة وتنبع هى الأخرى من غيث الأمومة فهى من حيث مراحل العمر وتدفق الحيوية ليست بفتاة ولا امرأة وضع لها سدود تعترض تهر العمر لتسمح بقدر معلوم ومرسوم للتدفق من خلال أهوسة ! تم بالخبرة التراكمية النسائية تشييدها وإنما بين بين فالحياة لم تقدر لمياهها حق الإنسياب الحر لما يزخر به النهر العام الذى تنهل منه كل الأنهر الصغيرة المفردة من الصخور والحجارة .. وكان يمكنها ببساطة أن تبحث لها عن جزيرة أو محمية تحيا فيها وحدها كما فعل الكثيرون من البشر فى كافة أرجاء الأرض لكنها أبت أن تسعد وحدها وإلا أن تشارك أشقاءها وشقيقاتها فى الإنسانية أفراحهم واتراحهم وألا تأكل «

ساندوتش الصباح وحدها كما تفعل الآن مع هدى وأبو رياض .. تلك هى أريكا الناشطة التى وفدت من بلد أوربى من أم فلسطينية وأب عالمى الجنسية يتنقل بأسرته من جبال الألب الدينارية ! إلى نهر التايمز ونهر السين ومن مرتفعات وزرنج إلى شطآن المحيط المتجمد الشمالى وبلدانه التى تشرق فيها الشمس ليلا بأمر الله وحكمته ! .. والتى أدركت ما يجول ويصول بفؤادى صاحبيها فأردفت وهى تكفكف مدامعهما بأناملها الرقيقة :

- لا أنا لا أقدر عليكما وأنتما بهذا القدر من الإحساس بالذنب مازال فى الوسع التغنى كما يقول مغنيكما الشهير الأغانى ممكنة ! .. سمعتك تقول أنك حاقد ! .. هيا تبسم بالله .. ألا تقولون الحلو والنبى تبسم والنبى النبى تبسم ! واغتصبت بسمة صغيرة بدت أنها نالت معها حظا وفيرا من التطهر من ذنوب عالمية أو معولمة فى أرض ميعادها هنا « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما « وساد الصمت واستغرق الجميع فى تفكير عميق .. وهامت هدى بعينيها فى اللامنظور وتمتمت فى شرود وبصوت به من رنات أجراس الإستبشار

ما يطغى على رنة جرس الحزن :

يالله لاتقل أنك حاقد .. على كل مدع بالإسلام فاقد
مردك لشعب عابد .. دخل المسجد والتاريخ عائد
قل أنك بالحق سائد .. وذو الفقار ينفض الوسائد !
سيف مسلول طارد .. لعدو قلبه قد من حجر بارد

وشاركنها أريكا الشدو قائلة :

يا حفيد عمر وخالد .. والنبى القوى الشاكر الحامد
كفاك توثيقا العالم شاهد الطفل والأم والجد والوالد
يخرون بثبات زائد .. ببيوت طيرها إعصار مارد

حياها أبورياض رافعا فبعته الحمراء قائلا وهو يبدأ أول خطوة من مسير السيارة كأنه يندب :

كأوراق شجر تساند .. كلمات طيبة بسماء تشاهد
من الجو حمم شدائد .. ولظى بركان ببحر هامد
آلة جهنمية لحاصد .. أقماح وحبات آهات تكابد

يسكب رصاص بارد .. بقلوب عمرها نور زائد
وردت أريكا تحيته صائحة ووردة حمراء تلوح بيدها له ولهدى والسيارة تتباعد على مهل :
دفاع نفس حجة البائد .. جريمة بمحرض وعامد
وجاوبتها هدى إبان تواريها عن أنظارها :
حصار جرحى وموارد .. حول ذى القربى أباعد
وانقسام لحمة يعاضد .. جوعا ذهب بأمل العائد
للتراحم والإيثار يكابد .. نقص الأكتاف والسواعد
ثم التفتت بعد أن توارت إلى أبى رياض وخفضت من طابق صوتها قليلا وأردفت :
أخى أراك للفتنة مادد .. كلتا يديك وفى العروة زاهد
درب السلف الماجد .. يضيع بتقسيم الإرث القائد
ما اتفق عليه المحامد .. اختلف الأتباع شيعا وفرائد
الأمم تبقى بصيد الفوائد .. لا بشبكة صياد فتنة قواعد
ولو شاء الله خلفا لوالد .. لعاش ذكوره لوراثة المقاعد !
هتف وهو يضغط على يدها بحماسة ليؤكد لها إتفاق وجهات النظر وبصوت جهورى :
فصل غزة عن الضفة وائد للحياة بسجن ومفاتيح تعاند
بوابات لمد أيد وموائد .. لا خير فيها ولا كبير فوائد !
قاطعته بعين الحماسة صائحة :
كونوا كشباك الصائد .. الفوائد ببحار المصير الواحد
رباط الخيل أمل صاعد .. بطعم العماليق للوليد الواعد
بأرضكم اصطفى معابد .. وتخير أنبياء وأجداد أواسد
أخى نحن محبيك أوابد .. لرفعة أعلام وهامات أماجد
بيض الأيادى الخوالد .. لأرض تقبل أقدام المجاهد
دعنا نحلم بسلام ساجد .. بكل المعابد وكل المساجد

***

تمتم باسما بتودد :

- حمد لله قد اتفقنا ..

ثم بعد أن صمت هنيهة واصل بخشوع وهو يرفع إصبع السبابة لأعلى بلهجة الذاهل عن نفسه :

- رباه .. أستغفرك وأشهد ألا إله إلا أنت سبحانك .. إثنان من العرب إتفقا !

عقبت على قوله على الفور فى شبه احتجاج :

- أنقذت نفسك بلهجة الخشوع والإستغفار والشهادة .. فالله قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه .. وهو فى ذات الوقت خير الشاهدين ولا ينتظر دعوة من أحد خلقه ليشهد ..

وتريثت برهة تفكر قبل أن تحزم أمرها وتسأل باستنكاف :

- ثم هل أجريت حصرا وتصنيفا لآراء العرب ؟!

وكادت أن تردف متنقلة من النقيض إلى النقيض لتلصق به إتفاقه معها فى صفة أخرى تروقها قائلة :

- أنت حالم !

فحال دون ذلك ظهور أعداد غفيرة من المشيعين بالأعلام الخضراء يهطعون فى الإتجاه المعاكس فى جناز شهداء لا ريب لضخامة عدد المحمولين على محفات بملابسهم المدممة مكشوفى الوجوه ولتنافس النسوة فى إطلاق الزغاريد بدل النواح والعويل ! ..

وتوا أوقف أبو رياض العربة على جانب من الطريق للمشاركة وإظهار الإحترام والتوقير .. ورأت هدى إبان مرور الجناز الجثامين وقد إنسدحت فى استرخاء تام وسلام تنظر أعين بعض من احتفظ منها بأعينه إلى أبعد ما يقدر بشر على الإبصار الحديد كما تشير الآية الكريمة التى جالت بذهنها وهى تتأمل الوجوه السمحة الباسمة بكل التفاصيل التى تبقت سليمة لبعضهم ! والدموع تطفر فى خطين مستقيمين من الزاويتين للزاويتين مرة أخرى ! .. وأيضا الأطفال من الجنسين يمثلون أغلبية الشهداء يحملهم زووهم بين أذرعهم بلا محفات والبقية للنساء وكبار السن أما الرجال والشباب فيمثلون دوما أقلية لأن التركيز لا يكون عليهم أكثر !

واستغربت هدى لما حانت منها إلتفاتة إلى أبى رياض ووجدته يدارى بسمة كبيرة وكادت أن توبخه ! .. ماذا أيكون حزنه على إبنتيه وزوجه قد بلغ هذا الحد المزرى ؟! .. يفرح فى الموت ؟! .. لا هذه درجة غير مقبولة من الأطوار غير المنسجمة وما يجب أن يضمره

المرء من توحد مشاعره مع بنى جلدته وستناقشه الحساب بعد أن تمر الجنازة ولكن برقة فالنساء تزغرد وليس كثيراعليه أن يبتسم بنفس المنطق !

كان الجناز يجتاز مشارف حى الزيتون فى إتجاه مقابر الحى القريبة من الطريق العام ولذلك بعدما مرت وخلا الطريق إلا من سحائب الغبار المثار من أثر حك الأحذية بالأرض الذى غلب مؤقتا على الدخان والأتربة ذات الألوان عاود أبو رياض المسير وابتدرته بنوع من الغيظ كأنها تخبره :

- كدت تضحك !

قال بلا اكتراث :

- لا عليك !

أوشكت أن تصرخ جنونا من قوله ولهجته ولكنها تمالكت نفسها وسألت تصطنع أدب الحوار :

- كيف ؟

أجابها هادئا :

- لذلك سبب ؟

عاودت السؤال بحنق حذر تلك المرة :

- طبعا لذلك سبب .. لكن كيف ؟

أجابها مباشرة ودون مواربة :

- رأيت علائم وأمارات إستغل فيها المقاتلون الفرصة لنقل بعض الأسلحة والصواريخ !

ابترد صدرها قليلا وسألته على استحياء :

- وهذا ما كاد أن يضحكك ؟!

وافقها بإيماءة من رأسه واكبت قوله :

- نعم !

- طبعا ليكن .. هذا أمر معروف ومتوقع !

وصمتا لأن العربة بدأت تدخل بهما منطقة المساكن بعد المقابر وما كادت تتوغل قليلا حتى باغتتهما أصوات أنات واستغاثات بدا أكيدا أنها لأطفال صغار تنبعث من أول بيت منفرد واجههما وفى نفس اللحظة رأيا فوقهما مباشرة حوامة من نوع حاملات الجنود تلقى فانوسا شديد الإضاءة تعلق فى الفراغ فوق سقيفة السيارة والشمس على أشدها

فى رائعة النهار لكنها فيما يبدو لا تكفى الأعين الظليمة فى الطائرة للرؤية !.. أو هو لون من ألوان العبث بإعماء خلق الله بنور باهر لا يقدر على فتح أعينه فيه ! .. أو ربما وهذا الإحتمال أقوى ضغط الطيار على زر الفوانيس بدلا من الصواريخ لأمر أربكه شاهده ! وسمعا صوتا يصيح داخل الطائرة :

- هى بعينها !

أعقبه على الفور صوت آخر تساءل :

- أولجا الساحرة مندوبة الأخبار تقصد أم تلك القطة البرية المتوحشة التى لم نرها وهى تقتل رجلين بقفزة واحدة ! .. يا حبيبى هذه قصة خيالية !

وكأنه لم يسمع زأر الصوت الأول يأمرهما بالتوقف مع أن العربة كانت متوقفة فعلا ! .. وهبطت الحوامة لمستوى الأرض مثيرة من الزوابع مابرر أهمية تعليق فانوس وضاء فى عزالنهار ونزل منها جنديان مدججان بالسلاح إقتربا منهما وانتهرهما أحدهما آمرا بلهجة مستبدة باصقا أن ينزلا فنزلا دون مناقشة وأعينهما عليه يركزان النظر إذ الأمارات كلها فى وجهه المنتفخ وعينيه تدل على أنه يفند محيا هدى ليؤكد لنفسه أنها كما قال هى ! وأطال فى إعمال الفكر واستدعاء الذاكرة بينا إنشغل الآخر فى تفنيد السيارة ولما لم يعثر على رجال أوسلاح دنا من أبى رياض وفتشه تحت ثيابه وتحول إلى هدى وبدا عليه أنه سيفندها بعين الطريقة فارتدت إلى الوراء مذعورة وقهقه الجندى وانتفخت أوداجه واحمر وجهه من شدة السرور والغرور آمرنها أن تخنع أفضل لها فامتثلت وتحول جسدها كله إلى لوح من الثلج وهو يمد أنامل يديه كلها مفندا ويتعمد أن يتلكأ فى بعض المواضع فانفجرت فى بكاء هستيرى أزعجه وتباعد عنها كأنه يخافها مشاركا زميله هواية البصق ولكن فى وجهها ! وطفق يسب ويشتم أقذع الألفاظ التى اعتبرتها هدى أهون وأخف وطأة مما أوشك أن يشرع فى فعله ورفسها فى بطنها الجندى الذى تعرفت عليه وكان إلى تلك اللحظة يتفرس وجهها كما لوكان يعلن بتبرم وسأم إخفاقة فى تذكرها والتعرف عليها قائلا :

- لا الثانية كانت نمرة مهببة إسود وجهها !

وتضاحك ساخرا وشاركه زميله سخريته وهو يصعد معه المروحية التى كانت لا تزال رأسها دائرة تثير النقع وهذا ربما قد ساهم فى تمويه ملامح هدى وأخفى مع « أفرول « الإسعاف وإيماءاته فتنتها التى كانت ستكشف عنها تنورتها التى عبرت بها نفق والدها !

الذى كان سينفق يقينا عندما لا يعود قادرا على رفع هامته ! وأوشكت أن يغشى عليها لهول الواقع والفكرة ! .. وتعالت الطائرة لكنها لم تفارق سماء الحى كأن بداخلها بشر يصعب عليه المغادرة قبل أن يقتل (فى جملة ما قتل) هذا الرجل الذى ينطوى على قدر من الغموض والصفاقة وتلك الفتاة التى لا مثيل لجرأتها ووقاحتها ! ولا يشفع لهما أنهما مسعفان فهذا سبب وقاحتهما وعدم إكتراثهما ! ..

وتعجبت هدى فعلا وهى تتساءل « لماذا لم يقتلاهما ألأن أحدهما مغرم بواحدة تشبهها إسمها أولجا .. وهل أولجا غير أريكا التى يعرفانها .. وكيف لم يتعرف الثانى عليها ألأن شكلها اليوم مختلف ؟ « ورنت بأنظارها إلى أبى رياض تستنير به فقرأت فى عينيه نفس الأسئلة وأكثر يغشاه صمت مصبور خانق ! ثم مالبث أن نكس رأسه وتجمد وبدا عليه أنه يتوقع المزيد من الأحداث الرهيبة حتى بعد زوال الخطر وظل جامدا على حاله لم يتغير فقررت أن تدنو منه لتكشف ما أصابه ورفعت رأسه عن صدره قائلة بصوت جاهدت ليخرج واضحا خفيفا :

- إرفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الذل والاستعباد !

رفع رأسه ثم عاد ونكسها ولم ينقذه من تردى شعوره المبهم الذى حارت فى إستجلائه غير عودة الأصوات الوانية والأنين الصادر عن البيت الذى توقفا أمامه وأنسى كلا منهما نفسه ..

كان سقف البيت مهدما فى معظم جوانبه مع جدرانه وأعمدته وخمنا أنه ربما كان يتكون من طابقين إنهال أعلاه على أسفله .. دخلاه بدفع باب إنهار لتوه كأنه كان ممسوكا بضغط أنفاس طال اختزانها فى ردهة خلفه ! غطتها بحيرات اتصلت حتى صارت بحرا من دماء جفت وتجلطت منذ مدة فى إعتداء سابق قبدت كأنها سجادة حمراء وبنية سوداء بحواف ! تحت أشلاء برولئح كريهة لمذبحة يبدو أنها وقعت فعلا منذ أكثر من ثلاثة أيام .. وبقايا الحوائط الداخلية العديدة الثقوب والنخرات وأسياخ الحديد الثعبانية التى تلوت وتهدلت تحت نير قذائف صاروخية لطائرات أو مدافع دبابات إكتفت فى سقف الردهة فقط بإحداث فتحة كبيرة تتسع لتنين أسطورى أو حوامة .. وكان أيشع المناظر وأقساها منظر أبدان تعفنت لأمهات وقد تعلق بصدورهن أطفال أحياء تبحث عن موضع الرضاع ! .. وأبدان أخرى أكبر لأخوة وأخوات صغار تلاصقوا فى حالة إعياء تام وهم بعد لا تدل حركة صدورهم الضعيفة بسهولة (إلا لعين مسعف

خبير) على أنهم ما زالوا أحياء !
ولم تتمالك نفسها من إدامة النظر وارتدت خارجة وهى تصرخ بصوت مكتوم مبحوح صوب السيارة تقصد ركوبها لكنها توقفت وأحست بشىء يخبطها على ظهرها ويتناثر على الأرض محدثا صوتا لا يلاحظه غير كل حذر رهيف السمع لخفته ! وربما لم يكن الصوت خارجها بل داخلها !..
وتلفتت فرأت أمام عتبة الباب مايشبه أوراق أو صور ملونة .. خطت نحوها والتقطتها وهى تتحاشى النظر إليها فهى تعرفها ! وتعرف ماعليها أن تفعله ومغزى سقوط ذاك الحجر على أم رأسها فى تلك الآونة ! لتغيب عن الوعى .. إنها كرة أخرى تحلم ! .. إنها هى التى تأخذ طريقها فى الحلم إلى الحوامة مباشرة فبينها وبين طيارها ومن بصحبته من الجند ثأر عام وآخر شخصى ! .. ولتدخل من بابها كما تدخل فى كل مرة ولتوزع الهول على هؤلاء الذين رأوها تثب من الهواء كالباشق فجمدوا فى مجالسهم من الجزع وكأن على رؤو سهم الطير ..
لم تضع الوقت فقد كان لها مع الطيار بصفة خاصة مهمة سرعان ما انتهت ببطاقة هويته التى أعطاها لها دونما إرادة منه وهو يبكى أطفاله بكاء مرا .. ولما عادت إلى بطن الطائرة حيث الجنود لترى أثر الصور ام تعثر لهم على أثر فخمنت أنهم صدقوا ما طالعوه فيها من أشلاء أطفالهم فلم يتحملوا وطاشت سهامهم أجمعين وألقوا بأنفسهم من عل ليلقوا حتفهم ! .. ورأت الطيار هو الآخر يحذو حذوهم وراحت الطائرة تهبط بسرعة رهيبة وتدور حول نفسها فى حركات بروانية طائشة واستشعرت على قدر سعادتها بمحصولها ماحاق بها من خطر فالطائرة ستنفجر بمجرد إرتطامها بالأرض وستحترق معها من النيران التى ستتوهج .. رباه .. ماذا تفعل .. ماذا تفعل ؟ ولم ينقذها من مصيرها الموهوم إلا يدا أبى رياض تهزانها فى شدة وعصبية وأفاقت لتجد نفسها واقفة لم تزل على عتبة الباب المخلوع ! تسمع صوته يزعق فيها بغضب وتخوف :
- ماذا عساه قد حدث لك .. أتنامين واقفة كالجياد ! .. لم يكن ينقصنا إلا هذا .. هيا وراءنا عمل كثير هنا !
تسمرت تنظر إليه وتدقق النظر كأنها لا تعرفه ثم رفعت بصرها للسماء ونزلت به للأرض فى حركة توالت سراعا فلم تر الحوامة ولا أثر فى يدها لأية بطاقات هوية ! .. إسترابت فى حقيقة ما تكابده من واقع حالها واستنكرت فى عين الوقت أن يكون ما وقع

مجرد أضغاث أحلام يقظة ! وانتابتها غضبة وسورة احتجاج واعتلت مكانها بالسيارة ووضعت رأسها بين كفيها وانخرطت فى بكاء حار كأنها لا تعير رفيقها اهتماما وهو ينفض يديه منها ويتوفر على حمل الأطفال الأحياء والجرحى الذين تورمت جروحهم وأصيب بعضها بحالة إسترواح هوائى وامتلأ بعضها الآخر بالدماء المتجلدة فى مرحلة ما بعد التخثر وبالصديد الذى يوشك أن يسمم تلك الجسوم الضعيفة .. وبعد أن أتم مهمته أمرها أن تفعل شيئا وتقود السيارة فقد أصبحت « حاذقة « ! ريثما يعمل هو على تنظيف القروح قدر طاقته وإنعاش الأطفال برش القليل من أبخرة المنشطات على أنوفهم بعد تنظيفها وتسليك مجاريها ! راجيا إياها أن تهدأ وتتمالك أعصابها وتقودهم إلى مستشفى « ناصر « فهو أقرب المشافى ويقع بمدينة خان يونس .. فقد سمع من زملائه عبر الهاتف المحمول أن الطريق إلى مستشفى الشفاء أغلق من حيث تقدم العدو غربا بعد احتلال التلال الحاكمة المطلة على حى الزيتون والتفاح وتل الهوا وجباليا .. وأن الأكثر أمنا الآن محاولة الوصول إلى خان يونس عن طريق الدوران حول التلال ..

صدعت لرجائه الذى تلون بلون الأمر دون كلمة وقادت السيارة على مهل لأن الطريق كان يغص بأرتال من الدبابات والعربات المصفحة التى كانت تصر على تسليط كشافاتها فى عينيها وداخل السيارة لمجرد الإستفزاز والإثارة فتحيل نهار أخريات ديسمبر فى الأعين ظلاما مؤقتا وإن كانت السماء الدنيا لم تخل من بعض القوافل المسافرة فى سرعة للسحب والغيوم فكانت تكفهر وتعبس مغيبة لدقيقة أو نحوها الفانوس السماوى فتظلم الأرض فعلا ومع ما اكتظ فى مجال الرؤية من غبار وعوالق الحرب أصبحت الحاجة لاستعمال الكشافات والفوانيس الأرضية مبررة وماسة .. فضلا عن أن المنطقة كانت غنية بالخضرة التى تهيل على الأرض العديد من الأدغال والظلال التى تستوجب زيادة الإضاءة الطبيعية لبث الطمأنينة التى كانت تقل مع زيادة أصوات صفير الجنود وإطلاق الأعيرة النارية فى الهواء لمرأى حسناء تقود عربة إسعاف وهو عمل قلما رأوا امرأة عربية تقوم به .. لكن هذا كان قدرها .. وأراد عدد من هؤلاء الجنود المداعبة وزيادة المرح فصوبوا بعض الطلقات الطائشة فوق سقف السيارة إنخلع لها فؤادها وكادت أن تفقد المقود فى يدها من شدة توفزها وتشنج أعصاب أناملها .. لولا عناية الله ثم توجيهات وتطمينات أبو رياض بأن تضبط أعصبها وتضع فيها من جليد إرادتها ما يقويها على الإمساك بالمقود بعزم كاف للإبتعاد دون أن يخامره مجرد التفكير فى الحلول

محلها لأن ذلك كان من شأنه أن يعقد المشكلة فهو بستثير الجنود ويتطلب موافقتهم ! ثم أنه لسبب غير واضح وكأنها معجزة أو استجابة ربما لأوامر صدرت من القادة حتى لا يفلت الزمام وتنقلب الحرب ملهاة يخسر فيها اللاهى مهما كان مسلحا ! إبتعد اللاهون عن عربة المرح التى تحمل الويل لأى عين تنظر داخلها دفعة واحدة .. ولعلهم رأوا حمولتها فلم يتحملوا وانصرفوا لايلوون على شىء .. ومضت العربة تغز السير كمن كلل بالعار حذرا فى طريق وعر أو بالأصح كان معبدا وتهدم وأخرج ما فى باطنه من أحجار وصخور بفعل مقذوفات الأعماق التى كان يتم رميها على الطرق المشجرة على سبيل الإحتياط ولكثرتها لديهم ! بعد دك المواقع الحساسة التى أعطتهم صور الأقمار الصناعية وطائرات التجسس فكرة عما لحقها من دمار لا يسمح بالمزيد ..

إلتفتت هدى خلفها وتأملت أجساد الأطفال التى راحت تنتفض وتغالب الآلام وأسباب الموت وانكباب أبو رياض عليها لإفاقتها وتقويتها بإغداق قطرات منشط غذائى من قنينة بالأفواه المفتوحة قدر ماتسمح الطاقة وخيل إليها أن أحدهم نطق بعد أن امتص بضع قطرات بصوت واهن يكاد لا يسمع ومتقطع :

- احنا هناك منذ .. أيام .. لم نأكل أو نش .. رب .. ! تعاقب علينا الظلام أربع .. ليال .. كنا نرى الفئران وال .. سحالى تسبح على أجساد أمهاتنا وأخواتنا وإ .. خوتنا ! ..

وسكت رهقا فتناهى إلى سمعها صوت فتاة إلى جانبه تتهته بعين طريقته كأنما تمنحه لحظة يستريح فيها من فرط ما بذل من جهد للكلام مضيفة :

- وتدس أنو .. فها .. فيها ! .. تبحث عن .. قط .. عة من ال .. لحم ! ،، ليس ب .. ها .. نزف .. طى .. بة الرا.. ئحة ! هه ! ..

وهتف ثالث بصوت ينبع من صدره :

- ونحن من ال .. خوف وال .. جوع وال .. عطش لا نقدر أ .. ن .. نب .. كي !

وسكت برهة يتنفس ثم واصل وقد واتته قوة مفاجئة فارتفع صوته على الرغم منه :

- لماذا نموت ؟! .. أليعيش غيرنا ؟! .. ولماذا إن عشنا يموت غيرنا ؟! .. لم لانحيا جميعا ؟! .. لم أح .. رم من أمى واختى وأخى وأبى ؟! .. لماذا يثير لعبى معهم ! ومع أصحابى الغيظ ؟!

وسكت ثانية منتظرا على ما يبدو أن يجيبه أحد على أسئلته .. ولما لم يسعفه أحد بإجابة إستأنف :

- لماذا لم أعد أشم الريحان والنعناع فى أنفى ! .. أين نافذة غرفة نومى ؟! .. لم لا أرى

النور فى الأعين البصاصة وأنا على عتبة المسجد ؟! .. وأين تلك العتبة أصلا !؟ .. والقلوب .. قلوب المدرسات .. لماذا لم تعد تطل على من الصدور يا أمى ؟! .. أحقا لن تضمينى إلى صدرك لأسمع الأغانى ! .. لن أملأ عينى منك وأنت تدسين فى حقيبة المدرسة الشطائر والحلوى ؟! .. لماذا لا تمطر السماء وتطفىء النيران التى تأكل وتنهش ؟! .. لماذا يعجلون بموتنا اليوم إن كنا سنموت غدا ؟! .. لماذا ؟!

وترامت الكلمات الكبيرة والتساؤلات الصعيبة على سنه الصغيرة التى كبرت بالألام على سمع هدى فلم تتحمل وخارت قواها وشعرت بأنها على وشك الغثيان فأوقفت السيارة واستسلمت لما عراها ..

- ٩ -

وتوقفت كذلك أنامل أبى رياض عما يعمل لتخفيف حدة إصابات الأطفال ورفع رأسه صوبها وحدجها بنظرة فاحصة عاتبة دون أن ينبس أو يريم منتظرا فى مكانه خطوتها التالية وما تتم عليه أطوارها التى بدت له (هى الأخرى) غريبة غير منطقية ولا تتناسب مع الوقت والظرف المكانى والإنسانى الذى لا يخلو ولا يقدر على العيش بدونه بشر !

- نحن نسابق الزمن لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ..

أخيرا نطق ليلفت نظرها إلى ما ضيعته من وقت ثمين قد يكلف هؤلاء الصغار اليتامى والمساكين حياتهم لما فقدوه من أنفسهم وذويهم عن بكرة أبيهم وأمهم أيضا !

وجاء ردها أكثر سرعة وعصبية مما توقع وكأنها وحدها تحمل فى حناياها أخطاء كل الخلق فى كل العصور ! أو يكتظ فى نفسها ما بخص البشر أجمعين من الشعور العالمى بالذنب ! فانتهزت فرصة توقف السيارة وترجلت وهى فى حال شديدة من فقدان الزمام لدرجة الاهتياج وراحت تخمش وجهها حتى أدمته وتشد شعرها حتى تقطعت من ضعف بعض خصلاته واقعت على الأرض بالقرب من كومة تراب سوداء محترقة كأنها بقايا حيوان أو إنسان وأهالتها على نفسها صارخة :

- المقاومة بالإسعاف والإغاثة لا تكفى .. ماذا أفعل ؟! .. كيف أوقف المجزرة وحدى !

نثرت التراب حتى على رأسها كأنها ترجم شيطانا داخلها وتناولت بعض قطع الحصى ورمتها إلى أبعد ما تستطيع كأنها ترجمه أيضا خارجها وتسد عليه المنافذ فى كل مكان .. واعتدلت ودقت الأرض بأرجلها رافعة رأسها رفعة جسورة كأنها تفكر فى السماء التى تمرح بها الطائرات بالطول والعرض وتلهو بحياة خلق الله بصب الجحيم عليهم .. ووجب فؤاد ناظرها بجزع .. وهو يزن نظرتها الطويلة للسماء بميزان حساس .. يزن عمل المرء بمثقال الذرة ويشفق عليها مما تفكر به من خير وشر فلم يبق غير إهالة التراب على النفس ورمى الأحجار فى الجهات الأصلية الأربع وهذه كلها تقع فى نطاق حدود الله وما يسمونه بالخطوط الحمراء ففى السماء رزق الناس وما يوعدون ..

وانخلع هذا الفؤاد عندما رآها تنحنى ثانية عل الأرض كانها تلتقط آخر حجر لآخر رمية فى آخر إتجاه .. غير أن هذا الفؤاد سكن بل ورقص طربا وحبورا لما رآها فجأة تجثو

ساجدة منفجرة فى جهيش محزن وهى تردد :
- رب ما خلقتنا إلا لنعبدك .. حسبنا أنت ونعم الوكيل .. سبحانك لا إله إلا أنت إنى كنت من الظالمين ..
ورفعت ذراعيها ورأسها المغبر إلى السماء ضارعة واسترسلت بتبتل وصوتها يتهدج :
- يارب .. لا إله إلا أنت نلوذ به فأنت أقرب إلينا من حبل الوريد .. يا رب .. يا قريب .. يا مجيب الدعاء لا إله إلا أنت ندعوه .. يا قوى فوق كل قوى .. يا مجيب ..
دون أن تفصح عن دعوتها فربها كما نادت قريب وسميع وعليم .. يعلم السر وما تخفى السرائر والأنفس وهو على كل شىء قدير .
والغريب أن تصفو السماء فى تلك الآونة صفاء ليلة القدر وتخلو مرة واحدة مما يعكر الجو من عوالق طبيعية وغير طبيعية ومما يجوب الآفاق من أقمار صناعية وما يهيم من الطائرات التى كانت تخترق حاجز الصوت شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وأن .. تخفت كل الأصوات حتى أصوات المدافع التى تنطلق من البر والبحر .. بعض الهدوء يرجع فيما يبدو لالتقاط بعض الأنفاس من جانب المعتدى .. والتقاط ما هو أغلى وأبعد من مجرد الأنفاس من جانب المجنى عليه فثم وجه الله الباقى .. الذى لاراد لقضائه وكذلك لدعوة مظلوم لايطالب بأكثر من حقه فى الحياة ليعمل صالحا يرضاه لعبادته وعمارة أرضه وتزكية نفسه .. أهذا كثير عليه ؟!
وعلى حين غرة تعالت فى دارات السماء أصوات طائر الكروان الذى لا يصدح غالبا فى آذان البشر إلا مع صياح الديكة فى السحر قبل آذان صلاة الفجر بقليل لتسبيح الله وتهيئة الناس لميلاد يوم جديد وأمل حبذا لو ينبعث بنوره سبحانه فى ظهيرة اليوم الأخير من عام ٢٠٠٨ والغمامة (التى صاحبت الشاب الأمين محمد لتظلله من وهج شمس الصيف فى رحلة تجارته) تبحث عمن تظله ببردها وسلامها تحية للشهداء والجرحى الذين رحلوا فرحا عن الحياة الدتيا ولاحقتهم الزغاريد والكلمات الطيبة من أمهات كالأشجار فى الأرض أصلها ثابت وفرعها فى السماء وهمهمت هدى لنفسها ورأسها فى السماء لم تزل مرفوعة :
- أنا إحدى الشجيرات الطيبة ! .. قد طالما أمرتك .. كف أيها القلب الأرعن عن الخفقان ! وأبهجها الخاطر فانقلبت للنقيض وبرقت عيناها ورف فؤادها فى صدرها رفيف طائر مسرور نزلت عليه رحمة الله بعودة أمه بسحابة محمد وظل الوقاية من الهجير !

وتخايلت لها فعلا أمهات الطيور البيضاء وقد عادت بأبرار الرحمة والإيثار والتآخى .. أى نعم إنها تراهم ! .. وهاهى أسرابها تملأ السماء الصافية وتصنع غيمة تخفى عنهم شمس الظهيرة !

ولم يقف الأمر عند هذا الحد .. وكأنه محض حلم .. ظهر فجأة ولد وبنت وكأنهما خرجا من السيارة بعد التعافى يبسمان فى وداعة ورقة ورصانة ليست من طباع الصغار .. وبأنامل اليد اليمنى لكل منهما وردة بيضاء كبيرة تصتع بتلاتها معا شكل قبة المسجد الأقصى وكل بتلة منها كحمامة ترف بجناحيها رأسيا لتصنع مع أخواتها من الخارج سداسيات نوافذه التى تلقى أنوارا فيروزية خضراء على أروقته السداسية الداخلية ..

- رباه .. رحماك .. هذه والله خير بشرى لعبادك الذين يعرفونك .. أنزل بها الغيث يطفى ء نيران عدوك التى أضرمها لحرق الأرض والحجر والشجر بعد البشر !

هتفت فى غياب ذهن من شدة تفكيرها :

- أنزل الغيث .. أنزل الغيث !

ولم يجد أبو رياض بدا من الترجل من السيارة ودنا منها على هون وهو يتساءل فى رجاء :

- ماذا يا هدى .. ؟ .. أيستمر هذا الترف أطول من ذلك ؟

فادارت له محيا كفنته الدموع وهى ترد سؤله بسؤال غريب :

- لماذا لا ينزل الغيث ؟ ..

أجابها وهو يهز كتفيه كأنه يقضى بأمر مفروغ منه وببساطة :

- ربما أن من فى السماء ينتظر رحمة من فى الأرض .. لمن فى الأرض !

سألت سؤالا أكثر بساطة :

- ماذا ينقصنا ؟

- ماذا ؟

- للنشوء والإرتقاء ! .. للحب لاتحاد القوة والنماء !

وصمتت هنيهة ثم استتلت كأنها تغنى :

أراضينا كلها خير ونماء .. نهرها طويلة لياليها قمراء !
أبدعتها يد عليا سمحاء .. بألوان صفراء على خضراء
تجرى بها أنهار البراء .. ذهب سيال بعيون الإستدفاء
وفضة رقراقة للإرتواء .. وكنوز معدنية بجبال الوفاء

وضرب أبو رياض يده أخماسا فى أسداس وحدث نفسه متسائلا « أهذا وقت الغناء !؟
« وفكر فى أن يشاركها لأمله فى أن تكون نفسها قد صفت نهائيا وتماما بلا رجعة إلى ما عكرها فقال مكملا ما بدأته بصوت جهورى منغم :

نبخل عليها بجهد وعناء .. ونسافر إلتماسا لأعين زرقاء !
بأرض زفير وأتفس خلاء .. والجليد الصاعد يتساقط شتاء !
زرقاء إحمرت من إسراء .. وقرمزية نرجس ووشم حناء
يدوسون لغة القرآن لإملاء .. أبجدية الخوف وتبعية الخواء

وفعلا تحقق أمله وغمرها السرور لمشاركته وتبسمت له محيية وتبتلت :

نحن بأنفاس رسل رحماء .. نحيا بالفطرة منذ آدم وحواء
نوح ليوسف وخاتم أنبياء .. لموسى وعيسى أبا الزهراء
ترانيم أسفار قدسية علياء .. وآيات باللوح المحفوظ بإباء
ربيع قلوب صيفا وشتاء .. بمكة والمدينة وقدس إيلياء
ما ينقصنا لنشوء وارتقاء .. للحب لاتحاد القوة والنماء !

صاح الطفلان كأنهما يناديان على شخوص لا يراها غيرهما :

يا أثرياء إرحموا فقراء .. الإيثار نجاة من دنيا الفناء

وصاح صوت غامض تحت السيارة :

طرحنا أرضا خط الأعداء .. فرق تسد وإشاعة خرقاء !
كأننا بحضانة أم شعواء .. تعلمنا الهجاء بعواء فرقاء

فقاطعه الطفلان بصوت ذاهل :

أنهار تحولت لرى أعداء .. ونحن بحاجة لقطرة ماء
أبواب مغلقة على الأبناء .. وبنوك سرية تخمة ولاء
بداية الداء إمتلاء حوباء .. بدهان حسباء ومراء وكلاء

وأسرع الغامض تحت العربة مضيفا :

ألهم وحدهم غيث السماء .. أبارك الله حرامهم بسخاء
أسلمهم خزائن الإكتفاء .. ونسى جل خلقه الظرفاء !
ما ينقصنا لنشوء وارتقاء ..للحب لاتحاد القوة والنماء

وأمسكت هدى طرف الخيط وصاحت :

إنهارت مصارف أذكياء .. لقروض بلا شروط للبناء
وبأراض بالقمر للسفهاء .. استعادوا ما تبخر بالهواء
والمظلة النووية لاحتواء .. إخوان نشدوا علوم العلياء
صوروهم لنا إخوة أعداء .. لبث الفرقة ومص الدماء
العلم الحديث حكر لعلماء .. دول نميرة بمجلس سعداء
الأمن ناء بمجلس الأمناء .. شرفاء خمسة بآذان صماء
يكفينا تقديم قرابين الشهداء .. لركوب العولمة بالفضاء
ما ينقصنا لنشوء وارتقاء .. للحب لاتحاد القوة والنماء

وتواثب أبو رياض متشيا بما يسمع وهو فى مكانه كأنه على وشك الرقص لولا وطأة الظروف وهمهم :

السطو على ناقلات الدواء .. والحب إرهاب دول لأبرياء
قطع جسور وتبادل سفراء .. حق الأرض حصار الأحياء
تدفع بوطنى بنات وأبناء .. لأعين زرقاء وإدمان إنزواء
وهجرة مالنا دوما بغباء .. تركه لينمو بقصور الغرماء
همنا شغل وقت النبلاء .. بمعامل تكرير أصول وشرفاء
الأولى بالنعمة يا هؤلاء .. صغار يتامى وثكالى شهداء
أهكذا منح تراخيص بناء .. روح معنوية بصحراء جدباء
فوثبت بدورها هدى أمامه مقطعة ومكملة :
إفتقاد قدوة الأهل والأصدقاء .. يكسر إرادة شباب شياب !
بطالة وعنوسة وفقر ووباء .. وأمية وتحت الخط شرفاء
عروق المحبة أين والصفاء .. حتما سنلتقى برب القضاء
من عين العمل كأس الجزاء .. إتقوا يا غرباء دنيا الفناء
ما ينقصنا لنشوء وارتقاء .. للحب لاتحاد القوة والنماء

***

كان الطفلان (الولد والبنت) قد صارا لحظة الإنتهاء قبالتهما وسارعا كل من جانب بتقديم الوردة البيضاء لكل منهما وقد اتسعت إبتسامتهما قليلا وعلا تغريد الطيور

فوقهم جميعا وكأنها جوقة موسيقية تعزف لحنا من ألحان الجنة !
وزينت هدى صدرها بتثبيت الوردة فى عروة أعلى الجيب العلوى لزيها فوق الفؤاد مباشرة ليزيد من الدم الصاعد لأعلى فيتورد محياها كما كان بحمرة الفرح والإنشراح وهمس أبو رياض فى أذنها على سبيل المزاح :
- أخرجى التراب من الجيب أولا !
فلم تعبأ به وجثت ثانية على ركبتيها ولكن تلك المرة لتحتوى الطفلين بين ذراعيها وتضمهما فى حدب وحنو إلى صدرها ، فتركها وما تريد وانشغل بواجبات المسعف التى لا نهاية لها وبدا وكأنه لا يرى أو يسمع لدقيقة أو نحوها تعجلها بعدها للذهاب وهو يستحثها قائلا :
- رحمة بالجرحى .. يقول المثل الوقت من ذهب !
رنت إليه بنظرة عاتبة وغمغمت متسائلة :
- يا رجل .. ألا ترى الطفلين ؟!
تبرم وتساءل :
- أى طفلين ؟!
أضافت بنفس اللهجة :
- ألم تسمعهما يشاركان فى القصيدة معنا ؟
صاح مغضبا فجأة :
- طفلان وقصيدة معنا ! .. أنا لم أر غير إهالة التراب لا مؤاخذة ! .. أم أنك تحلمين حلم يقظة !
قد نطق بالحقيقة فإنها من فرط إنفعالها بالهول الذى عانته من كثرة الشهداء والمصابين ومغالاة العدو فى صب الحمم من البر والبحر والجو على خلق الله تهذى ! وتحلم بين الوقت والآخر أحلاما جميلة تنشد فيها مع شخوص من صنع خيالها قصائد تخفف الوقر عن فؤادها وتقرب السلام البعيد .. أمل المستضعفين السعيد .. فلماذا لا يتركها تكمل حلمها مع الطفلين ويذهب ؟! ..
هى على ما ظهر منها منذ قليل لم تعد قانعة برسالة الإسعاف والإغاثة .. تروم النهوض بدور أكبر فليذهب ويتركها لحالها تبحث فى الأرض عن زوجها على الورق ! .. آه .. فربما يكون حنينها إليه يبعدها عن المهمة الأساسية التى رتبتها لها المقادير وحدها ! .. أجل

ربما هذا التنكر وذاك الجحود سببه ثورتها على وسواس يتلاعب بعواطفها المشبوبة فى لقاء زوجها الذى لم تزف إليه من وراء أهلها ! .. هدفها الهايف الذى لا يقاس برسالة الإسعاف السامية فأين هى ومن على شاكلتها من تلك الرسالة .. وتتذرع بمآسى الحرب لتهيل التراب على نفسها وفى الحقيقة هناك سبب آخر ! .. نحن فى الساعات الأخيرة من العام .. الزمن الحالى يرحل فلماذا هو لا يرحل ؟!

أدارت له ظهرها ومشت تبتعد فى الإتجاه المعاكس فجن جنونه إذ لم يكن قد وصل إلى قرار وهتف ياستنكار :

- هدى .. أين أنت ذاهبة يا فتاة ؟! .. أعدك بأن أساعدك فى البحث عن زوجك الذى بقى مجرد ورق ! ..

لم ترد عليه واصل :

- لن تجدى فرصة أفضل مما أنت فيه للبحث عنه .. فنحن نجوب تقريبا كل مدن وقرى القطاع ! .. أتتركينى وحدى أبحث عن الجرحى وأنقلهم للمستشفيات .. العمل فى الإسعاف أشرف عمل وهو من أعمال المقاومة الفاعلة التى تناسبك كفتاة !

- عندى أسرار .. عندى أسرار .. أحلم مفتوحة العينين !

- رباه قد جن جنونها من هول ما رأت رسمعت !

- عندى صور حقيقية .. وبطاقات هوية تاهت لطيارين !

- يا فتاة .. يا إبنة شقيقتنا رفح ! .. هناك أطفال جرحى حياتهم معلقة كأمانة فى عنقينا .. ينتظرون .. وكل دقيقة بثمن !

كانت تمشى « محلك سر « حتى تنتهى من اتخاذ القرار الصائب وتحزم بعد إعمال الفكر أمرها .. ترددت وتوقفت عن المشى (الواقف) لدى سماعها قوله الأخير كأنها وصلت إلى قرار بالعودة معه .. ثم بغتة وعلى غير ما توقع واصلت المشى الواقف صامتة مصبورة وقد تدلت ذراعيها على جانبيها وضمت أناملها وكأنها تغز المسير فى حلم ممسكة بأنامل طفلين من جبل الأولياء !

تظاهر بدوره أنه يجرى فى مكانه ليلحق بنلك التى لم تعره اهتماما وهو ينظر فيما وراءه مخافة أن يقع للعربة والأطفال عارض مفاجىء .. ولما بلغها واقفا سايرها فى خطوها وأمسك بيدها وجذبها للعودة فخلصت يدها منه وتملصت صارخة :

- دعنى .. دعنى .. لن أعود إليك .. سأنضم لقافلة المقاومة ! .. معك حق .. زوجى

وحبيب فلبى هناك .. سأراه .. سأشرب معه دم القتلة !
- لكنك لم تخلقى للقتل ولا تستطيعين ذبح دجاجة ! .. أنا أعلم صنفك المحب المسالم .. الإسعاف لا يقل فى ميزان الجهاد عن الدفاع والمقاومة .. بل قد يعلو عليها !
- يعلو عليها .. لكنه لا يطفىء النار اللى جواى !
- أية نار ؟ .. آه .. كلنا نعانى النار اللى جوانا وبرانا ! .. هذا زمن رجال الإطفاء والإسعاف حتى إن لم تندلع حرب ! كثرة البشر ذاتها إعلان حرب على الحياة ! .. الزحام يقلل فرص الحب والرحمة وهما مع النظام عصب الحياة ! .. ماعلينا ليس هذا موضوعنا .. أنا لا أستغنى عنك .. فى الحقيقة بعد أن فقدت حبيباتى .. أشعر بأن الله عوضنى بك .. أنت مثل إبنتى .. أنا أحبك !
قالها وهوينهنه بالبكاء كالطفل فأذاب صلابتها بل قد صارت بلا إرادة .. إنهارت تماما وتحولت عما كانت سادرة فيه من غيها إليه ورمت بنفسها على مقربة من صدره الأبوى العريض فتلقاها على ذراع واحدة ليجعل بينهما مسافة آمنة تتيح لها أن تغترف من سطح الذراع المتصل بالصدر كنوز عواطف أبوته التى توفرت لها بعدما فقد أحبائه وطفقت من فرط عطف وإشفاق وربما إحتجاج على حتمية تلك المسافة تضرب هذا الصدر بقبضتى أناملها الرقيقة وتغمغم وتكتم قهقهة كبيرة حبستها فى أعماقها :
- لست مثل إبنتك يا بتاع أريكا !
لم يشاركها دعابتها لضيق الوقت الذى يحسب على الجرحى والمصابين بالثوان وبما هو أصغر .. ولسبب آخر فقد عاد الدوى يصم الآذان .. عاد هزيم الرعد صناعة بشرية حديثة للفضاء والأرض من جديد .. غمغم :
- يبدو أنها كانت هدنة ريثما يسلك العدو أسنانه !..
ونظر فى ساعته وأضاف وهو يخطو بها على مهل نحو السيارة :
- ثلاث ساعات بالضبط ..
- على ماذا ؟
- على الهدنة الإنسانية التى أعلنها المعتدى الإنسان !.. ونفذها والآن هاهو يعاود هوايته فى ذبح الأطفال والنساء بلا رحمة .. وتريدين أن تتركينى ؟!
نظرت إليه من جانب كتفه دون أن تعلق فاستطرد يصطنع الاستبشار والتبسم :
- كل عام وأنت بخير .. العالم يحتفل بميلاد عام جديد !

تمتمت بعذاب وأسى شديدين :
- ينبغى ألا يرحل هذا العام .. أنا أرفض رحيله !
صاح بدهش متسائلا :
- كيف ؟
أجابت بهدوء وتركيز :
- أعنى بجب ألا يرحل تاركا تلك المذبحة للعام الجديد وهو بعد وليد ! .. فكل عام جديد يحمل على رأسه أزهار الأمل إلا هذا العام الذى عليه أن يكبر وهو فى المهد !
- كفاك ثرثرة !
كفاها وكفاه هو أيضا فقد سقطت قذيفة على مقربة وأثارت أطنانا من التراب وصنعت حفرة كبيرة على جانب الطريق تصلح أن تكون مقبرة جماعية لهذه الجثث المتعفنة هنا وهناك فى كل مكان ولا تجد من يدفنها فيأكلها دود الأرض والقوارض التى توحشت وتكاثرت والكلاب !
إنبطحا أرضا تفاديا لما تطاير من شظايا وأحجار مشتعلة ! وبعد أن استقر الوضع تبادلا نظرة تتساءل عما إذا كانت القذيفة قد استهدفتهم ومن أين جاءت .. من السماء أم الأرض ؟ .. قد تم الأمر فجأة وبسرعة وهرعا إلى السيارة .. هى من باب عجلة القيادة وهو من باب خدمة الجرحى .. وفى سرعة أيضا عادت السيارة تنهب قدر ما يتيح لها الطريق وبلغت بهما مستشفى « ناصر « بخان يونس عصرا وبعد أن تم إيواء الأطفال الجرحى وتولى الأطباء والممرضون تطبيبهم أعلن أبو رياض أن أمامهما فسحة للراحة بضع ساعات يقوم خلالها بمراجعة ما آل إليه حال أقارب وأصدقاء له هنا للإطمئنان عليهم .. وأنها تستطيع فى تلك الفسحة الاغتسال الكلى ! (حسب تعبيره) وتبديل ملابسها وتعويض ما فاتها ليلة البارحة من النوم .. وتناول من تحت مقعده لفافة دفع بها إليها وإبان ذلك ردد فائلا بابتسامة مهذبة :
- هاك ! .. كنت أدخرها ليوم ترابى .. أقصد ما هال عليك وأنت لا تشعرين !
وفضت أحد طرفيها بفضول ونظرت فرأت ما رسم على شفتيها بسمة حياء وقالت لنفسها :
- ما أشد حاجتى لتبديل ثيابى الداخلية هنا بعد .. آه .. قد قال شيئا عن التراب الذى هال وأنا لا أشعر!

وقلبت وجهها فى السماء بخشوع ورددت بصوت مسموع :
- أستغفر الله العظيم من كل ذنب عظيم !
لم يسمعها فقد ذهب بعد أن مال على أذن إحدى المرضات وأسر لها شيئا صحبتها بعده إلى غرفة إستراحة العاملات بالمستشفى وإبان المسير كانت ترد بدماثة ورقة على ما تلقته من تحيات وسلامات جميع من قابلتهم فى طريقها من هيئة العمل بالمستشفى وقد عراها فضول لم يصل لمرحلة الإستغراب لأنه بدا عليهم أنهم يعرفونها ! .. وحدثت نفسها بسرور أنها صارت شخصية شهيرة ! .. وأمعنت فى تحليل الأسباب إلى أبعد مدى ولم تحسب أنها قد تكون واهمة فعلا أو حالمة كعادتها فلا أحد بالمشفى فاض لها والكل يجرى لإنقاذ حياة المصابين الذين فاضوا من العنابر والغرف إلى الطرقات التى لم تعد تصلح للمسير الهادىء فما بالك والسعيد !
وقد أفاقت على واقع الحال الشديد المرارة الذى يعانيه الجميع من نقص المياه والإمدادات وكأنه كان مفاجأة لها فقد عانت الأمرين فى الحمام الملحق بغرفة الإستراحة واستغرق ما استطاعت أن تختطفه من حمامها وقتا طويلا ولم تكن بحاجة لإستعمال المياه بحرص .. (نقطة نقطة !) على حد قول الممرضة التى أرشدتها وأوصتها بالحبيبة المقلة فى الزيارة وصلة الرحم المياه خيرا !
وقد أثارت مدة مكثها غضب البعض اللائى تكالبن وتكدسن على الباب فلم تهنأ بمجرد الهدوء ويمكن أن يقال عموما أنها مسحت أو تيممت بالمياه !
وعندما خرجت قوبلت بما لا يتفق والإحترام الواجب الذى تستحقه شهرتها وخالت أنها تواجه وحدها وقفة إحتجاجية ألزمتها النجاة أن تنسل بسرعة من المكان وبوضع مرشح للكلام على أذنيها ! فلم تسمع غير المعلومة المعروفة عما تعانيه جميع مدن وقرى القطاع من نقص حاد فى الوقود الذى يشغل جميع المحطات والذى يأتيها من مستودعات العدو المحتل (وأوقف ضخه طبعا) ولا وسيلة للحصول عليه إلا تهريبا من الأنفاق السرية بين مصر وغزة التى تم تدمير معظمها وعلى ذكر الأولى سمعت ما لا يرضيها من اتهامات أخفها أنها تمد العدو بالغازالطبيعى بثمن يقل عن عشر السعر بالسوق العالمى .. ولا يدرى أحد لم .. لاسيما ولم يرد ذكر الغاز فى إتفاقية السلام المبرمة بينهما منذ ما يربو على الثلاثين عاما ؟!
ولم تجهد نفسها فى البحث عن كلمة إشادة واحدة تدعم حق الأخوة ووحدة الدم

والمعتقد والمصير فقد شمل النقص الغذاء والكساء والدواء لإغلاق جميع المعابرالتجارية مع الضفة وفلسطين المحتلة ولاقتصار الإمدادات الإغاثية على معبر رفح ومعبر كرم أبوسالم والعوجة .. التى كثيرا ماكان العدو يغلقها بقصفها بالمدافع الأرضية والطائرات .. وبالطبع قدموا لها وجبة طعام غير ساخنة من المعلبات لانطفاء مواقد المطبخ وخلو الكرار من مواد الطعام الطازجة التى لاغنى للمصابين والمرضى عنها ..

ولم تغمض عينها لحظة واحدة للصراخ والعويل والضجيج الذى لم يكن يصدر عن الجرحى وذويهم فقط .. فالكل يشكو .. الكل مصاب ويتألم .. وباتت تصيخ السمع للباب علها تسمع شيئا آخر يخرجها من هذا العذاب وتترقب أوبة أبى ياض بفارغ صبر .. وقدم الليل وجالت بذهنها صورا تعرفها جيدا عن الإحتفالات التى تملأ العالم بهجة وسعادة بالعام الميلادى الجديد والأضواء المتباينة الألوان المعلقة على الأشجار فى كل شارع وميدان ومحل ودار فيما يعرف « بالكريسماس « فى مدن آسيا ووأفريقيا (حتى الإسلامية منها) وفى استراليا وشمال وشرق أوربا وأمريكا الشمالية .. أو « الكابو دانو « فى جنوب أوربا خاصة إيطاليا واسبانيا والبرتغال ومن ثم أمريكا الجنوبية !

وعن تلك الأضواء الأخرى التى يتم نثرها فى الفضاء لخداع الأعين بما تصنعه من افتراش يشبه مظلة فريعات الشجرة .. وهى غير الشجرة الطيبة التى تعرفها هدى بالآية القرآنية الكريمة فهذه ترى بالقلب وأصلها ثابت .. وفى الواقع هى تسمى بالصواريخ التى تعلم أنه من الظلم تشبيه البعض لصواريخ القسام بها لعدم إحداثها خسائر ! وتود لو أنهم إعتذروا عنها لما ظهر بالتهريب فى هذه الحرب من صوايخ أخرى أفعل ..

- ولكن أنى هى من قنابل الدايم والفوسفور الأبيض !

حثت نفسها وأضافت :

- العالم بأسره لم يسمع عنها إلا فى تلك الحرب وهو يتعزى بدفن العام الراحل بالإحتفال الذى أعرف أنه صاخب بالعام الجديد .. ناسيا أن على الأرض بقعة بها أحياء أموات تدعى قطاع غزة بمدنه الشمالية بيت حانون وبيت لاهيا وجباليا والشرقية بتل الهوا والتفاح والزيتون .. والجنوبية بخان يونس ورفح .. والغربية بما تناثر على الأرض الزراعية الساحلية من تجمعات سكنية صغيرة ..

ولأنها كانت فى حال من التعب والنصب الجسدى والنفسى غلبها النعاس على الرغم من كل شىء ..

- ١٠-

ولم تصح إلا على صوت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر فقامت مكدودة بتثاقل ذكرها ببيتها فى رفح وأمسكت فى آلية بالثياب التى بدلتها مرجئة غسيلها لفرصة أسنح تتوافر فيها المياه وأودعتها خزانة بجانب السرير ! .. وقضت جميع حاجاتها الصباحية واضطرت للتيمم بدلا من التوضؤ لذات السبب .. وللزحام الذى ردها عن الميضة المخصصة للنساء التى تكالبت عليها نسوة كثيرات لا تدرى من أين جئن ولا أين بتن ليلتهن ولا ما حاجة هيئة الإسعاف إليهن وسألت إحداهن فعرفت أنهن لاجئات فقدن عوائلهن وبيوتهن فى الغارات ولم يعد لهن فى تلك الدنيا أحد ولا مأوى ! وأدت الصلاة جماعة بمسجد صغير ملحق بالمشفى ودعت ربها أن يزيل الغمة والكرب ويقرب الأيام حتى يسود السلام وتأوب لأهلها الذين برح بها الشوق إليهم ..

دلفت إلى البوابة الخارجية وفى عزمها أن تنتظر هذا الذى تأخر طويلا بجوارها لتقف على مجريات الأحداث بالخارج فالتقت مرة أخرى بالواقع المأساوى ووقفت تطلع إلى السماء فوقها التى أضاءتها كشافات الطائرات والفوانيس المعلقة التى لم تكن سماء القطاع فى حاجة إليها لأن الأنوار المنبعثة من الحرائق كانت أفضل لانتشارها فى كل مكان مشيعة الدفء .. ولأن العديد من المفكرين والأذكياء اقتبسوا منها ما يلزم مطبخهم أو غسالتهم والبعض المبتكر إستخدمها فى تقطير المياه غير النظيفة والناضحة من المجارى التى ضربت الشوارع وبقايا البيوت فى كل مكان فى مكثفات بلدية وأنابيق كانت تستخدم فى الأيام الخوالى فى تسخين الورد والزهور واستقبال ما يتكاثف من أبخرتها المتصاعدة داخل الأنابيب على هيئة سائل معروف بإسم « الماورد « و « المازهر « ! ..

- إن الشعوب الحية ذات الأصل والتاريخ تتصرف لتدبير أكلها وشربها .. ولن يموت من الجوع والعطش إلا الحيوانات المسكينة التى تجد لها من البشر الجوعى والعطشى من يمد يده إليها ! .. ولكنهم قلة !

قالت ذلك لأحد حراس البوابة سألته عن أبى رياض فأفادها أنه ترك رسالة شفوية لديه يعلمها بأنه لم يعثر لأقاربه ومعارفه على أثر وأنه سيوافيها بعد أن يملأ خزان وقود العربة الذى فرغ مما يجمعه « بخرطوم ماص « من خزانات السيارات التى أعطبت بالشوارع !

- إن الشعوب الحية المفكرة تستخرج الطاقة من أية مادة سكرية أو زيتية وتستخدمها فى تشغيل المحركات ! .. أتعرفين أن البعض يستخدم الزيت بدل السولار والبنزين فى إدارة محركات السيارات !

فال لها ذلك الحارس بدوره .. وقبل أن تنخرط معه فى النقاش شهقت وتنهدت إذ لمحت من خلال قوائم حديد البوابة رفيق الطريق يهطع بهمة ونشاط نحوها من بعيد .. واستغربت أن يمشى على رجليه دون السيارة وانزعجت قليلا لكنها عالجت إنزعاجها بالركض نحوه ولما أبصرها توقف لأنه سيتحتم أن يقطع المسافة التى يمشيها عائدا معها.. فهمت هى أن فى الأمر خطب فابتدرته لما ألفت نفسها أمامه بالسؤال عن السيارة فطمأنها محييا وهو يظهر لها تلطفه وإعجابه بشكلها الذى تغير وظهر على حقيقته بعد أن نالت قسطا من الإستجمام والنظافة ..

وسار بها على الفور داخلا الشارع الجانبى الموصل للسيارة التى تعطلت بسبب إحتراق أحد إطاراتها داس على جزوة من النار وهو ما تطلب معاونتها وإبان ذلك ثرثر معها عن سيرة ما نفحها به فى المرة الأخيرة من ثياب نسائية خاصة فقال أنها كانت فى الأصل هدية من مدير مخازن « الأونروا « لغوث اللاجئين لزوجته ! التى إستغنت عنها بدورها وهى جديدة ومنحتها لزوجته (هو) فقد كانت من صويحباتها وتؤدى لها بعض الخدمات فى حياكة أرديتها وفساتينها وعلى ذكرها تذكر إبنتيه ومأساته وتأوه وتهدج صوته وهو بغمغم :

- آه يا أعز الأحبة !

فواسته هدى حتى هجعت آلامه وسكن وهى تعاونه فى تغيير الإطار بإطار مثيل بحالة جيدة كان قد طار من سيارة جنحت فيما يبدو تحت نير القصف من طائرة بدون طيار تطلق الصواريخ فاعتلت رصيفا عاليا أمام أحد المبانى المنهارة وكان من نتيجة ذلك أن تهشمت جميع ممسكات إطارها فانفلت ووقع فى يدهما بيسر وبعد أن فرغا من تركيبه تطامن أبو رياض وتبادل معها حديثا طويلا كله شجون عن تاريخ العالم الحديث والحرب العالمية الثانية وهتلر والحلفاء واليهود والمحرقة وتساءل :

- ماذنب شعبنا فيما اقترفه هتلر بحق اليهود ؟ .. وكيف يكفر الأوربيون عن ذنبهم بذبحنا بإنشاء وطن لليهود فى أرضنا ؟ .. وإذا كان أحد أهداف العدوان القضاء على سلاح المقاومة وإحكام الحصار والحصول على ضمانات دولية

بعدم إعادة التسليح وتهريب الأسلحة لنا ..
فقاطعته قائلة بجزم :
- هى لا تذكر إزاء ترسانة الأسلحة الحديثة من نووية وكيماوية وحيوية وتقليدية التى يكدسها العدو بمخازنه المنتشرة فى كل أرجاء فلسطين المحتلة وفى مخازن كل القواعد الأمريكية وقواعد حلف الأطلنطى المنتشرة فى العالم وبعض الدول العربية ! .. معك والله حق فى سؤالك ! .. أين العدالة ؟!
همهم متسائلا وهو بفتح لها باب السيارة لتركب بحركة مسرحية لتكف عن هوايتها فى مقاطعته ومنافسته فى التفكير بشدة وجدية :
- ألم تسمعى عن عالم الكيل بمكيالين والمعايير المزدوجة ؟!
- كيف ؟
- سلى نفسك .. كم دفعت ليبيا تعويضا عن كل ضحية قتلت فى حادث « لو كيربى « عن جريمة لم يرتكبها أى من مواطنيها لتنتهى من الإتهام وإدراجها فى لائحة الدول الإرهابية ! .. وماذا دفع البلغار تعويضا عن حقن أطفال ليبيا وعددهم ضعف عدد ضحايا الطائرة .. بميكروب مرض « الإيدز « والذى ثبت تورط المرضات البلغاريات فيه ..
- بعد أن دفعت عشرة ملايين جنيه إسترلينى لأهل كل ضحية من ضحايا الطائرة الأمريكية التى تفجرت فوق لوكيربى باسكتلندا .. تحملت الحكومة الليبية تعويض أهالى الأطفال مواطنيها .. لتحسين علاقتها بالغرب .. أى لا دية فالمرء لا يدفع دية انفسه !
سعل من رائحة الوقود الأخضر غير تام الإحتراق وهو يدير محرك السيارة واسترسل :
- وبعد ذلك تبحثين عن العدالة .. العالم كله هب من أجل غزة والمحرقة التى لا مثيل لها منذ عام ثمانية وأربعين فهل تدفع إسرائيل تعويضات ؟ .. إن منظمات حقوق الإنسان العالمية والمحلية توثق العدوان .. لكن لا تأملى فى محاكمة قادتها فهم سيفلتون كالعادة
سألت وهى شاردة مشوشة الفكر :
- أين نحن ذاهبان ؟
أجاب فى آلية ودون أن يفكر :
- إلى حى الزيتون بحثا عن جرحى عائلة ...
قاطعته تقصد إثبات حالة ولا تقصد التعبير عن الملل قائلة :
- وائل السمونى ! .. كل يوم تصبحنا على هذا ! ..

وسكتت برهة ثم تساءلت :

- أينتظرونك لإنقاذ جرحاهم كل يوم ولا تذهب ؟! ..

- الطريق يغص بجرحى لا يمكن أن أتجاهلهم .. ثم لا فرق كل الجرحى من كل الجرحى !

- نعم كلما أمسكنا طريقهم .. أسلمنا الطريق إلى طريق آخر .. هذا غريب كأن الطرق هى التى تحكم !.. إسمع ماقولك لوحكمنا نحن مرة واحدة وذهبنا إلى مخيم الشاطىء .. فهناك عائلة « أبو عيش « التى استشهد معظم أفرادها .. أو لجباليا حيث يدور قتال ضار بين قوات العدو ورجال المقاومة وحيث قتلت الزوجة الأوكرانية وأبناء طبيب مستشفى الشفاء !

قال مازحا :

- أو قولى حيث فى زمرة المقاتلين قد تلتقين هادى .. زوجك على الورق !

لم تكترث لدعابته واعتبرتها ثقيلة الظل لا تستحق التعليق واستمرت تقول كأنه لم يقاطعها :

- أو قل حيث قتلت أربع أخوات شقيقات فى تل الهوا من أسرة « بعلوشة « .. يا محترم هناك شهداء عائلات بأكملها فى كل مكان فكيف تذكرنى بنفسى !

تساءل وهو يشعر بفداحة الخطأ الذى وقع فيه بقصد المداعبة :

- تقصدين هادى ..

وشاء أن يخفف الوطأة عن نفسه فأردف بلهجة بان بسهولة لسمعها أنها مفتعلة :

- البطل المغوار الذى لايشق له فى القتال غبار !

- حمدا لله .. فرجه قريب !

وأدمعت فأدمع معها دون صوت أو ربما بصوت لكنه ضاع فى صوت هدير المحرك الذى علا فجأة عندما تحركت السيارة .

***

- سمعت أن رئيس الوزراء التركى عاود زيارة المنطقة ..

- أوقفوه عند حاجز على مشارف « رام الله « نصف ساعة قبل أن يسمحوا له بالمرور ..

- جاءت زيارته الأولى رد فعل للعدوان .. أما الثانية فبعد زيارة وزير الخارجية المصرى

لتركيا مستنجدا بها من هجوم دول الممانعة العربية !
- تركيا على كل حال بلد إسلامى نشط وله دور فعال خاصة فى محادثات السلام بين إسرائيل وسوريا .. وإن كنت غير متفائل بأية مفاوضات فى أى إتجاه فما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة !
- والرئيس الفرنسى زار المنطقة أيضا ..
- هنك ضغط عربى لخلق رأى عام يضغط من أجل وقف النار ..
- ثوانى .. أتسمعين ؟!
- ماذا ؟
- أتسمعين هذا الضرب بالطائرات ؟ .. أترين هذا الوهج الشديد للنيران ؟ .. إنه يأتى من ناحية مدرسة للأنروا على ما أتصور ..
- يعاودون ضربها بعد أن أضطرهم مدير الأنروا للإعتذار المرة السابقة !
- دعينا نتوجه هناك ..
وتوقف عند تقاطع شوارع ليستدير بالسيارة ويدخل الشارع المفضى للمدرسة اكن توقفه طال وقتا لرؤيته سيارة إسعاف تجرى مندفعة وخلفها أطراد متعاقبة من الناس يتدافعون من شدة الهلع يبحثون عن مهرب وصاح أحدهم وهو يشير على السيارة بجزع :
- إنه مصاب فى كتفه .. نالته طلقة من قناص كلن يربض على باب إحدى الحوامات ليتصيد رجال الإسعاف حتى لا يصلون للجرحى وينقذون حياتهم !
وبدا أن بداخل السيارة مشكلة فعلا وهى تمر من جانبهم ثم أعقبتها فى التو ثلاث عربات إسعاف دفعة واحدة تسابق بعضها بعصبية واندفاع بطريقة ينجم عنها الخطر مما يشير إلى أن بداخل كل منها حالات حرجة ميئوس من إنقاذها .
واقترب الرجل منهما والسيارة متسمرة فى مكانها معبرة عن حيرتهما وحذرهما وقد فر لونه وتقطعت أنفاسه قائلا :
- إهربا ! .. المدرسة المنكوبة ضربتها الطائرات المغيرة بالصواريخ كأنها هدف عسكرى ! والشهداء أعدادهم تفوق المصابين لحدة وشدة القصف .. يضربون كالعميان ! .. إهربا .. لن تصلا لبقية الجرحى إلا جثثا هامدة .. السيارات الأربع نزحت منهم الكثير وكانت كفيلة بالجميع .. لكن القناصة القساة طاردوهم بالرصاص ولم يمكنوهم من رفع باقى

الجرحى ! .. إهربا .. ماذا تنتظران .. حتفكما .. إهربا لن تندما .. هروب الشجعان الأذكياء !

وتساءل أبو رياض عن عدد الشهداء فقال الرجل الذى كان يتحدث وكل خلية فى جسده ترتعد وتنتفض :

- أربعون .. أو أكثر قليلا !

ومالبثت الجموع التى تجرى فى يأس وتخبط أن تفرقت فى كل اتجاه بجنون لأن القصف عاد وامتد بالقرب منهم وهم يلتمسون النجاة بحياتهم التى صارت عبئا حقيقيا عليهم يدعون الله أن يخففه عنهم !

وتناهى إلى الأسماع من يقول أن ثمة عربة إسعاف تعطلت تسيل بغزارة دماء من عتبة باب قائدها مع ما يسيل من باقى ابوابها وقبل أن ينتهى القائل من قولته جزت عنقه شظية كساطور جزار أطارت رأسه من عند المذبح ! وظل الجسد قائما يختلج بعنف هنيهة ونافورة من الدم تندفع منه لأعلى قبل أن يتهاوى ويسلم الروح وعيناه تحدقان شطر القبلة بنظرة من لا يصدق ما وقع له !

وأغمض أبو رياض وهدى أعينهما لحظات فى وقفتهما الذاهلة بالسيارة ليعفياها من رؤية المزيد من الأشلاء والجثث المقطعة الأوصال والدماء التى تتصل ببعضها عند التقاطع فيما يشبه البرك ! وهما يرددان مع الجثث التى فرت بأرواحها وتلك التى لم تزل تفر برجلين أو أربع :

- حسبنا الله ونعم الوكيل ..

وأومأ لها أن تتجلد وتلتحف بالشجاعة فإنها لن تخفف من وحشية العدوان لو أنها انهارت وغابت عن الوعى أو دلفت لحلم من أحلام اليقظة على طريقتها فى الهروب بين وقت وآخر أو إثبات الوجود أو ما تدعى أنه دفاع عن النفس وعن الأطفال والأمهات والعجائز .. كيف ؟ .. لا يدرى !

وهبط من السيارة فى جسارة وولج المذبح يفند الجثث عله يظفر بجريح واحد ينقذ حياته فلم يجد .. فر الجميع فعلا ولكن من الحياة الدنيا !

وبالطبع إنهارت منازل ومبان على مقربة من عنف الضرب ، وانتشر الغبار الكثيف والدخان وغمرا المنطقة كلها على مدى الشوف من البر للجو ، كأن عاصفة هوجاء هبت هنا فاقتلعت كل شىء من منابته وخنقت الأنفاس ومنعت الرؤية مما اضطر أبو رياض

للعودة للسيارة ليكفى نفسه (مع فقدان الرؤية) ألم الخوض بحذائه دون أن يشعر فى لحم ودم الشهداء ولإدراكه أنه يستطيع أن يتنفس ويرى مع إحكام إغلاقها ولذلك فتح بابه ودخل وأغلقه بسرعة وحانت منه إلتفاتة بعد أن استوى مستريحا إلى هدى فوجدها كالغارقة فى السبات ! وفكر أن يهزها لتستيقظ ثم عدل وهو يحدث نفسه قائلا :

- لماذا تستيقظ ؟ .. إن نومها رحمة من الله .. فليرحمنى الله !

لكن قراره هذا العاقل لم يدم طويلا لأنها بدأت تؤق فى نومها حركات غريبة كأنها تصارع طيارا داخل « كابين « الطائرة قيادته ! وتقضقض أسنانها وتزعق :

- اعطنى بطاقة هويتك كطيار !

وقرر ثانية أن يوقظها ليخرجها من الكابوس الذى أخذ بخناقها ثم عاد وعدل لأن الفضول استبد به لمعرفة أطوار ما تحلم به للنهاية .. وتركها لحالها وأضاء أنوار السيارة التى تعمل عندما ينخفض مستوى الرؤية ليرى طريقه .. مع أن نور الشمس يغمر الكون لكن يبدو أنه إنكسف فى الأيام الأخيرة بالفساد الذى ظهر فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس !

مشى بحرص وحذر شديدين ليأمن الاصطدام بأى ركام تكوم أو شجرة مالت على جنبها أو أى جسم قابل للهرس بالعجلات مثل الجثث التى ترامت هنا وهناك واصبع سبابتها مرفوع لأعلى وتخشب على هذا الوضع ليستمر نطقها بالشهادتين قائما بلغة الإشارة حتى بعد الموت !

***

لاحظت هدى لحظة عودتها لعالم اليقظة أن أبا رياض يتحاشى النظر إليها ولم يكن ذلك بسبب توجيهه جل اهتمامه لعوائق الطريق وإنما لسبب آخر قالت لها بصيرتها التى زادتها المخاطر توقدا أنه بمثابة طائر يحوم حولها .. وساقها هذا الخاطر لسؤال أثار قلقها « أيكون قد كشف سرها وأن صمته علامة فهو حائر ولم يستوثق بعد مما كشفه ؟! .. لماذا لا يواجهها (عينه فى عينها) لتضبط حقيقته ؟! همست لنفسها :

- عينى بترف يا حبة عينى !

ورفة العين الواحدة نذير شؤم فما بالها باثنتين يتحاشى النظر إلى ما اغرورق فيهما من الدموع وقد إلتهبتا واستحال لونهما الذهبى إلى لون الدم المهراق فى الشوارع !
وكأنه يخفى عنها ذنبا ..
قد كانت فى حاجة لمن يستنقذ مشاعرها من الهاوية التى كانت تسير إليها فمهمتها الأخيرة مع الطيارين لم تكن سهلة وقد خانها طائرها تلك المرة فلم يمدها بالصور الكفيلة بتفجير ينابيع الرحمة فى قلوب الطيارين الآباء ولم تشعر بطيفه يتخفى فى حلمها أو يظهر كأنه عزم أن يضمر لها شيئا تعافه ! .. أو كأنه غاضب منها وبدأ يغير رأيه فيها وخذلها بسبب ثورتها على أن تكون ناشطة فى مجال إسعاف الجرحى وتقليل خسائر المجزرة بإيمانها أن اللغة الوحيدة الفعالة التى يفهمها العدو هى لغة القوة التى تزعزع وجوده وتتهدد معتقده بتميز نوعه المختار من الله بانقراض يتمثل فى عقم نسائه وتقزم أجياله بالخوف الذى لا يحيا بغيره ولذلك وجبت الحرب لتجديده وتكريس أسباب وجوده بين زمن وآخر لقد تردت وإنها على تنكير دور الإسعاف لمن النادمين !
وابو رياض هو الآخر تردى ولكن بعكس الأسباب فهو لا يؤمن إلا بمنطق الحاجة ليد حانية تربت على الكتف وتدعو للتجلد وتبشر بمكافأة الصبر على النوائب !
والسيارة بدورها تردت ! وتوغلت بهما فى مسيرها دون إسعاف وإغاثة وكانها لا تقصد وجهة معينة يوجهها إليها صاحبها الذى بدا وصاحبته أنهما على موعد مع الضياع لا يدريان أى إتجاه يسلكان ولا إلى أى هدف يقصدان وقابلتهما عربة إسعاف تندفع عكس إتجاههما وحياهما قائدها مملوحا بيده فرد أبو رياض تحيته وعمل بسيارته فى لهفة دوران للخلف ثم سار بها يقتفى أثره فقادهما ثانية على الطريق صوب مدرسة الأنروا المنكوبة ..
ورأيا على البعد وهما يقتربان سيارة إسعاف تغادر المكان وتسير فى إتجاههما وعندما تجاورت والسيارة التى أمامه توقفتا لتبادل حديث بين قائديهما ولم يكد يدنو منهما أبو رياض ليتوقف إجبارا حتى تحركت السيارة العائدة مواصلة طريقها وما لبث أن إنحرف قائد السيارة التى يستهدى بها وانقلب عائدا بدوره وإبان مرور السيارة الأولى أشار قائدها بيديه أنه لم يعد هناك ثمة جرحى .. فتسمر أبورياض بالسيارة فى مكانه حتى جاءه قائد السيارة الثانية بتأكيد للخبر متسائلا عما يوقفه ولماذا لا يرجع ؟ ..
ومضى فى طريقه دون أن يلحظ ما أحدث سؤاله والخبر عموما من أثر على نفس

وبدن زميلاه فى رسالة الإسعاف السامية اللذان نكصا على أعقابهما وتوليا عنها فعبس محياهما فى آن واحد وتبادلا نظرة كلها عذاب وألم كأنهما كانا يقضلان وجود مصابين ليعملا ! وشعرا بمدى فاحة ما ارتكباه من ذنب يصل بإهمالهما الجسيم مع تزايد حالة الجرحى بمرور الوقت دون إنتشالهم سوءا حتى مات أكثرهم فلم يبق منهم على قيد الحياة غير ما شغل بالكاد فراغ سيارة واحدة !

آه .. آه .. ولكن ماذا تفيد الآه وكافة مشاعر الندم ووخز الضمير بعد الشعور بالتردى الذى أعماهما وأنساهما أنفسهما فغرقا فى الهراء إحداهما تفشل فى أن تحلم مفتوحة العينين ! والثانى يتلمس الأنفاس الرخية ورؤية حسنة سيئة ! .. لا لن يرجى منهما خيرا بعد الآن وهما بتلك الروح المعذبة ثم ان أرواح أصحاب الحالات الحرجة من المصابين ستحكم عليهما بالخيانة العظمى وتترك لهما الدنيا كلها وتصعد لبارئها ! .. فأين يتجهان وبأى دمعة حزن وندم يتطهران ؟! .. حتى طريق حى الزيتون لم يعد ينتظر قبلات من إطارات سيارتهما وهى تمشى عليه وتصرمت منهما فرصة اللحاق بأحد من آل السمونى أحياء بعد أن صفى الموت جرحاهم .. كان هدفا أضاعاه أكثر من مرة سعيا وراء أهداف أخرى فى الطريق شغلتهما عنه .. لشد ما ارتكبا من ذنوب ! .. قد فقدا إلى غير رجعة النهار الرائع الإضاءة بشمس الله فى نفسيهما وكل شىء داخلها الآن يغرق مثل وجودهما فى الظلمة ويتوارى عنهما خجلا من فعلتهما فبأى دمعة حزن وندم يتطهران ؟!

إن ظلم العدو بلغ ذروته فى مستهل العام الوليد وانقلب نهار يومه الأول ليلا وجهات الأرض الأربع قد توارت فى ظلامه الكثيف والأمر يحتاج لرجوع زمان هذا الحكيم الذى أرسى أول لبنة فى صرح حضارتهم الذى شوهد يجوب شوارع مدينتهم التاريخية غير الفاضلة فى عزالنهار وبيده فانوس ضائع نوره ولما سألوه ماذا تعنى أجاب أبحث عن إنسان !

فهل هذا الإنسان مازال للآن مفقودا !؟ ..

بالطبع مع إناس على شاكلتهما ! .. الخراب فى كل مكان والفساد ظهر فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس .. وفيهما بإهمالهما الذى لايغتفر .. والمثل يقول بيت المهمل يخرب قبل بيت الظالم .. فبأى دمعة حزن وندم يتطهران ؟!

إن السماء تمطر بغزارة فى تلك البلاد فى هذا الوقت من العام .. ولو أنها أمطرت لاغتسل الجو وتطهر من جميع العوالق ومن كل ما رفع حالة التأهب للدرجة « جيم « فى كل

المواقع العدوة أو الصديقة أو الأهلية عسكرية كانت أو مدنية .. بل ولإمحى تماما حرف الجيم من أبجدية الجهالة لتشرق على الأرض هالة ..

فهل الشتاء القائم نائم ؟! .. نائم مع العدو فى أحضان الجهالة ؟! .. نائم يأبى أن يتولى الأعين نور ساطع والرئات أنسام ندية وكأنه هو الآخر به غضب عليهم ! ..

مع أنه فى البلاد الأصلية التى هجر منها العدو قطعانه لا ينى يتودد للسحب ويتقرب إلى الله حتى تسقط رخات المطر وتتبلور المياه من كثرتها إلى جليد نزل وينزل فى قلوب آباء هذا الجيل من الطيارين التى نزحوا منها (بجليدهم) لاستيطان تلك الأرض التى يصفونها بأرض الميعاد ! ..

فلم يا شتاء لا نرى فيك غضب يطفىء نيران طغيانهم الذى جاوز المدى ! .. هم يطيرون حيث تسطع الشمس ويسكبون لهيب الرصاص والفوسفور وكافة المواد الكيماوية لتصنع من نقع الأرض حجب لأعينهم وأنفسهم وأفئدتهم فلا يرون أين وعلى من يصبون عناقيد الغضب ! .. فلم لا تدلهم وتكفهر وتصل عتمتك ورياحك إلى بيوتهم فتضطرهم للهجوع فى المراقد لسوء مزاجك وأحوالك الجوية ؟! ..

قد يكون فى تقربك للمزن زلفى (بعد تدمير البنية التحتية للخدمات التى أنفق عليها إتحادهم الغربى الأموال الطائلة) وجه سلبى لتحول الحفر فى الأرض إلى معاجن صيادة فى الظلام السائد ليلا ونهارا لكل من يمشى على أربع لكن أكيد سيكون الطين والأوحال من عوامل تثبيت ركام وحطام المبان وتماسكها إذا ما تأخرت جهود الإعمار نتيجة ما أصاب الدول المانحة وكتائب التعمير من إحباط للهدم المستمر المتعمد لكل ما يعملون على تعميره .. وتخوفهم إذا ما تم إيقاف النار وتوقيع هدنة وجاءوا مرة أخرى من عودة حملة جديدة للنسف والتحطيم بمسمى « دوارة العفريت « هذه المرة !

والعفريت هو طاحونة هرس نتف وأشلاء اللحم البشرى والحيوانى والدماء وجرفها إلى المنحدرات أو بقايا بالوعات المجارى أو الحفر التى وزعتها عشوائيا دون نظام أذرع المدافع والقواذف فى المدرعات والطائرات والسفن التى تفتح فى كل مكان من البر والبحر أفواها لا قرار لها لإلتقاط كل من تسوقه نفسه الأمارة بالسوء فى الحرب للإعتداء أو من يسوقه فكره العالى الحر فى السلم لتقديم إغاثة أو معونة تفتح ثغرة فى جدار الحصار الفولاذى ولو فى المياه الدولية بدعوى الدفاع عن النفس فى السلم كما كان فى الحرب وإجهاض أية محاولة لعودة الغريم لشم نفسه والتسلح بأسباب الحياة التى

تعينه على المطالبة بحقه فى الحياة !
أهذا أول أيام العام الجديد ٢٠٠٩ الذى أضاءت أرضه صلوات ودعوات وتمنيات أفئدة تعلم أن الربيع يأتيها بعد الشتاء بكلمات طيبة كأشجار زرعت على وجه الأرض صناعيا بمصابيح كأعمدة البلدية على سبيل الإستبشار والتطلع لغد أفضل وأيام عام وليد أجمل !
حقا ابو رياض وهدى أين تتجهان وبأى مسجد تتوضآن وتصليان وقد ضربت كل مآذن التنبيه والصحيان وتحولت كل مسالك الشجعان منامات لمبادرات سهو الغفلان ؟!
شغل أبو رياض المذياع عله يكسر حدة اليأس والخذلان فسمعا صوت المذيع يعلن بإذاعة صوت العرب :
- مبادرة الرئيس المصرى والرئيس الفرنسى الذى زار المنطقة للمرة الثانية هو الآخر والسابق إعلانها فى مؤتمر صحفى يتم تداولها باهتمام فى الكواليس بمقر الأمم المتحدة ومجلس الأمن ..
وأضاف الصوت :
- جدير بالذكر أن المبادرة الثنائية تبدأ أولا بإيقاف النار ثم فتح المعابر لإدخال المساعدات .. وبعد ذلك تتم مفاوضات طويلة الأمد بين الجانبين الفلسطينى والإسرائيلى للإتفاق على هدنة طويلة على أساس منع إطلاق صواريخ حماس وعدم تهريب الأسلحة إليها ..
وحرك أبورياض زر تغيير المحطات سأما فسمعا مذيعا بمحطة أخرى يعلن :
- سفينة شحن أمريكية ضخمة تقف بميناء أشدود لتفريغ حمولتها من الأسلحة المحظورة عالميا لإسرائيل !
فأغلق المذياع بكمد وتأفف وفى التو أخذهما ثانية فى حبائله ذلك التواه الذى أضلهما اليوم هنا حيث مأساة الشمس المكسوفة وراء حجب غبار ودخان يعيدان للذاكرة والأذهان حاجة الحكماء الماسة لفانوس إنسان يضىء الإبتسامات الآفلة فى المشرق الوسنان !
وحيث غثاء سيل أمة عائمة فوق بحر من النفور والفرقة والخذلان ترمى فى مجاريه الفياضة بالدماء والدموع صغارها بعد أن فقدوا الآباء واستبدلتهم بأعمام وخلان !.. مقطعى الأوصال والصدور بلا رحمة تشكو لله وشائج منفصمة بحواس ميتة وألسن

وآذان ومبان غير متحدة بأبواب موصدة وجدران ! ..

ولا هنالك غربا عبر المتوسط والأطلنطى حيث جزيرة مانهاتن وبناية الأمم المتحدة حيث مازالت أصداء مأساة إخفاق مجلس أمنها فى الإستجابة لطلب اللجنة العربية التى اختيرت للسفر برئاسة رئيس السلطة الفلسطينية لتقديم مشروع بإيقاف النار لإتاحة الفرصة للتشاور بشأن مشروع أقل إدانة للعدوان وأكثر تشجيعا له ! تتجاوب مع ما يخايل الجميع من آمال فى أن يعيد المجلس النظر على ضوء المبادرة الثنائية !

- ١١ -

لما طال إنتظاره لتعلن ندمها وحزنها على ما أضاعته من فرص ثمينة لتزكية النفس والتطهر مما تصورته خطأ أن العلة فيما ران على وجه البشر من قبح وظلام وكسوف شمس هو فى الاكتفاء بالعطاء من خلال رسالة سامية مثل رسالة الإغاثة والإسعاف ! وأن الأمر مع القتلة وجزارى الإنسانية يتطلب القتال والمقاومة والبحث عن هادى ! قال لمجرد الكلام :

- سمعت من الراديو وأنت غارقة فى الفكر صدور قرار من مجلس الأمن ينص على الحاجة الماسة لإيقاف النار دون تحديد موعد متضمنا الإشارة إلى المبادرة المصرية !

وسكت مرة أخرى منتظرا تعليقها لكنها لم تنطق بكلمة كأنها مازالت تفكر بشدة فى الأمر المصيرى الذى تؤثر معه عدم الكلام فلم ينتابه اليأس وواصل :

- وجاء سكرتير عام الأمم المتحدة لزيارة المنطقة لدى سماعه رفض إسرائيل وحماس معا للقرار الذى صدر بموافقة أربعة عشر عضوا وامتناع « أمريكا « صاحبة حق « الفيتو « التقليدى المعضد لإسرائيل عن التصويت وأثناء وجوده بإسرائيل ضربت مخازن « وكالة غوث اللاجئين الأنروا « من غذائية ودوائية بأشد هذه المرة ! .. وجابت صرخة مدير الوكالة الآفاق وأدان سكرتير عام الأمم المتحدة الاعتداء المشين وهو يجلس بين قادة إسرائيل يحثهم على قبول وقف النار .. واعتذر وزير الدفاع الإسرائيلى قائلا « إنها غلطة ولن نعود إليها « .. هدى ؟ .. أتسمعيننى؟!

أجابت بهزة من رأسها وهى تنظر فيما أمامها لنار تعالت ألسنتها فى الناحية الشمالية الغربية فاسترسل ليوضح لها :

- إنها تمتد من بيت حانون إلى بيت لاهيا وتكاد تلعق جباليا ! .. إنهم يواصلون تجاهل قرار مجلس الأمن ويضربون فى كل مكان .. أتعرفين يا عزيزتى ؟ .. سمعت من الراديو كذلك أن ..

وسكت وأدار بغتة وجهة السيارة بزاوية حادة لدرجة أتها كادت أن تنقلب ليتحاشى الانجراف إلى حفرة كبيرة فاجأتهم فى الطريق الذى اتسع لحسن حظهم إتساعا كافيا ضمن لهما وللسيارة النجاة والعودة للسير الطبيعى على محور الطريق .. ومضت هنيهة إختطف فيها الإثنان الأنفاس وتنفسا الصعداء فى آن واحد وبدا على هدى بوجه أخص

شدة التنبه وهى ترمقه بنظرة كلها عرفان وإكبار كأنها تراه لأول مرة فسر فى أعماقه وتشجع قائلا :

- الحياة غالية !

- إن مصيرنا واحد !

همست بها لنفسها واكتفت أن ترد عليه بابتسامة فتشجع أكثر وأردف :

- نحن فى طريقنا لتل الهوا ..

وانتظر رأيها فتمتمت بصوت لا يكاد يسمع :

- لى أقارب بالقرب منها !

وفجأة ظهر أمامهما رضيع يحبو فى منتصف الطريق وانخلع فؤادها فالسيارة توشك أن تدهمه وهو بالكاد يرى بالعين لصغره وضآلة حجمه فأمسكت بيديه وهما تقبضان على عجلة القيادة وصاحت فى توسل :

- توقف .. توقف يرحمك الله !

أمسك العربة عن السير فى آخر لحظة وهبطت هى منها فى لهفة وسرعة كأن بها مس من جنون حتى كانت قبالة الرضيع الذى بادرها برفع رأسه باسما مركزا نظرة آسية كاسفة حزينة عليها كأنه يفهم ما يدور حوله وما يراد به ويستعطفها أن تبدأ إنقاذه بأخذه فى أحضانها وتعطيه من صدرها ما يسد رمقه ..

ثارت فى حناياها بواكير الحنان وشعرت كأن صدرها يتضخم ويحتر وبشىء يسرى فيه سريان الدم وتبادلت مع رفيق طريقها الذى كان يرقبها نظرة عدم فهم وتساؤل وكادت أن تسأله ماذا يحدث فى صدرى ؟! .. لكن لهفة الرضيع كانت أسرع فى الإجابة إذ بمجرد أن حملته كأمه بين ذراعيها بدموعها تولى عنها دس فمه بين ثنايا صدرها ولم يكن بحاجة للبحث فهو يعرف طريقه إلى ما ينشده والتقم من داخله بفمه شيئا وراح يمتص سائلا إنهمر فى فمه بصوت مسموع وفى توال من شدة الجوع دون أن يمنح نفسه هنيهة ليتنفس ! .. وأحست هى براحة غريبة تملأ كيانها كله واستشعرت بعض الخجل من عينى الرجل اللتين إستدارتا فى محجريهما دهشة ومن إقباله على خلوتهما الأمومية وهى توسعه لثما وتقبيلا وتنفض عن شعره ووجهه وثيابه ماعلق من غبار ثم غافلته وانتحت بالصغير جانبا فى كنف شجرة خلف جدار لسور بيت تهدم وكانت الوحيدة من دون موجودات المكان الذى لم يتحول إلى أطلال كأنها حافظت على نفسها قائمة

لأجلهما ! ..

كانت لا تعى ما تفكر فيه وما تنتوى أن تواصل فعله وقد تجمعت بعد يأس شديد فى صدرها وحناياها رحمات احترت لها وشعرت بالتغيرات الغريبة تسرى بشدة أكبر وأن الفيض السائل ينفخه إلى حد التورم والألم بما يخالف النواميس المعروفة فهى بعد آنسة ! .. وقالت لنفسها وهى تستسلم للألم اللذيذ سأعطيه إياه ولو جف ! .. على الأقل سيعيد إليه وجوده المجرد فى فمه ولمسه له بأنامله الشعور الذى فقده بالأمان والحب وهذا أهم سوائل الرضاع !

لم تعط نفسها وقتا للتفكير فى عواقب إنقلابها دورة كاملة من النقيض للنقيض لو أن أبا رياض تجاسر وأتى ورأى فعلتها وانقلابها من فتاة إلى أم دون مقدمات كأنه أحد أحلام يقظتها التى أجادت ألاعيبها وفنونها ! .. كان كل همها أن تشبع الرضيع حنانا وشفقة ! وأتى أبو رياض فعلا وألم بكل المنظر وغطى عينيه بكفيه وتراجع للوراء وتربع على الأرض جالسا وأسند ظهره على أحجار سور منهار وردد غير مصدق :

- آمنت بالله .. معجزة .. معجزة !

وسمع صوتها ينهنه بدموع الفرح :

- يا رحمة الله .. غيث الله ورضاه نزل !

فانتفض واقفا كأنه بيغى أن يرى ثانية بعينيه صدق ما تهذى به .. ثم أحجم وعاود الجلوس واسترخى ممددا ساقيه وتمتم بحنان غريب إحتواه :

- صحيح ما تقولين .. اللبن تدفق يا حبيبة ؟! .. أنا وأنت وهو نكون أسرة ! .. أسرة صاغها صائغ ماهر ليثبت لخلقه ما يصنعه حب الغير والإيثار من بديع ومعجزات ! .. إسمعى .. هذه ليست أول مرة تحدث ! .. بعد هزيمة سبعة وستين قرأت أن رجلا يقيم على نهر الأردن إنهمر اللبن من صدره فى فم إبنه الذى فقد أمه فى الحرب منة من الله ورحمة ونور !

كانت لاهية عنه فلم تسمع صوته يتهدج منتحبا وكانت الشجرة خلف الجدار المنهار وشعرت بشىء يتحرك خلفها ويزعجها مخرجنها من جنتها وحلمها الذى تحقق فهتفت دون أن تقصده مباشرة :

- هدوء .. !

وتزايدت عن غير قصد منه حركته فقد كان يعانى فى داخله وخارجه حتمية أن يطرح

جانبا التفكير فى الغيب فهو من علم الله وأن يقبل الأمر على علاته وأن يحذر كشفه لغيره من البشر فهو وهو لم يلج أرض البصر الحديد بعد ! والتفتت إليه بتبرم وأردفت بلهجة آمرة :

- إسمع !

وأصاخ الإثنان فى آن واحد سمعهما فامتلأ بصوت واضح ينم عن عذاب وألم شديدين لإمرأة تبث شكواها لربها وهى ترص الكلمات وتعددها وتنتقيها بعناية لتخرج جملا شعرية مسجوعة تشبه تلك التى اشتهرت بها بعض المنشدات اللائى كن يستأجرن فى الأزمنة الماضية للمشى فى الجنائز وقيادة عويل النسوة ونعى المتوفى وتعديد مناقبه ذلك الجمل ! صائغة ما يشبه مرثية حزينة .. أنشدت :

كانت جالسسة والتوت .. تتأمل الأطلال وما حوت !
تعجبت أبغزة عزة نجت .. بكل هذا الجمال ماهوت

هتف من مكانه وهو يدير رأسه إليها ويحاول جعل صوته أقرب للهمس :

- إسمها عزة !

- هس إسمع !

واستدركت صاحبة الصوت :

أجابت حوصرنا بالبيت .. جد وأمهات وأطفال وليت !
دبابات مجنزرات زأرت .. طائرات بالجو رصدت
زوارق بالبحر تربصت .. حشد لأرض ما وسعت !
ترامى لسمعنا صوت .. يزجرنا لخروج أو الموت
رفعنا أفئدة بأيد هزت .. حمامات بيضاوات سلمت
إفتقدت نجوى كأخت .. بقلبى إختفت بأمل ناديت
إرتد دونها الصدى بكيت كررت النداء الرجيع إستغثت
إخلعى النقاب وغنى غنيت وغير البرق بعينى ما رأيت
وغير الرعد ما سمعت .. نعيب البوم بشجرة وتخت !
بحق سلة التفاح توسلت .. وزيتون بأعياد عصرت
وبعبق ريحان تعطرت .. بيوتا بمساء حالم شدوت

همس من مرتعه :

- أتسمعين ؟ .. الولد بدأ يناغى .. شبع !
- قلت هس !.. إسمع أنت !
واصلت المرأة بصوت محزون :
وأنسام بتل الهوا سهرت .. تناجى ليال بجباليا صمدت
وبيت حانون بفجر صلت .. لبيت لاهيا طلبتها تمنعت !
كشفوا ذيل فستانى بمقت .. ظنونى خيال ظل لحوت !
وبساترى المهلهل قبعت .. عاجلوه بقذيفة ماحقة أخطأت
غير أم حبيبة ما أصابت .. دما الزهرة الحنون تفصدت
أنهار بجنان عدن أفضت .. أنفاس بمروج الطهر هفوت
تعلق بذيلى صغير ولدت .. ركبتان تحبوان أنامل استوت
عاد للهمس :
- تتحدث عن الرضيع .. أكيد شبع !
- ليس بعد .. هس قلت لك !
استرسلت المرأة بعين الحزن :
قذائف عمياء توالت .. بواشق إختطفت وفرت !
أرواح أحباء طارت .. وأبدان بحظيرة خرت !
أمم إسعاف صرخت .. صغير جريح وأنا بقيت
إنفلت منه الصوت الحبيس :
- تنادى على أتسمعين ؟!
- لم تكن أنت .. إسمع أنت !
إستأنفت المرأة بصوت جريح علا قليلا :
عروبتاه إسلاماه بسملت .. الثعالب خمنوا ما سميت
صيدا ثمينا ظنوا أخفيت .. وثبوا لقنص ما واريت
أصفار بأيد سفلى وزيت..عاقبة دوما كفت وسحت
حنق طفولى بعقل فلت .. رخوا وميضا هدم البيت
خاضوا بأحذية غرست .. فى بطون وأشلاء نثرت
وسحب دموع تكاثرت .. وسيول دم بمخرات هوت

وطنى لأجلك تبسمت .. لعدو بجائزة كبرى حظيت
ما فقدت صبر أيوب ببيت ولا سلاما معقودا بليت !

***

لم يحتمل أبو رياض التريث أكثر من هذا .. إنتفض من جلسته وعرج على الناحية الأخرى صوب فتحة تصدعت هى كل ما يدل على بقايا مدخل البيت الذى كان ! وإبان ذلك إختلس نظرة فاحصة سريعة لرفيقتة أجفلت منها واستدارت بوجهها لجذع الشجرة مواصلة إرضاع صغيرها الذى لا يريد أن يشبع ! .. وتأكدت لديه المعجزة .. رفيقته بنت مباركة ورحمة الله واسعة .. ماذا فى ذلك ؟! .. دلف داخلا بحذر .. رأى المرأة تلفظ أنفاسها غارقة فى دماها .. عالج أن يرفعها ليسعفها .. جادت بالشهادتين وآخر تلك الأنفاس فى تلك الآونة وهى بين ذراعيه وعيناها عليه تحملانه أمانة الرضيع (الذى عثر بأم فتية صغيرة !) بنفس راضية تبسم مستبشرة بما اكتحلت به عيناها قبل أن تقضى فأودعها مكانها ودمعة تطفر من عينه وأقفل راجعا إلى صاحبته التى مازالت توليه ظهرها فالصغير لم يشبع بعد ! أو شبع لكنه يخزن لأيام عجاف ! على حد الوصف المغيظ لأبى رياض الذى أضاف مشيرا إلى أمه الحقيقية :

- سافرت !

غمغمت بحدة دون أن تلتفت إليه بصوت خفيض :

- أعرف !

هتف متسائلا بفضول حقيقى :

- تعرفين .. هل صرت مباركة إلى هذا الحد ياصغيرتى ؟!

ناداها بصغيرته إكبارا لها وللحدث الذى كان يستحيل عليه تصديقه لو أنه لم يره بعينيه .. مر من خلفها بخطوات متسارعة وهو يرمقها بطرف عينه إستعجابا وإعجابا .. بدا على الصغير أنه شبع تماما وملأ مخازنه ! إذ أفلت هنيهة ما التقمه ثم عاد إليه ملهوفا يلتمس نوبة حنان فلم يعد يضغط بجمع فكيه وشفتيه ليريق فى جوفه السائل الرحمانى الذى سال !.. والتمعت عيناه وركزهما عليها تضحكان لها وتنعمان عليها جوائز لا تقدر بمال ، ثم بدت عليه الرغبة فى اللعب بعد أن تطامن وتوثقت عراه (بأمه الجديدة)

فأخذ يقضقض بهذين الذين لم تنبت بهما سن واحدة حتى ضحكت بإفراط ! كأنها تعلن للعالم بواكير شقاوته وهو فى تلك السن الجميلة التى بدا أكبر منها ونهضت به وهى ترجع قارورة الرضاع إلى مكمنها وتردد بينها وبين نفسها :

- لا عجب فهكذا أولاد الأرض المغتصبة ! ..

ولحقت بصاحبها الذى كان ينتظر أوبتها على أحر من الجمر لتسعفه بتفسير واحد لما حدث !

همهت وهى ترتقى العربة والصغير فى حضنها تقبض عليه بيد وتتكىء على جانب المقعد باليد الأخرى :

- لا مفر من اصطحابه .. المسكين .. صار وحيدا فى هذه الدنيا ..

قال يصطنع المرح :

- اللى جاب لك يخلى لك !

تساءلت وهى تستوى لتضعه فى حجرها :

- أتمزح ؟

إستتلى :

- لا سمح الله .. ما نحن فيه لا يحتمل الهزر !

تمتمت بحزم وجدية مفرطة :

- إذن قد وأنت ساكت !

رد عليها بفضول للهجتها الحادة غير المفهومة معه وبعين المرح المفتعل :

- على خاشمى يا مولاتى .. يا أصغر أم !

***

لم تعر دعابته اهتماما وانبرت تلاعب طفلها بعد أن تربع على عرش الأمومة يقضم أنامله الصغيرة برقة وهو يصر على دسها فى فمها كأنما يطعمها بدوره ! وإبان ذلك تهمهم فى وجهه مفاجأة إياه بكلمة « بخ ! « فيقهقه بطلاقة محببة ويعاود الكرة من جديد وهو يصدر أصوات المناغاة المعروفة لمن فى مثل سنه تحت سمع وبصر أبى رياض الذى لسبب ما إستغرب أن يتم التعارف والإندماج بينهما بتلك السرعة وفاجأها متسائلا :

- ماهى خططك بالنسبة للطفل ؟

أجابته بعين الحدة وبتساؤل واستغراب مماثل :

- خططى ؟! .. ماذا تعنى ؟ .. أفرط فيه ؟! ..

ولم يكترث للهجتها ولم يجهد نفسه فى استجلاء بواعثها وظل يجادلها حتى دغدغ عزمها وبدا عليها أنها تتردد فى قبول فكرة إيداعه إحدى دور الحضانة والإيواء فهناك العشرات من الأمهات المرضعات اللائى فقدن رضاعهن ! ولتتفرغ هى لمواصلة النهوض بأعباء رسالتها الأعم والأشمل ولابأس من أن تتردد عليه كلما سنحت الفرصة للإطمئنان وريه بالسائل الأمومى الأبيض الساحر إن استمر على سحره وإعجازه قائما مدرارا ! ..

وأنهى مقالته المؤثرة المطولة فائلا :

- نعم .. نعم .. سيجف ينبوعه كما تفجر لأنه غير طبيعى !

فأومأت برأسها فاهمة وقالت بلهجة الواثق :

- سأعمل بمقترحك إن جف .. كفاك .. أنا ..

ولم تكمل قولتها إذ استرعى بل خطف بصرها فى تلك الآونة لافتة مكتوبة على الجزء الباقى من الجدار لم تنتبه إليها قبلا لانشغالها بالطفل وأحواله .. قرأت :

- آل النجار !

وبين قوسين قرأت :

- أم الرشراش الصغرى !

لم تصدق ما طالعته بعينيها وهمست لنفسها بانفعال :

- إنها هى الإبنة الصغرى لقريتى الحبيبة لم ينقطع عنقودها إلا هنا !

وانتفضت مترجلة والرضيع بين ذراعيها تضمه بحرص إلى صدرها وهرولت إلى الجدار حتى كانت قبالته وتأكدت من الإسم الواضح الجلى المشرق (وحده دون الشمس) على ما ظل قائما من الجدار وعلى ما تساقط من الطوب والأحجار لقطعة أسمنتية تكمل اللافتة مكتوب عليها « للذكر لا للذكرى ! « .. وتفتق برج عقلها عن طيوره الحارسة المثبتة التى أوشكت أن تتشتت وتتطاير فى الخلاء نافخة الحجب التى تسد عين الشمس لتظهر وترى ما رأته وتؤكد لها أن الرضيع الذى أبعدته عن صدرها وراحت تتفرس ملامحه وتقارنها بما استقر فى ذهنها الوطيد من علائم عائلية وراثية تنتقل من جيل إلى جيل ليس إلا من ذوى قرباها !

هتفت فى لاوعى وهى تعيد ضمه إلى صدرها !
- سأحتفظ به .. سأعيش له .. لن أفرط فيه ! .. سأتعهده بالرعاية وأنشئه على الولاء والوفاء وحب مسقط رأس آبائه وأجداده ! .. سأجعله رسالتى السامية فى الحياة .. سأضع الشمس فى عينيه ! .. والجبال فى سواعده ! .. سيكون بإذن الله من عباده ذوى البأس الذين سيجوسون فى الديار ويتبروا ماعلا من العدو تتبيرا ..
ثم عادت تدقق النظر إلى تقاسيمه وأرنبة أنفه المدببة المشرعة لأعلى خاتم العائلة المميز ! وأضافت معجبة وعيناها تلتمعان بالفرح :
- نفس القسمات ! .. قد كنت على ثقة أن لى بالقرب من تل الهوا أقارب وأهل .. قد صدق هادى على ذلك فى معظم أحاديثه ! .. أنا أمه بمشيئة الله .. وليس من قبيل الأمور الخارقة التى تقبل على علاتها لأنه لا قدرة للعقل البشرى على تفسيرها أن تتفجر ينابيع الرحمة والحنان فى صدرى له ! .. نعم .. نعم .. هو حقه المشروع من أهله وإرثه ! .. وأنا لن أودعه إلا مأوى أحضانى يا أبا رياض .. أتفهم !
لم يملك إزاء سورتها وانفعالها الجارف إلا التأمين على وجهة نظرها مرجئا المناقشة العاقلة إلى وقت آخر !
ثم أنها لمحت فى عنق الصغير تميمة معلقة بسلسلة فضية رقيقة لكنها متينة وضعت نهاية مبكرة لما أزمعه وعجبت متسائلة :
- كيف لم أنتبه إليها قبل الآن ؟!
وفضتها فى توفز لترى مطبوعا بداخلها صورة له بين أمه وأبيه .. وقد (وهذا هو المهم) كتب تحتها بالحفر بدقة « موسى إسلام حنفى النجار !
ضحكت منتشية بالكشف بالكنز الكبير ورددت دون أن تعى من شدة سرورها ودهشتها !
- معجزتان فى يوم واحد ؟! .. يا للرضى .. يا للفتوح ! .. مستحيل أن يكون هذا حلما ! .. موسى ؟! .. موسى إتخذته أمه التى لم تلده ولدا .. وأنا أمه تلك فهل من معارض ؟!
كانت تنظر وهى تلقى سؤالها بحدة وتحد إلى أبى رياض كأنها تقصده فاضطر هذا أن يجفل ناظرا للأرض وأن يترجل من حيث مكث طويلا فى مكانه يرقبها عن كثب وهى تضم الرضيع إلى صدرها وتبعده كأنها طفلة صغيرة تهدهد دميتها .. والغريب أن يستسلم الصغير لها تماما فلم يتوتر أو يخاف أو يعبر عن تمرده كعادة الأطفال الرضع فى

مثل سنه .. وبرفق ودون أن يثير حفيظتها إبتدرها متسائلا :

- ماذا لديك من العطايا التى نفحنا بها الرحمن فى هذا اليوم يا بنيتى ؟!

وفعلت تلك الكلمة « بنيتى « التى نطقها لأول مرة فعل السحر فى نفسها فابتردت حرارة عواطفها الجياشة الهادرة التى لا تجد لها مستقرا نحوه ونحو الرضيع ونحو الدنيا ومآسيها ونحو ما كانت تفتقده من الطريق الذى هدمته وهدمت بنيان الحياة على جوانيه أنفس بشرية أمارة بالسوء غير أنها لا تدرى .. وطفقت ترمقه بنظرة لم يرها فى عينيها منذ مدة طويلة إلا لهذا الوليد الذى أجنها وسلب عفلها منها بما بعنيه وجوده من إنتماءات وأمال المستقبل الذى كشف عنه الله فى كتابه العزيز فهو لم يخبئه سبحانه ولم يجعله فى علوم غيبه .. وتشجع وسألها :

- متى تتصالحين مع نفسك ؟! .. مستحيل أن أصدق أنك جئت قضاء وقدرا إلى أرضنا التى يثبت لى يوميا بأدلة لا تقبل الدحض أنها أرضك .. وآخرها تلك القرية وهذا الولد !

قالت وعيناها تبرقان :

- ليس هناك أهم مما وجدته ! .. أرضى فى كل مكان أشعر فيه نبض العروبة !

صاح مغضبا على حين غرة :

- كلام .. مجرد كلام .. نحن العرب لا أشطر منا فى الكلام !

ردت غضبته كأنها تحلم أو كأنها ترى نفسها تقف على منبر مسجد تخطب :

- يل شعور يتكاثف ويترسب عليه اللحم ويتكاثر حتى يملأ الشوارع ويفيض فى الميادين التى سيتفتح فيها الورد فى عز الشتاء .. الورد الأحمر القانى الذى مكثت وكمنت جذوره طويلا فى جوف تلك الأرض .. لا من القواذف بالجو والبر والبحر كما نروع الآن .. ورد الربيع العربى الطلق المسالم .. ربيع القلوب وجلاء النفوس وذهاب الهموم الذى لا أجمل منه (ويدخره الله تعالى لخير أمة أخرجت للناس) آت لامحالة على يد هذا الولد وأضرابه ولذلك لن أدخر وسعا فى صب ضى الشمس فى عينيه نهارا وضى القمر البدر ليلا حتى يرى بقوة نهارا وليلا ويهيل فى جسده الجبال ويحرر أمه أم الرشراش العروس ذات التاج التى كانت تقف على رأس بر البحر على الطريق البرى القديم للحج لتقيم العروة الوثقى التى لا تنفصم ولو اضطر فى سبيل تثبيتها على أرضها الصلبة إلى شرب ماء البحر كله !

هتف كأنه يستجير بالله من هول ما سمع :

- رباه لم أقصد بسؤالى عن موعد تصالحك مع نفسك هذا الموعد الصعب فى علم الغيب ! .. أنت تفقدیننى عقلى بما فقدته من بهجتك وعزتك وقدرتك على الإنتصار فى أحلام اليقظة !

سألت مستثارة :

- هل عرفت ؟ .. هل علمت ؟

سألها مستثارا بدوره :

- ماذا ؟

أجابت بتباه فتاة ذات ملكات خاصة :

- لكل جواد كبوة .. وليس معنى إخفاق مهمتى الأخيرة مع الطيارين الذين هاجموا .. آه !

وكأنها تنبهت بغتة إلى حقيقة أفزعتها صاحت بعذاب مستنكفة :

- مستحيل .. مستحيل .. كيف عرفت سرى .. هل بحت به وأنا أهذى دون أن أشعر .. أنت رجل خطر !

وانتهز الفرصة ليكاشفها برأيه فيما يرى بصراحة وقد أغضبه منها غرابة أطوارها ذاك اليوم والذى قد يكون له مايبرره فى نفسها من عظم إنفعالها بمأساة الشعب الذى يباد حرقا وذبحا بتلك الحرب المجنونة التى لامبرر لها .. ولكن ما هذه التهاريف التى تنسج خيوطها عن هذا الولد الرضيع الذى لاحول له ولا قوة .. المسكين الذى فقد ذويه وتوشك من فرط كلف به وتضخيم مستقبله أن تأكله !

فال مستنكرا :

- قلت لك أن رجلا كان يعيش على نهر الأردن سبقك إلى تلك المكرمة بمشيئة الله منذ حوالى أربعة عقود وفى ظروف عدوان مشابهة ولم يخص ذاتك الحالمة بها !

إستدارت عيناها من شدة الفضول كأنها تسمع لأول مرة ما يهذى به وتساءلت :

- عم تتكلم ؟

إستطرد وكأنها لم تفاطعه :

- هذا الحدث الحدث الخارق الذى تخالينه معجزة .. ليس بمعجزة بالنسبة إليك كأنثى من الثدييات !.. ولكن المعجزة الحقيقية هى أن ينزل اللبن فى صدر رجل من شدة الرحمة التى سرت فى قلبه من الله !

تساءلت وقد فوجئت به يهاجم أصدق ما فيها وهى تبذل جهدا مضنيا كى لا يفلت منها زمامها :

- ماذا تقول .. ألم تر بعينيك ؟!

قال مكررا وهويغالب ما انتابه من سأم للإسهاب فى مناقشة هذا الموضوع وكأنه لا يستحق كل هذا الإهتمام :

- وقع ذلك فى عمان عقب نكسة سبعة وستين قبل أن أولد ! .. وكتب خبر المعجزة فى كافة الصف والدوريات العربية وربما الأجنبية لا أعرف .. فلم أقرأ ذلك بنفسى وإنما سمعته من الطفل الذى رضع من ثدى أبيه وكبر ! فقد كانت لى معرفة به كرجل من رجال الإسعاف بالأردن حضر لمعاونتنا كناشط إنسانى وشقيق !

ولا تدرى لم استراحت وهى ترقبه يدافع عن نفسه ! فبمجرد أن أعاد على مسامعها الفصة التى ملها (وعلى فكرة إظهاره الملل كان من دواعى سرورها) شعرت كأن أحدا صب على أم رأسها الملتهبة كوبا من الماء البارد فلانت أعصابها وعضلاتها المشدودة واسترخت فى وقفتها قبالته والرضيع (قانز) على صدرها فوق قلبها يدعوها لتحنو عيه بضمة وقبلة وقد فعلت بسعادة غامرة وتيقنت ان الطفل الآخر الأكبر لم يدرك سرها وإنما حام حوله وهو يترصد طيور المعجزة لا طائرات المذبحة ! وغمغمت وهى تشير إلى الطفل بطريقة تعرف أنها تثير غيظه وموجدته :

- إنه موسى إسلام حنفى النجار ! .. عاد لأمه !

- ومن أمه .. أنت ؟!

- نعم طبعا أنا .. أمه المصرية !

- مبارك .. مبارك عليك .. هيا بقى يا أمه المصرية !

وأضاف بحزم وعزم :

- قلت هيا كفانا ثرثرة .. النهار يوشك أن يولى ..

وقضيا بقية النهار فى إخلاء الجرحى من حطام « بيت لاهيا « مع ثلة كبيرة من المسعفين الآخرين حيث وزعت هدى جهدها بشق الأنفس فقد كان موسى الرضيع حساسا حساسية مفرطة لأية لحظة أو مسافة تبتعد بها عنه .. وكثيرا ما تعالى صراخه وأزعجها وأزعج كل من تواجد فى المكان المحطم حتى أن أحدهم ضج به وصاح بها متسائلا :

- مابال ولدك يا أخت هدى !

وفى التو إنهالت التساؤلات والتعليقات من الآخرين :
- إن كان جائعا أرضعيه - إن كان مبتلا أو .. غيرى له الحفاضة ! - قعود من فى مثل ظروفك فى البيت أفضل ! - للأسف كلامك هذا يدل على أنك لا تعرفها - هى ليس لها بيت – ولا هى حتى تزوجت حتى تنجب ! - إبن من هذا الولد المزعج !
وطوال فترة العمل لاحقتها المزيد من التعليقات والآراء الناقدة التى قرظتها ونفذت بالتقريع إلى أعماقها وجعلتها تفكر جديا فى حل ناجع للمشكلة مع صرخات الولد التى لم تفلح فى تهدئتها محاولاتها المتكررة لإرضاعه لأنها كانت عقب ذلك تتركه لشأن عملها فى إخلاء الجرحى مع رفيقها الذى أمطرها بنظرة واحدة ثابتة المعنى تذكرها بمقترحه الذى أشار عليها به منذ قليل لكنها أساءت فهمه وعاملته بجفاء لأجله !
ويبدو أنها تيقنت من استحالة اصطحابه معها فى جولاتها مع أبى رياض فجلست فى مكانها بالسيارة وخنعت لرغباته وكان معنى هذا أنها قررت التخلى عنه طائعة لإحدى دور الرعاية الأمر الذى أبهج أبو رياض وجعله ينهض بالعمل وحده بهمة وخفة ونشاط ولم يخف على ذكاء هدى سر هذه الفورة فاخت تؤكد له كلما اضطرته ظروف العمل للإقتراب منها أن تخليها عن الولد مؤقت ! فهى لن تلبث بعد أن تضع الحرب أوزارها أن تستعيده ليتربى فى أحضانها على الناحية الأخرى من ميناء رفح البرى ! وأكثر من ذلك أبدت له تمسكها به (وكأنها تغيظه لسبب ما) وأنها تحت أية ظروف لن تسمح لأية قوة على الأرض بالفصل بينهما فحقها فيه ثابت بعد أن فقد الأب والأم وطبعا مع عدم وجود مرشح لحضانته من آله الأقربين تنتقل تلك الحضانة تلقائيا لأى من أقاربه ولتكن هى ففيها وبه يكرر تاريخ حياة براعم شجرة عائلتها الكبيرة نفسه ! .. وما تعرضت له تلك الشجرة الوارفة بسقوط ام الرشراش جعلها تتمزق وتتشرذم إلى فروع صغيرة فى هذا الوطن الشقيق أو ذاك ! .. وهاهو فرع نما وأزهر ينقطع ! .. أجل .. أجل على بعد بضع عشرات من الأمتار من « بيت لاهيا « ولا يبقى منه غير الرضيع « موسى « الذى رتبت العناية الإلهية صدفة شبيهة فى العهد القديم كى ينجو رضيع مرشح لمنزلة عظيمة عندما يكبر عند الله بحياته من نير عدوه وتنحقق بنجاته مشيئته سبحانه ..
إن التاريخ يعيد نفسه ويهيئها الله لتكون أحد أركانه ! كما هيأ كفيل أباها وكفيل « حموها « والد هادى ، وهى لن تفصر فى حقه فهو موسى وهو من ذوى القربى واليتامى والمساكين على حد قولها لأبى رياض والسيارة تنهب الطريق الملىء بالعثرات نهبا صوب

مشفى الشفاء .. والذى شجعها محبذا فكرة كفالتها له قيما بعد (وكأنه بهذا يحيى ذكرى من فقد فيمن حل) ووعدها بأن يجعلها تراه كل يوم حتى يأتى يوم يمكنها فيه تنفيذ قرارها وهدفها النبيل ..

كان الأمر يتطلب العثور على « دار حضانة مؤقتة « أو مرضعة تأويه لديها فى أوقات غيابها لخدمة عملها التطوعى وهذا ماحدث .. فإنه لم يضع وقتا بعد أن فرغا من تسكين جرحى بيت لاهيا بمشفى الشفاء ، وقبل أن يبدآ فى مشوار ثان لإخلاء بقية المصابين هناك .. عرج بها على قريبة له بقرية فى الطريق ودفعا بالصغير المسكين إليها فتلقفته فرحة فقد جاء ليعوضها هى الأخرى عن بعض من فقدت ..

وكانت لحظة فراق الوليد قاسية عليهما فقد تشبث كل منهما بالآخر وتعالى نحيبهما معا ! ولكن هكذا الحياة لقاء وفراق للأحبة ولابد مما ليس منه بد !

- ١٢ -

تقابلت عربات الإسعاف التى آبت من كل حدب وصوب كرة أخرى على مشارف « بيت لاهيا « فقد تداولت هواتف أطقم رجالها معلومات غير مؤكدة بوقوع غارة آخرى خلال توصيلهم لمصابى الغارات السابقة للمستشفيات أدت إلى سقوط ضحايا جدد ..

كان الليل قد جن زمنيا فلم يكن هناك ثمة ظلام بسبب الأنوار المختلفة الألوان المنبعثة عن الحرائق التى تتغذى بما يشتد لها أوارها من الجثث والحجارة وأثاثات البيوت وتحيلها رمادا .. وتبدى لعينيها (وأعين الجميع) رجل مضى وقت طويل دون أن تتخيل أنها ترى رجلا يشبه والدها ! ..

أما هذا فإنه بالأصح شبح رجل أوبقايا رجل (ولهذا هو لا يشبهه !) فر بجلده من اللهيب واعتلى تبة عالية من تخوم البلدة التى تلاحق ألسنة النيران ما فوق سفوحها وتكاد أن تلعق ذراها من عنفوان وشدة تفاعل الدهون والزيوت البشرية وغير البشرية التى كان يسمع لها « طقطقة « مع المواد الفوسفورية والكيميائية التى رشتها « بشابير « الطائرات بإفراط بذريعة الإنارة وتبديد الظلمة قبل قدوم الليل والتى طاردته وأوشكت أن تطاله فى الأعالى وهو واقف فى معمعة الهول المشع يدعى أنه شهيد حى ويصرخ مستنجدا :

با أعراب يا أحرار يا شرفاء .. ماذا بعد محرقة غزة من بلاء ؟
أنا شهيد حى من تل الهواء .. أرفع رسالة من ضعفاء لكبراء
معطرة كتبت بصلاة ودعاء .. يد مباركة تبذر الحب صباح مساء
بعيدون أنتم عن رب الأرض والسماء والعلم نور وإيمان ووجاء
أين منكم حق العرب العدلاء .. وحقى ضائع بألسن وجهاء خطباء
بعين جالوت إستجار شهداء .. رفعوا غصن زيتون حطين الشهباء
شهدوا البلاء من الخضراء .. من فرجة ومض فيها فيروز صفاء
إعتصر أفئدتهم حتى البكاء .. رضع بلا رؤوس زهرات بالأثداء !

جاوبه شيخ أقل منه حظا يتحرق تحت التبة :

فوسفور ربيب أنفس شرهاء .. إمتص اللحم والعظم برشف الدماء

ومن وسط النار وثبت فتاة جسورة دفعت الشيخ بعيدا عن الألسن بيديها وصاحت :

لا نجاة لجميلة إلا ببتر وفناء .. سيقان ظباء وثابة أصبحت قعداء
فصاح الأول يسلو عن الشيخ ويؤازره :
لم يبق بالغدران قطرة ماء .. تبخرت بمراجل صدر عنقاء زرقاء
وسموم تنخر كسوس بلحاء .. معادن ثقيلة اسمها الدايم بدنيا الفناء
فقاطعه الشيخ بحرارة وهو ملقى على الأرض والفتاة تلملم ما تهدل بفعل النار من لحمه :
والله زمان يا سلاح الإباء .. شهداء غزة وأبوهم حسين بالزهراء
انطق قل أنا صاح بالولاء .. لبعث الهمة فى أمة الخير الغرباء
دعوة المظلوم منها للسماء .. رافعة من انبطح بوهاد الاستخذاء
وصلاح بيد وقلب الحكماء .. بدد غلواء قلب الأسد فى البيداء
وهمهم شبح الرجل فوق التبة رافعا ذراعيه للسماء :
أعداء اليوم هم نفس أعداء .. الأمس وهم على خط الإجتواء
فيهم محبين لعدوهم رحماء .. عرق سوس شفاء بخط الإستواء
المودة صخور والرحمة صماء .. مع إخوانهم رقباء أشداء
لا يحرك ضمائرهم عويل نساء .. وصراخ أطفال جوع وظلماء
وهتفت الفتاة :
بربك شهيد حى تل الهواء .. دون صرختنا وعاجل النداء
سل ولاتنا كبف فى الخلاء .. تبنى قصورهم لأحلام الأعداء
أيثقون فى سلام ثريد اللبناء.. ومن طال عمره بجبن العملاء
ما جدوى رباط الخيل لبلهاء .. وأسنان مشط بقصور وإلتواء
منتجعات على البحار فيحاء .. وآل غزة فى محارق حمراء
جوعى وصرعى بلا إيواء .. بأحجار مشتعلة وهشيم بناء
ورد عليها شبح الرجل فوق التبة وهو فى ذروة العذاب :
يتبرعون بما سقط من الوعاء .. ويعقدون للأشقياء مجلس آباء
كأن الأمر مجرد عطاء لغطاء .. رواد واحة الحرية الفيحاء
طحين ولا بأس بالمرة بأدواء .. كلما ذهب الشيطان وجاء !

***

كان الليل قد انتصف عندما فرغا من تسكين آخرمصاب بمشفى الشفاء وشعرا بحاجتهما (وحاجة السيارة) للراحة والإغتسال وقضاء بعض الحاجات التى لا غنى عنها لأى بشر آلة أو كالآلة من قبيل الصيانة والتزود بالوقود اللازم للشغل والبقاء على قيد الحياة .. فكرا أولا فى قسم راحة العاملين بالمشفى من أطباء وممرضين وعمال ولكن كانت إستراحة جمعية الهلال الأحمر بفرع الإسعاف أكثر جذبا لهما لأن هناك متاع هدى ولأن شخصية « أريكا « الودودة المعطاءة ملكت عليها فؤادها بحيث تنوى أن تبوح لها بذات صدرها لتخفف عن نفسها ولو بالكلام المريح أوقار تلك الحرب التى باعدت بينها وبين أهلها ولم يلح فى أفقها الدامى أية بادرة أمل فى لقاء هادى أما أبو رياض فكان كل إنجذابه قائم على ماتوليه إدارة جراج الإسعاف من رعاية بالسيارة فهى تخضع للفحص ويتم إستكمال نواقصها .. وتأمل أن يكون الوقود قد توفر ولو بكمية محددة حتى يكفى نفسه مئونة جمع سائله بالشفاط من خزانات السيارات التى أعطبت ولم تحترق بالشوارع !

وهكذا إفترقا بعد أن جاوزا بالسيارة البوابة ومشت هى إلى سلم خلفى يقود إلى إستراحة الفتيات الكائنة بالطابق الأخير قرب السطح وولجت بابها وهى تردد لنفسها :

- آه .. ما أشد حاجتى للراحة ولرؤية أريكا !

ونقرت من قبيل الحرص والحيطة على الباب نقرا خفيفا فتناهى إلى سمعها صوتا لا تعرف صاحبه يرد قائلا بصوت زاعق :

- تفضل !

ودخلت وهى مشوشة الفكر كلها أعين تبحث عن اريكا لأن الصوت الذى رد عليها فوق ما يطويه من جفاء أقلقها من إحتمال أن تكون « إريكا « قد رحلت .. فإن أمثالها من الناشطات الحقوقيات يتنقلن كالفراشات ونعطى وتنقل عطايا الآخرين إلى كل مكان ولا يستقر بهن المقام فى مكان ولكن بصرها وقع أول ما وقع لفرحتها عليها جالسة عين الجلسة على فراشها تراجع اليريد الأجنبى لسعادة المدير ..

وبمجرد أن شاهدتها هذه نفضت عنها الأوراق وهبت من فورها من السرير وصاحت وهى ترتمى فى أحضانها بفرحة طاغية :

- كنت أفكر بك بخوف وأتوهم أننى لن أراك ثانية يا حبيبتى !

وغابت فى حضنها كأنها نامت ! وعندما تنبهت لنفسها لمحت هدى بقلق الدموع وقد

ترقرقت فى مآقيها ودارتها هى باصطناع ما يتطلبه تعريفها إلى الوافدة الجديدة من مرح قائلة :

- أولجا !

وأشارت إلى الفتاة التى كانت تضطجع على السرير المجاور لسريرها مستريحة بطريقة توحى بأنها ألفت المكان وأصحابه وتبدو فى مثل سنها وأضافت :

- أظننى حدثتك من قبل عنها .. هى تعمل مراسلة لإحدى وكالات الأنباء العالمية وتزورنا كلما واعدها جون الطبيب فى منظمة بلا حدود العالمية .. تعرفينها طبعا ! .. هو متطوع لتطبيب الجرحى من رجال المقاومة فى الخطوط الخلفية ويأتى هنا كلما نقصت مواده الطبية لتعويضها ورؤية زوجته أولجا ! .. ولكنه تأخر الليلة لسبب لا تعرفه .. ولذلك تبدو منوترة مضطربة خشنة الطباع ! .. قلت لها ربما يكون قد آثر المجىء فى صحبة من يجىء من رجال المقاومة الذين يأتون غالبا فى مواعيد مفاجأة لنفس السبب .. وعلبها ألا تنتظر مجيئه فإنها ستراه وقد وقف على رأسها فى أى وقت فلم ترح نفسها ! وسلمت هدى عليها وقد إنشغل بالها بخبر تردد رجال المقاومة على المكان وسارعت لسؤالها باهتمام :

- رجال المقاومة .. هذا أمر جد مثير ! .. أتعرفين بعضهم ؟! .. قولى يا إريكا أنك تعرفين أسماء بعضهم ؟!

وحثت لهجتها اللهفى وصبرها النافد إريكا للإجابة فغمغمت وهى تفكر وتستعين بيديها على وصف أصحاب الأسماء بفخر واعتزاز :

- طبعا .. هناك مروان و.. غسان .. وفادى وهادى !

تهلل وجه هدى ببداية فرحة وهى تسمع الإسم الغالى وسألت على إسنحياء :

- صفى لى شكل هادى !

وكان الحديث قد أعجب أولجا فتداخات قائلة بتخابث :

- إذن فهو هادى يا هدى !

قالت لتكسير ما يحوط لهجتها من مكر ومرة واحدة دون مواربة :

- نعم هو .. هو .. وزوجى أيضا لكن مع وقف التنفيذ !

قهقهت أولجا من قولها متدخلة فى الحديث وتساءلت بجرأة :

- فلماذا تريدين مقابلته !

تغيظت من سؤالها الذى يتضمن ما لا يمكن السكوت عليه وقالت وهى تتجمل بالهدوء والرصانة :

- لسنا مثلكم يا حبيبتى نتقابل لسبب ! .. نحن تربطنا علاقات عائلية ووطنية وقبل ذلك وأهم أخلاقية !

وضاعت جملتها الأخيرة حالما انتهت إريكا من التفكير وأجابتها بذهن شارد كانها تصف الحبيب المجهول :

- فارس طويل ! .. عريض المنكبين .. غزير الشعر الناعم الأسود ! .. بشارب كث ! .. لا يدل شكله على أنه هادى أبدا !

صاحت أولجا متأثرة بوصفها وربما لإثارة غيرة هدى ثانية :

- الله .. ما أجمله !

وتحقق فعلا هدفها فقد بانت علائم التغيظ على محيا هدى التى شعرت بالغيرة تأكل قلبها لأول مرة فى حياتها على هادى ! .. ربما لأنه ينطلق عند خطوط التماس التى تكثر بها أعداد الأجنبيات غير المحتشمات بدعاوى إنسانية لا تعد ولا تحصى وكمراسلات لوكالات الأنباء والصحف العالمية ! .. لكنها بسرعة لملمت شعورها بثقتها فى نفسها وفيه فهو يجاهد من أجل حرية واستقلال وطنه بين إخوانه من المجاهدين الذين يشغل وقتهم كله مثله سعيهم نحو هدفهم النبيل المترفع عن الدنيا والدنايا !

همست لنفسها وهى تنظر إلى أولجا بامتعاض :

- يا ترى أين أراضيه ؟ .. قد أقابله غدا وإن غدا لناظره قريب !

وانبرت تضع نهاية لوصف فارس حيانها فى المستقبل وتستدعى من خزانة الملابس إحتياجات حمامها الذى تأمل أن تتوافر له المياه ويتم على المرام ويبدو أنها اكتشفت غياب ثيابها التى لم تجد فرصة قبلا لغسلها فرفعت رأسها وتبادلت نظرة استفهام مع رفيقتيها فى الغرفة .. لم تكترث أولجا لها ولاذت بفراشها واضطجعت على الوضع الذى رأتها عليه عندما دخلت .. أما أريكا فقد كانت من الذكاء بحيث خمنت مضمون نظرتها وسارعت تعتذر قائلة :

- آه ! .. سامحينى يا صديقة ! .. قد سمحت لنفسى بغسل ثيابك مع ثيابى ! .. فهذا يوم الغسيل ! .. وهى الآن بالمنشر فوق السطح ! .. لحظة واحدة أعتقد أنها جفت فقد مضى على ذلك أكثر من عشر ساعات !.. ثوانى وسأجلبها لك من فوق السطح !

وأرادت هى أن تثنى عزمها لإرجاء ذلك فهى فى غير حاجة إليها الآن والوقت ليل ولا داعى للتعب .. لكنها لم تمهلها وبارحت الغرفة وعاودت هدى ما كانت قد أزمعته وانشغلت بذلك عن محادثة أولجا التى بداعليها الرغبة فى محادثتها ربما لتقدم لها أسفها على ما انزلقت إليه من الحديث ولما استشعرت عدم اكتراث هدى تشاغلت بقراءة ما يبدو لعين الناظر أنه خطاب ..

وبغتة وقع مالم يكن فى الحسبان وومضت فى الخارج من خلال التوافذ أنوار مبهرة تخطف الأبصار وتلتها أصوات هدير محركات حوامة تدنو رويدا ثم مالبثت أن أصبحت فوق سطح المبنى مباشرة وارتج السطح والجدران وملأت تيارات الهواء الشديدة كل الفراغات متسللة من كافة الفتحات والنوافذ وتوهم الجميع أن المبنى القديم لن يتحمل الضغوط وسرعان ما سيتفتق وبتفجر وندت صيحات وصرخات ثم سكتت دفعة واحدة لأن الحوامة ألقت فيما يبدو على السطح ما جعل المبنى يهتز ويتمايل كالسفين فوق سطح موج هائج فى عاصفة برق ورعود وبفعل ما تكسر وتهاوى من سياج وبلاطة السطح نتيجة نفاذ القذيفة منه وصنعها فتحة واسعة فيه دخل إلى جميع الغرف دفقات منوالية من تيارات الهواء المحملة بالغبار وتوقفت يد هدى عن الحركة داخل الخزانة وتدافعت أنظارها دون أن ترى ناحية أولجا وصرخت مستغيثة :

- رباه .. أريكا .. أريكا يا أولجا !

وساد الظلام بتدفق الدخان الناجم عن حريق هائل أشتعل فى موجودات تراكمت بالسطح من قبيل النفايات لفوارغ مطهرات كيماوية وفوارغ زيوت وشحوم السيارات التى كان يتم تشوينها فوق نوطئة للتخلص منها بعمل مزاد لبيعها لصالح صندوق رعاية العاملين ! وهو مالم يتم ابدا وكان من نتيجة ذلك تكدس تلك الفوارغ البلاستيكية المختلفة الأحجام ونشوب النيران بها بنهم وكثافة ! .. وفوجئت بيدين تتلمسان طريقها إليها وتتخبطان فى المقاعد التى اعترضت سبيل صاحبتها وفى عوارض السرير فأدركت أنهما يدا أولجا وأمسكت بهما على الفور ووضعتهما بين يديها لترشدها إلى مكان وجودها فلفت أولجا ذراعيها حولها فى لهفة وهلع وصرخت :

- سنموت .. هدى .. أريكا فوق !

وتسارعت الأحداث وتناهى إلى سمعهما أصوات رجال يتصايحون بالخارج وأصوات أقدام متسارعة تدب فى الطرقات عندما تأكد للجميع أن الخطر الحوام قد زال بتوار

أنوار وأصوات الحوامة .. وهرعت هدى وفى أعقابها أولجا من الحجرة وقصدتا الصعود لأريكا فوق السطح لإنقاذها ووقفتا عاجزتين مع الواقفين أمام موقع الدرج الصاعد الذى لم يعد له وجود فقد سقط مع شخشيخة السلم فى المسقط !

وأحضر الرجال سلما نقالا بسرعة ولمحت هدى فى طليعتهم أبو رياض فشكرته فى نفسها وشعرت أن هذا الرجل بفدائيته يستحق أن يحتل منزلة رفيعة من نفسها وهو يحتلها بأعماله السالفة لكنه أضاف إليها جديدا .. ووسع الجميع لتثبيت نهايتى قائمى السلم من أعلى على حافة السطح ومن أسفل عند أول إتصال لفتحته بالممشى المفضى إليها .. وماتم ذلك على الوجه الآمن حتى بدلوا بأيديهم وأرجلهم على عوارضه العرضية القصيرة لإنقاذ إريكا أولا ثم ما يمكن إنقاذه من الموجودات الأخرى وتوفر عدد منهم على إطفاء النيران بما قل من طفايات الحريق التى حمدوا الله انها تعمل بكفاءة .. وهدى فى زاوية من المكان تضع رأسها على صدر اولجا التى كانت أطول منها وتنادى فى لاوعى على أريكا .. وتدق على صدر صاحبتها فرقا من غياب الرجال (الذى طال) وقتا فوق السطح بما أوحى لجميع الأنفس والأعين أنهم يواجهون صعوبات جمة ..

ثم مالبثوا أن ظهروا وهم يقسمون أنفسهم بين من يسلم جسد الضحية المحترق بنسبة كبيرة من أعلى وبين من يتلقف وهو جالس على الدرج مثبتا إحدى قدميه على العارضة التى تقع أسفل جلسته مستديرا بجسده نصف استدارة ووجهه لأعلى .. وعلى هذا النحو تحرك الجسد المسجى على الأيدى بحرص وخفة لحمايته كيلا يتهرأ بالضغط عليه أو إمساكه بقوة حتى بلغ المجموعة التى تربصت بأسفل عند الفتحة وتلقفوه بينهم بيسر ..

وهرعت هدى وأولجا إليها للإطمئنان عليها فلم يتحملا منظرها وهى تنتفض وتدير رأسها حيرى كبندول الساعة ذات اليمين وذات اليسار دون أن تنطق بأكثر من « أف .. فوه .. هوه ! « مما ينبىء أنها تجابه آلاما لا تطاق وتعانى صعوبة بالغة فى التنفس وصاحت أولجا فزعة وهى تشيح بوجهها غير متحملة :

- مسكينة أريكا .. دفعت حياتها ثمنا لمروءتها !

أما هدى فقد أغشى عليها !

***

انطلقت يوم ٩ يناير أربع صواريخ « كاتيوشا « من جنوب لبنان على شمال إسرائيل وهو اليوم الهام التالى للحادث المأساوى الذى وقع على سطح فرع الإسعاف والذى غابت فيه هدى عن وعيها فلم تكن تفيق إلا لتصرخ باكية وعزفت عن الطعام والشراب حتى اصطروا لتغذيتها بالمحاليل .. كان بها حزن عمقه الشعور بالذنب لإعتقادها أنها سبب ما أصاب صديقتها الحنون التى أحبتها فى وقت قياسى من أول معاملة والتى انقطعت أخبارها فلم يعلم أحد إن كانت ما زالت حية أو توفت متأثرة بحروقها كل المعلومات التى تداولت أنها بقيت على قيد الحياة فى غرفة الإنعاش بمشفى الشفاء حتى جاءت طائرة خاصة من إحدى الدول التى تنتمى إليها والتى لا تفرط فى مواطنيها حتى لو شاعت تلك المواطنة بين عدة دول ! وحملتها مع بعض المصابين ذوى الحالات الفائقة الحرج لتستكمل العلاج على أرضها ..

ثم أن إنطلاق الصواريخ كان فى اليوم السابق لصدور قرار مجلس الأمن ولعل ذلك ساهم فى الجهود الدولية لتهدئة قادة إسرائيل بغية عدم اتساع نطاق الحرب وفى صدور القرار بعد لأى ومراوغة من الدولة القطبية الراعية للدولة المعتدية التى رأت أن الوضع سيتفجر ليشمل المنطقة بأسرها ..

وعلى صعيد الجهود العربية .. عادت دولة قطر مع دول الممانعة إلى الدعوة لمؤتمر غزة الطارىء لاجتماع الملوك والرؤساء العرب فى الدوحة وكان المتفق عليه عقد قمة إقتصادية بالكويت ولذلك لم يكتمل النصاب القانونى اللازم لعقد قمة غزة بالدوحة وإلى تعقيب أميرها فى مؤتمر صحفى بدعاء « حسبنا الله ونعم الوكيل « وأضاف « كلما اكتمل النصاب القانونى لعقد القمة ..

- أمتص !

همهم أبو رياض مكررا كلمة الأمير وكان يحادث هدى التى برأت مما أصابها بسماع أخبار عن تحسن حالة إريكا الصحية فى موطنها ومع أنها لم تكن مؤكدة إلا أنها تعلقت بها لرغبتها العارمة فى أن يكون ذلك حقيقة وعملت بكل وسيلة لتتصل هاتفيا بها بيد أنها لم توفق ولم تجد بدا من العودة لمواصلة السير مع رفيق الدرب الذى استأنف قائلا :

- كانت هذه كلمته التى استعملها تحديدا .. ليشير إلى أن هناك من يلعب فى الخفاء لدفع الدول التى وافقت للانسحاب والعدوان مستمر .. مستمر أكثر عنفا ..

وسكت فران الصمت بينهما هنيهة قبل أن يسترسل :

- أتعرفين ؟.. السكرتير العام بعد تفقده لآثار الحريق الذى التهم محتويات مخازن الأنروا قام بجولة فى المنطقة المحيطة فأصابه الذهول مما رأى من التخريب والحطام وفداحة الكارثة الإنسانية التى دعته إلى التشجيع على إعلان القطاع متطقة منكوبة ..

وعلا صوته وهو يكرر بسخط وألم :

- أجل منكوبة !

آنئذ استشعرت هدى أهمية حديثه فهناك ثمة جديد وتساءلت :

- ماذا تعنى بقولك منكوبة ؟ .. ولكن قل لى بربك أولا .. من أين تستقى هذه الأخبار التى لا أعرفها مع أننا طول الوقت معا تقريبا ؟!

كانا قد أمعنا فى السير بالسيارة دون أن يعلن أبو رياض عن وجهتهما كعادته وفوجئت به يختصر الطريق مهاجما مدقا قصيرا كالشعب بين أطلال منازل إرتفعت كالجبال أسلمه مباشرة (فى المواجهة) إلى بيت سرعان ما تذكرته بكل الفرحة وعاد إلى عينيها الكابيتين بريقها الذى كان قد إنطفأ وإلى محياها الشاحب الدماء التى فرت منه خلال محنة الأيام السالفة وهتفت :

- منزل حاضنة موسى ومرضعته ! .. يا كبير القلب لا أدرى كيف أشكرك !

وأعاد لقاءها بالصغير الذى تذكرها ورمى بنفسه فى أحضانها لحظة أن فتحت لهما السيدة الباب وهى تحمله على صدرها كل ماتبقى بانتظارها فى المسارب من حب للبقاء .. وكانت لحظات رأبت الصدع الذى تعمق فى غور نفسها وأعادها ثانية بقوة على درب الكفاح مع رفيقها الشفوق الذى كان يسيرا عليه بما تسلح به من حساسية أن يدرك بكل الفرحة هو الآخر تمام عودتها .. وتذكر سؤالها الذى لم يجبه حتى تلك اللحظة بعد ان عادا للسيارة واستانفا المسير والصمت الذى يتحدث كثيرا مع النفس يلفهما فهتف مناديا بصوت خفيض :

- هدى أنظرى !

وأدار الناحية الأخرى من وجهه التى تطل على الخارج من خلال الزجاج فرأت على جانب أذنه سماعة صغيرة تتصل بمذياع فى أقصى يسار لوحة عدادات متابعة التشغيل والملاحظة وشهقت قائلة شبه مستنكرة :

- أنت إذن تتسلى وحدك !

وشرع هو فى إجابة سوالها قائلا وكأن السياق لم ينقطع :

- منكوبة يعنى على كل دول العالم أن تنشط لإنقاذ القطاع وآله .. والعمل على إيقاف العدوان بكافة الوسائل الممكنة !

- هذا ليس بجديد ويحدث فعلا دونما إعلان ..

- لست معك فى هذا فالحق يبقى قويا بدوام الحديث عنه والتذكير به والمثل يقول لا يضيع حق وراءه مطالب ..

- قد سئمت الكلام !

- ماذا ؟

- لم يعد فى وسعى التحمل أكثر من هذا .. من فضلك أوجد لى طريقة أعود بها مع موسى لأسرتى !

سألها بلهجة ذات مغزى :

- والرجال ؟!

إرتسمت فى عينيها علامة استفهام كبيرة مستنكرة فاسترسل :

- رجل المستقبل وآله وصحبه ! .. هيئة الجهاد فى سبيل الله والوطن .. أتهربين ؟!

زلزلها بقوة قوله ولم تجد لديها ما يساويه من قوة للرد عليه فطأطأت رأسها وقالت تحاوره أو تذكره :

- معى موسى سأجعل منه رجلا يثير النقع ويسد عين شمسهم الكاذبة !

تضاحك من قولها الحالم وتساءل :

- كيف يتسنى له ذلك ؟ .. هل هو سيدنا موسى ؟!

إكفهر وجهها وأدارت محياها تنظر من خلال نافذة بابها لتوارى تألمها مما سمعت فأسرع يضيف مستدركا :

- أقول مثلا .. يعنى ! .. هذا فى علم الغيب .. فقد تغلبه ظروف نشأته ويتمرد ! .. آه .. مرة أخرى أيتها الأم الحالمة أرجو ألا يساء فهمى .. فأنا أقصد التمرد على العالم الذى ظلمه لاعليك !

تفوه بذلك عامدا أن يشعرها بعدم رضاه عن هذا التحول الكبير فى وجدانها وعواطفها منذ عثورهما على الطفل وكانت هى فى موقف صعيب فعلا لا تدرى كيف ترد على اتهامه الواضح لها بالتخاذل فهى تفكر حالمة فى مصير الطفل البرىء الذى تجسمت فيه كل المآسى ماضيا وحاضرا ومستقبلا .. وتزمع أن تربيه على ثقافة الزارع المبارك

من الله ورسوله حتى يستحق منصب « الحسن خولى الجنينة « التى زرعت بها كل الأشجار المثمرة بآمالها وأحلامها تلك التى تتعذب بها الآن لأنها تفتقد وسيلة الفعل المبدع الخلاق الذى تصبح معه جميع الأحلام وطنية وعامة تتجاوز حدود حب الوطن الأصغر لتحلق فى آفاق الوطن الحبيب الأكبر ! .. أو بمعنى آخر هى تحلم بعد قيامهما بإنقاذ حياته أن تنهض بتربيته حتى يكبر ويصير رجلا قادرا على تحقيق أعظم إنتصار لأمه الحقيقية أم الرشراش ! ومن ثم لكنانة الله فى أرضه بفلسطين وأم الدنيا (القديمة الحبيسة !) والأمة العربية والإسلامية وكافة الأمم المحبة للخير والسلام!

هتف أبو رياض فى نفسه :

- لكن عليها أن تفهم أن ذلك لن يتم إلا بتعظيم جهود الإسعاف والإغاثة فى تلك المرحلة ! ..

أما هى فكانت على الجانب الآخر من عين نهر الفكر تسائل نفسها :

- ماذا عن زوج المستقبل ترى هل يوافق على أن يبدأ حياته الزوجية وهو المجاهد مع عروس تضم إلى صدرها وبين يديها وذراعيها بدل طاقة الورد طفلا ليس من صلبه ؟!

فكرت قليلا فى الإجابة ولم تجد أيسر من أن تستدرك قائلة لنفسها :

- هو إبنه بتجسيم المبادىء ونفخ الروح فيها بإذن الله !

ثم عادت تفكر وتسائل نفسها :

- ولكن هذه زاوية رؤيتى فهل ألزمه بها ؟ .. إنه يكافح بذراعه ويده وعقله فكيف أقنعه أن يكافح بعقله فحسب وهو بعد قوى وشاب .. وهل هذا حقيقة الطريق الأمثل لتحقيق الآمال والأحلام وتحويلها من شخصية إلى وطنية !؟ ..

أقلقها السؤال وهز قلبها بعنف ولم تجد بدا من طمأنة نفسها بأنه لن يمانع بل سيسعى لأن يكتب له شهادة ميلاد جديدة بإسمها واسمه ! .. ولم لا .. أليس من آل النجار ومن أم الرشراش ؟! .. أليس يتيما ويستحق الرحمة والمأوى ؟! .. إنه يعرف حديث الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه وكافل اليتيم سيتجاوران كالإصبعين فى الجنة !

ولتطمئن من ناحيته !

همست لنفسها وهى ترمق رفيقها بطرف عينها :

- الصعوبة الآن فى أبى رياض .. رباه .. كأنه يغار من الطفل ! .. غيرة الأب عندما تنشغل القرينة بأول مولود عن أبيه .. أمعقول هذا ؟ .. ولم لا قد مضى على رفقتهما مدة كافية

لاتحاد الأرواح وازدواج النفوس ! .. من ذا يفترض لها العكس وقد فقد أعز الأحبة ؟!.. إنه تائه أو كان كالتائه وعثر على طريقه معها ! .. رباه لم أفكر بصغر نفس هكذا ؟! .. هذا لن يكون فهو يكبرنى كثيرا وأنا فى حكم المتزوجة ! .. ولأنه رجل عاقل يعرف حدوده ولا تساوره العواطف الدنيا وإلا ما صحبنى دون أن أطلب إليه لرؤية الطفل !

إختلست له نظرة تأمل ثانية فلاحظها وعجمها على الرغم من أنها كانت خاطفة ولم يمكنها من الإفلات منه وأنشا يقول كأنه لا يعى أو افتقد كل الوسائل لإقناعها بعدم الرحيل :

- أنا أعرف أننى لا أليق بك .. ومن غير المناسب أن أفكر فيك ولكن ماذا اعمل عندى أمل ؟..

سألته لتقطع عليه الطريق وبتركيز :

- ككل الرجال ؟!

أجابها مختصرا هذا الطريق بدوره مستعينا بمنطقها فى التساؤل :

- ولم لا ألست رجلا ؟!

وكانما أدرك فداحة الخطأ الذى وقع فيه بتلك المكاشفة الصريحة الضارة ! فهى من الآن ستخشاه كرجل وتضع بينهما الحواجز .. أو تهرب منه باحثة بنفسها عن ذلك المنفذ الذى يعيدها وغريمه الصغير فى أمان الله إلى أهلها وبيتها .. واستدرك نفسه بسرعة وأضاف :

- أوه .. معذرة .. لا أقصد .. ذلك لأننا نقضى معظم الوقت معا .. وتتساند سواعدنا للقيام بعمل باهر شهد لنا به الجميع و ..

وسكت عن الكلام المباح وشعرت هى بسيول من الشفقة تنهمر من فؤادها فهو رجل يعيش مأساة كبرى وليس لأحد أن يؤاخذه إن سها أو أخطأ التعبير عن عواطفه فهو يخشى فراقها لا لأنه مرض بحب الشباب الذى تجاوزه ولكن لأنها تمثل عوضه عما فقد من أحبائه ومعينته على تحمل الشدائد فماذا فى أن يجد فى قربها منه مايعوضه ؟ .. ولم يتمالك نفسه تحت وطأة شعوره وألفته يوقف السيارة فى جانب الطريق ويضع جبينه على المقود ويجهش بنحيب مكتوم إكتظ فى قلبه ولم يجد ثغرة يتحرر بها من محبسه إلا بالهذيان المحزن قائلا كأنه يجرعها المر أو يسكب فى فؤادها رصاص العدو بلسانه :

- قد طالما حلمت أن يتبدد الحبر الذى كتب به كتابك على الورق ! .. وأكتب عليك أنا

ونسجل موسى بإسمى وإسمك فقد وجدناه معا فلماذا تنفردين أنت به ؟!
هتفت كانها تدفع عن نفسها خطرا داهمها :
- أبو رياض .. أين هو رياض ؟!
- راقد هو فى سلام فى مقبرته !
- ماذا أكان لك إبن بهذا الإسم مات أيضا ؟!
- نعم فى غارة جوية حيث كان يلعب فى الحارة !
- ياللرجل المسكين التعس ! .. متى كان ذلك ؟
- منذ عامين .. مسلسل العدوان مستمر منذ عام ٤٨ ياحبيبتى !
- حبيبتك .. آه .. أعرف حقيقة شعورك فمأساتك صنعت منك كتلة من اللحم المحب ! أنت قوة هادرة لحب الحياة والأحياء وإن كانوا حيوانات إ والأموات وإن كانوا جمادات ! .. ماهذا يا رجل ستموت من الحب ! .. ألا يقولون ومن الحب ما قتل ! .. إسمع لست غبية لأسىء الفهم ! .. من حقك .. طيب يا أبا رياض ! .. عبر ماشئت عما يخطر فى عقلك ويجيش به صدرك ! .. أنت بالقطع تعانى من قرحك الشخصى ما يضاعف معاناتك بالقرح العام .. أنا كذلك أعانى شعورك ! .. فقد حكم العدو على عائلتى بالإنقراض وأفكر بصاحبى الذى عقد قرانه على وذهب !.. لا أدرى إن كان حيا أو ميتا .. ودائما يخامرنى هذا الهاجس ويقض مضجعى ولا أقوى على درئه لأن الهواجس أحلام مزعجة وأنا للأحلام مدمنة ! ..
- كان الله فى عونك !
- وعونك .. لكنى لم أصارحك به أخى أبا رياض مراعاة للحياء وكافة الإعتبارات الأخرى التى نحياها .. أقصد الحال العام الذى لا يأمل بذل الطاقة فى الإهتمامات الشخصية ..
- وهو الاعتبار الأكثر ضغطا !
- بالضبط ! ضغطا وإلحاحا فى توجهاتى مثل كل الناس ! .. وفكرت أن أصارحك بما يجول فى نفسى من مخاوف والأمور تتعقد بيننا دون أن أملك للمخاوف دفعا فهى جزء من عالم لا يرحم ! .. حاولت أن أتجاوز نفسى وأعلو متسلقة فروع الشجرة الطيبة فردنى أصلى للأرض التى كانت تغلى وتحرمنى فرصة الراحة بالتزكية والسمو فوق كل ما يورث الوهن بحب الحياة .. ذلك الذى تبوح به الآن وتحاول إسقاطى وأنا أحاول صعود أًصل الشجرة الثابت ! ياأخى كن رفيقا حقا ولا تنجرف فى لحظة تهور بالخروج عن المألوف

كاشفا لى تماما عن اللامفهوم من سريرتك ! تنكس رأسك على صدرك ندما كالتلميذ الخائب ! الذى رسب فى مادتى الأحياء والطبيعة ! .. أنا لا يكفينى للشعور بالأمان الذى كنت أرفل فيه معك منذ دقائق الإلتحاف بصمت الخزى والدموع التى تحبسها !

هز رأسه وهو يحدجها بنظرات اليأس وعبرات الأسى .. ولم ينطق وحرك السيارة لتمضى فى طريقها وهو يهمهم لنفسه :

- قد كان يظن أنها لا تطيق بعدها عنه ! .. آه .. لا يعرف كيف يعاقب نفسه لأنه كرر كالمخبول مصارحتها بخبيئة صدره ! .. آه .. كم هو غبى أحمق ! .. معها حق لن تعود تستأمنه على نفسها ! .. والأمر من البداية خطأ فمن المستحيل أن تقوم صداقة بريئة بين رجل وامرأة ولو فى ظروف حرب قاهرة ترفع لواء الضرورات تبيح المحظورات ! .. يا هيئة الإسعاف الطاهرة ! .. ياجمعية الهلال الأحمر ! .. يا هدى النقية الطاهرة ! .. يا أذرع المساجد المرفوعة بذكر الله .. فضلا إقبلوا جميعا توصيل ندمه وتوبته إلى الله !

ركز بصره على الطريق ينظر إلى بعيد كما تقضى تعاليم المرور والقيادة الماهرة ! وحاذر أن يحادثها أكثر وهو بهذا الضعف فى نفسه أو يلقى نظرة عليها فترصد تلك الدمعة الخائنة التى طفرت على غير إرادته !

قد كانت نفسه تعاف أن يظهر لها الضعف والدموع الخئون لأنه أولا وقبل كل شىء رجل محترم .. ولأنه يضمر لها من الحب أعذبه وأطهره .. ماذا أرغمه على البوح بما يناقض عشقه لروحها ؟

فكر مليا فى السؤال وهو يفند خياله الخصب كى يعثر على ذريعة أو مبرر يمحو للأبد سقطته ويعيد إلى عشها طائر الأمان محققا لها رجاءها فى حتمية تعاملهما كأب وإبنة أو كأخ وأخت لتأمين سلامة وطهارة الصلة التى ربطته بها وإفهام الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس أنه لامكان له بينهما .. فهما كثير بما يصاحبهما من معروف الأرض الطيبة التى ثبت فى أعماقها أصل الشجرة الطيبة التى تجذبهما لمعاونة أحدهما الآخر على تسلقها وصولا إلى فرعها العال فى السماء .. فهل يقدر .. يقدر على الإنتصار على نفسه .. كما كان وكما يجب أن يكون ..

أوقف السيارة ثانية وصرخ صرخة أقرب للبكاء قائلا :

- لا أقدر .. أنا إنسان وعندى قلب !

وزفر من صدره زفرة حرى بدا أنه سيجود من شدتها بآخر أنفاسه واعتمد بجانب ذقنه

الأيمن على المقود ووجهه للخارج ليدارى آلامه واستطرد لنفسه بصوت مخنوق كأنه سعلة للدموع التى وجدت طريقا خلفيا للإنزلاق للحلق :

- آه ياحبيبتى ! .. لست ملاكا لأحب فيك نفسك العليا وحسب ! .. قد خلقنى الله سبحانه من سلالة من طين وحمأ مسنون ! .. فقدت أحب الناس إلى .. آه يا حبيباتى .. لا أستطيع العيش بدونكن ومن توهمت أنها عوضا أرسلها الله لتخفف عنى بعض الحزن تتخلى عنى ! .. تدعى أن الإسعاف مرحلة وتعدى وأن الله خلقها لرسالات أخرى تؤديها فى الحياة .. وهذا االرضيع موسى .. ليس بمقدورى أن أكرهه ! .. أنا إنسان ولى قلب لا يقوى على حياة الكره التى يفرضها علي وعلى بنى جلدتى إنسان قد قلبه من حجر واتخذ منا أعداء نيابة عن البشر .. !

وطلب إليها النزول والابتعاد عنه بأسرع ما تستطيع مدعيا بأن خطأه كله سببه أنه لا يريد وداعا !

- ١٣ -

ترجلت من السيارة بذهول وألم وهى تقتطف منه نظرات عاتبة واجفة وتردد لنفسها :
- ماذا حدث له ؟ .. لماذا يصدر الكراهية إلي ؟ .. ما رأيته بتلك القسوة أبدا .. ويحى ماذا جنيت ؟!
على حين ردد هو بعين اللهجة لكن بصوت مسموع :
- الآن .. الآن فقط .. أكاد أجزم .. بأننى أكاد أشعر .. بمدى فداحة خسارتى فى الأهل والوطن !
قالها واندفع بالسيارة موقنا أنها وقد تركها وحيدة فى عرض طريق خال ليدفع عن نفسه أى سبب للضعف أو التردد ستسىء كعادة البشر قراءة ما وراء عواطفه وأقواله التى أظهرها من نبل وعلو نفس فهو لم يأنف الاعتراف بأن محبته لها أيا كان مستواها تكاد أن ترتفع لمستويات عليا من نفسه وتكاد أن تعدل الأهل والوطن ..
- تكاد ولله الحمد أنها تكاد ! فهذا يخفف قليلا آخر خطأ وقع فيه وهو يغادرنى معبرا عن وعيه التام بصعيب الكلام الذى لا ينمحى من ذاكرة الإنسان ويظل دون أن يشعر يطارده بالغم والهم طوال حياته وهو لا بفهمه ولا يفهم نفسه ويقول للمقربين منه « لا أدرى له سببا اللهم إلا إذا أقنعت نفسى بأن هذه طبيعة الإنسان وهذه محركات الحياة ! « ..
حدثت نفسها بهذا وهى تبحث عن مبرر واحد يقنعها بسبب آخر يضاف لأسباب اندفاعه !
- ولكنها أنانية منه أن يحفر فى ذاكرتى كلمات أبدية يقظى دوما لا تنام ولا تحلم !
وتابعته بخوف لأن إندفاعه تلوى بغتة بعد عدة أمتار كما لو أنه أصابه عمى مفاجىء وهو يقود السياره التى راحت تتأرجح هى الأخرى كالسكرى وفى ذات الوقت تنطلق كالثور الهائج وتكاد أن تصطدم بحواف الصخور التى سنت من القصف وجذوع الأشجار الملقاة على الأرض كالجثث من الظلم ..
والحفر .. يا للحفر ما أقساها وهى تبدو كأنها تثأر لأمها الأرض من العجلات ! .. إرتعدت فرائصها وإنخلع فؤادها فرقا مما تراه من خطر محدق بتوأم الروح الشارد ! ونادت عليه قائلة بأعلى صوت :

- حاسب يا أبا رياض ! .. يا غالى لا تفرط فى حياتك ! .. حياتك غالية وليس صحيحا ما ظننته !

وأضافت كأنه يسمعها بعد أن ابتعد وأوشك أن يغيب :

- أنا والله أحبك ولو كان لى أخ ما أحببته أكثر منك ! .. فقط أنا إنسانة ملتزمة بالسير على ضلع الإلتزام من مثلث الحرية .. وكما تعلم الضلع الأول للإختيار والضلع الثالث لقبول الآخر ! .. أنا أقبلك كآخ وآخر ! .. أنا بنت المرأة الحديثة المؤمنة التى ترفض هذا اللون من الحب الذى يكثر أيام الحرب والنابع من الشفقة على النفس والخشية من فناء النوع ! .. فهكذا غريزة وطبيعة حب البقاء التى لا حيلة لنا فيها ولا غبار عليها ! .. ألا ترى الفئران التى كثرت ! ما دفعها للتكاثر بجنون إلا الخوف من الموت ! .. ولكننا لسنا من هذا الصنف من الأحياء .. نحن بشر ! .. نحن متطوعون نحب الحياة فى الجانب المضىء من القمر ! .. يومنا يبدأ مع مغيب الشمس ! .. ونعلم الفرق بين نهار المعاش وليل اللباس ! .. ونبدأ بالليل حتى لا يكون كله لباسا .. يكفينا نصفه أوننقصه قليلا للقيام والعبادة فالله ماخلق الجن والإنس إلا للعبادة وإعمار الأرض وتزكية النفس .. فأين نحن كإناس وبشر من هذا كله .. لا فرق بين النهار والليل عندنا وندمر بيئة الحياة التى أقامها الله ونخضع لرغباتنا الدنيا والنفس الأمارة ! والأيام عندنا والسنون تنقسم كما تنقسم الأديان ليهودية وقبطية وهجرية وشمسية وقمرية وفيروزية وبوذية .. مع أن دين الله واحد وواحد هو الإيمان بيوم يجمع الله فيه الشمس والقمر .. فلماذا نتعجل جمعه بإقامة « بروفة « له بالحروب المدمرة وما يتهددنا بما بسمى حرب النجوم ! ..

وسكتت برهة تلهث من فرط إنفعالها ثم أردفت بعد أن انتظمت إلى حد ما حركة الشهيق والزفير فى تنفسها متسائلة باستهجان :

- تتجاوزون المدى وتقيمون بالمحظور من الأسلحة ما يشبه القيامة يا بشر ؟!

كانت تكلم نفسها وتتخيل أن البشر تجمعوا أمامها عن بكرة أبيهم لسماع خطبتها وبدت وهى وحيدة وسط الطبيعة القتيلة المخيفة وكأنها تصارع العديد من الإنفعالات المتعارضة وتسبح فى ظلمات وأنواء .. فهاهى أفقدت نفسها بقلة حيلتها وحدة طبعها أخا عزيزا لم تنجبه أمها .. إنسان أنقذ حياتها ووفر لها الأمن والحماية والعمل المجيد فلماذا لفظت كل هذا ؟ .. لماذا سمحت لنفسها بالتقوى على حسابه ! .. وضعف وانهيار

الوضع العام يتطلب من الجميع التماسك والصمود ؟
هل حقيقة أنها تطمح لبذل أكبر وعطاء أوفر ؟
وماذا يفوق العمل فى إسعاف الجرحى وإغاثة الأبرياء ؟!
الجهاد من موقع المقاومة والقتال .. ومن أدراها أن تنجح فى مواجهة مختلف صنوف القوة التى تصل أحيانا إلى حد التوحش ؟ .. وأنى لمثلها مثقال ذرة من قسوة ؟! .. القتال ليس لعبة من ألعاب الفتية على " الحاسوب ! « ولا هو يناسب فى عمومه وإجماله طبيعة المرأة وما تراه فى حلقات « المرأة الحديدية أو الخارقة .. الفائقة القوة والقدرات الخاصة الأجنبية « ليس إلا من ضروب الخيال الذى يضحك به رجال العالم الأول على عقول نساء العالم النامى من أجل العولمة التى أيسر سبلها تحفيز الجهود للدعوة للمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة مع اختلاف ما بينهما من طبائع وبواعث قد تكون المفاضلة بينهما ضارة بهدف الإساءة لدين الله الواحد حتى لوكانت كفة ميزان الحقوق بتعاليمه مائلة إجمالا فى صالح المرأة !
هى تظن أن القتال يناسبها هى بالذات لأنها فيما يبدو إغترت ثقة بمهارات الدفاع عن النفس التى أودت بمحض الصدفة بحياة جنديين أخرقين ! .. قد كانت فى موضع الحياة أو الموت .. أما هى الآن ففى موقع الخيار بين عصفورين أحدهما كان بيدها والآخر على الشجر !
قد ربطت حياتها على جناح صقر دائم الطيران فى الآفاق البعيدة وأمثل جو يحب التحليق فيها حيث غيوم الجوارح وسحب العقبان دون أن يفكر لحظة واحدة فى أن حياته الغالية معلقة لشظية طائشة أو وصاصة غادرة وهو يباشر دوره فى الأتون والمعمعة ! ؟ .. ثم لماذا لم يحضر فى اليوم التالى كما قالت أريكا قبل أن تسقط فى تلك الليلة الليلاء من ليالى عدوان الرصاص المسكوب فى القلوب فى الشتاء ! .. قد كنت طريحة فراش اللاوعى غائبة ولابد أنه حضر ووقع بصره على وانصرف مفضلا رفقة إخوانه عنى ! .. أه .. لا أدرى ما أصابنى فها أنا أظلمه وأتهمه بما ليس من طبعه أو شيمته هو الآخر .. ألا يحتمل أنه لم يجىء أصلا ؟ .. أليس محتملا أن يكون إسمه قد تشابه مع هاد آخر ؟ .. أم أنه الوحيد فى الكون الذى يحمل إسم هادى ! ..
- رباه حقا ماذا حدث لى .. قد كان أبو رياض فى منزلة الأخ الكبير والحبيب لكنى أخسرت نفسى بغباء حبه الذى اختلطت فيه الأخوة بالرجولة وقد كان بمكنتى التفريق

بينهما ببساطة واضعة الحدود فتلون بألوان أخرى !.. نعم نعم إستنزفت دون رحمة مشاعره النابعة من حزنه العميق على خسارته لإبتيه وزوجته ووطنه فاضطر إلى اعتراف فى غير محله يناقض كرامته لأنه لا يملك بعد نزف آخر نقطة مضيئة فى دمه غيرى هو الذى لا يقدر (كإنسان حقيقى) على الحياة بدونى ! .. وهذا يفسر قولته الأخيرة المحزنة جدا عن لحظة الفراق !

حدثت نفسها معنفة فى ندم شديد وكانت قد نست أمر العربة المترنحة التى غابت عن ناظريها منذ وقت (لكنها لم تشعر متى) خلف تلال وأكوام تراب لفظتها بطن أرض بقرت وتناثر فوقها وحولها جثث حيوانات وأشجار جزت من الأعناق أو قطعت من الجذوع أو اجتثت من الجذور !

- ماهذا ؟ .. ماذا أسمع ؟ .. أحقيقة ما أسمع .. دوى إنفجار كبير حيث توارت السيارة ! .. رباه ماذا أرى ؟ .. يرتفع فى أجواز الفضاء هنالك عمود من الغبار والدخان شديد البياض والتلؤلؤ ! .. وصفوف من الأشجار تهاوت من هنا إلى هنالك فلم يبق غير شجرة واحدة على قيد خطوات منى كأنها تحرسنى وتنتظر أن ألوذ بها ! .. رباه لماذا بقت سليمة وحدها من دون سائر الشجر ! .. أوراقها تسقط كأكف البشر عنوة من الأفرع أو الأذرع .. أو ربما كقطرات الدموع التى تنتثر غصبا من الأعين !

رباه .. إنها تنتهج نهجا آخر .. تنحنى إنحناءة بزاوية قائمة كالركوع .. آه .. آه .. أقعت ساجدة فى صلاة عابدة للإستسقاء .. ونزول رحمات الله من المزن .. ونزول جند من علومه السماوية التى لايكشف حجبها إلا المخلوقات العجماء التى تشبهها لأن المخلوق المكرم لايفهم لغتها ومع ذلك يتباهى بأته الأذكى والأعقل ! وهو كذلك غير أن عدم فهمه لنفسه يحول بينه وبين فهم لغات الرؤية الحديد بحمد خالقه والرضى بنعمائه ! وجال بذهنها خاطر رهيب لم تتحمله .. صرخت وأقعت على ركبتيها كما الشجرة متبتلة إلى الله ألا يكون مافكرت به

حقيقة .. ثم هبت وراحت تعدو فى جنون تجاه منطقة ومركز الانفجار .. لمحت على البعد رهط دبابات عدوة يأتى من

عين الاتجاه نحوها وينذرها بأن يفرمها أو ينطلق عنه ما يرديها شهيدة ومع أن عقلها كان فى رأسها تعرف به خلاصها ! فإنه يبدو أن العقل (الذى فى الرأس) عند الخطر ليس هو الذى يفكر ! .. وسارعت بعقل غريزة حب البقاء للتخفى بإحدى الحفر العميقة ..

إرتفع ضجيج وهجيج الجنازير وشعرت أن جوانب الحفرت تزم وتزم كبئر زمزم وأنها تحوطها بالرحمة وتكاد أن تغطيها مع ما تهيله الجنازير الثقيلة من التراب يمينا ويسارا .. رفعت إصبع السبابة تلقائيا ونطقت بالشهادتين مستجيرة بملكاتها التى كانت من أخص صفاتها بالقدرة على الحلم وهى يقظى لتنجو مما يرهبها متخيلة مثلا أن التراب الذى يهيل حرير أغطية فراش وثير ! .. ولكن هيهات قد كان ذلك ناجحا فى زمن جو الأمل الصافى وأيامه الخوالى التى لم تعتكر صفحتها بالغيوم والسحب التى تمطر طينا ومياه نارية حارقة ! فى أول أيام الحرب عندما كانت قوية النفس قادرة على التحكم فى اختياراتها وطياريها ! .. أما الآن فقد أضعفها وضعضع عزم وارادة الحلم هول ماتراه وتحسه من فظائع الحرب من طرف واحد وأفقدها كذلك وهاد حب الحياة ومطالع الطموح وعليها أن تعترف بذلك .. وبغتة سمعت أو تخيلت أنها تسمع أصوات غناء لرجال ونساء وعزف موسيقى ناعمة تتناوب مع أصوات ملائكية كأنها لطيور من الجنة خضراء أتت تعضدها وتقوى عزمها على الصمود مفتعلة مع القوم فرحا غطى على سائر الأصوات وعلى ما يثيره خبط الحديد ببعضه من نشاز وصخب .. أصاخت السمع مسرورة لأنها توهمت أنها تحلم وأنها إستعادت تلك المقدرة التى تريحها ولا بنافسها فى التمكن منها أحد .. سمعت بوضوح :

أصوات رجال : غزة الجميلة قادمة بيضاء عروس رافعة رأسها بإباء !
تتأبط عريس بدر ليلة قمراء بغرب النهر وضفة الأولياء

أصوات الطير : المرحمة .. المرحمة !

أصوات نساء : عروسان يزفهما بحب وإخاء القاهرة دمشق عمان وصنعاء
كتب كتابهما أرحم الرحماء ببيته الأقصى بالقدس السمحاء

أصوات الطير : المرحمة .. المرحمة !

أصوات رجال : مرت أنسام بيروت وكربلاء نقية تنبذ بعيدا فتنة وإغراء
إلتفت سالومى بثعابين ورقاء ناعمة تتواثب بمزالق ظباء
تنقلب فى لحظة عنقاء زرقاء بمستوطنين مصاصى دماء

أصوات الطير : المرحمة .. المرحمة !

أصوات نساء : ما لنا ومال الغربان الشرهاء خلونا فى فرح كويت السعداء
والأقصى يؤذن بأذرع لسماء وأجراس بيت لحم تدق بسخاء

أصوات الطير : المرحمة .. المرحمة !

أصوات رجال : فنزويلا تلميذ ناصر الشرفاء وبوليفيا تحذو حذوها بصفاء
قدم المهنئون ملايين سفراء لتقديم النياشين والوشم بالحناء
خمسون شعبا أعلام وعلماء يتقدمون الزفة بحب وولاء
بينهم جزائر بدوحة فيحاء منامة بمسقط وإمارات أمراء

أصوات الطير : المرحمة .. المرحمة !

أصوات نساء : وطرابلس بخرطوم ورد الماء تنثر ملبس وأزاهير ماليزياء
شقائق زهراء حافظة أخوياء بغداد جامعة وتونس الخضراء
موكب فرح نواكشوط الغراء لهادى جاكرتا يفترش البتراء

أصوات الطير : المرحمة .. المرحمة !

أصوات رجال : طهران كابول شرنجار علياء دكا بإسلام أباد أنقرة أدواء
أمة مليار ونصف فرقها شتاء عدو صناعى يسود بالعملاء
أحضر للفرح راقصة لإغواء أهل صيرورة الضرورة إفتاء

أصوات الطير : المرحمة .. المرحمة !

أصوات نساء : ثانية دعونا من سيرة الغرباء الليلة نحتفل برباط الأقوياء
غزة عزة لغرب نهر الفداء والله لولاها ما جئناها أوفياء
ولا أتعبنا رياض الكرماء بذو الحجة والعمرة أجمل لقاء
جميل وجميلة بهلال الشهداء ليلتنا الكبيرة بمعراج وإسراء

أصوات الطير : المرحمة .. المرحمة !

أصوات رجال : بأقصى القدس حدائق زهراء لرسول صلى بجميع الأنبياء
الكلمة الطيبة فرعها بالسماء أصلها ثابت بأرض الأتقياء
لم لا نفشى بين الناس با أمراء السلام ونحن أمة الخير والنماء
والله كأننا نرنو بعويناء سوداء لبستان كله ورود وحسان وماء

أصوات الطير : المرحمة .. المرحمة !

أصوات النساء : رباه أغدق يا ولى نعم الأتقياء على الفصائل رحمات السماء
آل العروسين بمحرقة أبرياء شهداء نصفهم أطفال ونساء
بشر الصابرين بأمل ورجاء قدوم العباد ذوى البأس والنقاء

علماء علوم الأرض والفضاء يتبرون ماعلا من أسافل أعداء
أصوات الطير : العدالة .. الحرية !

***

تتابعت الأحداث تترى بعد ذلك ..
وهى إن تنس لا تنسى أنها فرت إلى حلم جميل وتحول الخلاء الذى تمزقه المدرعات والدبابات إلى جنة غناء بها إناس يغنون سعداء وألحان عذبة ملائكية وطيور الأبرار ترف وتغرد فوقهم فى السماء ! الأمر الذى حصنها من الوقوع فى براثن إنهيار نفسى وعقلى والجنازير نصلصل وتزمجر وتزم عليها إبان مرورها جوانب الحفرة من جميع الاتجاهات حتى أوشك قفصها الصدرى أن يتكسر كأعواد الحلوى السمسمية ! وحتى أوشكت الدماء فى الأوردة التى إنضغط اللحم حولها أن تنفجر وينبثق من الدم كنافورة مياه حبست تحت الأرض من عمرها آلاف السنين فى عملية تنقيب ناجحة !
وبعد زوال الخطر وانحساره بمرور « قول « الدبابات والمجنزرات وابتعاده عنها جذبت نفسها من الرمال بجهد جهيد ودون أن تفكر فى تلمس أعضاء جسمها بأناملها قبل عينيها لتتيقن من سلامتها وأنها لم تنقص عضوا ! أعملت لساقيها الريح تجرى بأعصاب منفلتة وجنون صوب الجهة التى وقع بها الانفجار وألسنة نيرانه تتزايد اشتعالا وتسقط ذوائب الأشجار التى لعقتها وأعشاش الطيور على قلتها والدخان الأبيض المحمل برائحة « الثوم « تفتحم أنفها وتفغم خياشيمها وتخنق مجارى التنفس التى ضاقت فى حلقها وصدرها حتى بلغت الحفرة الكبيرة المشتعلة التى تحف بها أعداد لاحصر لها من الحفر التى خلفها الانفجار وقد تناثرت حولها وعلى حوافها الأشجار تغذى أوارها وتحاول إسكاتها بمد أذرع الفروع وأكف الأوراق الشهية ذات الزيوت العطرية ! ومدامع المن والسلوى السكرية ! التى لم تكن تزيدها إلا هياجا واضطراما والسؤال « هل من مزيد !؟ « مما اضطرها للدوران حولها وخيل إليها أنها تدور حول كواكب وهاجة صغيرة تتحلق حول نجم كبير ثائر يلتهم معها كل مظاهر الحياة عل الأرض ! .. وخلف تلة رملية قصيرة الإرتفاع شاهدت بكل الأسى والألم والجزع عربة الإسعاف واقفة فى شموخ يدعو للبكاء والنحيب ويبعث السرور الحذر فى ذات الوقت فهى كما تخيلتها واقفة تستميت

بالأرض التى أمسكت بها عجلاتها ! يزعق محركها الدائر أنا هنا ! ولا أثر يا إلهى لدعس قدم حبيبة غابت عن الوعى واستمرت تغذيه ليظل دائرا يعلن للكافة عن وجوده !.. كذلك لا أثر البتة لجبين من محيا مضرج بالدماء يضغط على ضاغط إطلاق صوت النفير « السارينة « المميزة للإسعاف الذى راح يعوى وينافس المحرك فى الزعيق واثبات الوجود ! .. « يا للسيارة الحبيبة الصامدة .. ولكن أين قائدها ؟ « .. أطفأت المحرك وعالجت ضاغط النفير لتريح الحبيبة التى يبدو أنها لم تكن تعلن عن الوجود فحسب بل كانت تنعى غياب ذلك القائد الذى اختفى تماما ولا أثر له يدل عليه من نعل أو بقايا منديل أو قطعة تمزقت من ثوبه كأنه « فص ملح وذاب « على حد قولها لنفسها .. وواصلت فحص المكان كله لدرجة أنها اقتربت كثيرا من حفر النار التى كانت قد خففت من غلوائها بعد أن نفاذ زيت السدر والمن والسلوى ! .. مما أتاح لها النظر فيها ولكن لا فائدة لا أثر له ..

وبغتة ترامى إلى سمعها صوتا يئن وانيا لكنها لم تستطع أن تحدد مصدره .. أعادت تفنيد المكان وقد بات واضحا أنها على وشك العثور عليه ولكن أين .. كادت أن تجن حيرة ويأسا .. وتكررت الأنات ثانية ولكن بصوت أعلى وأمكنها أخيرا تحديد مصدره فى المكان الوحيد الذى فاتها أن تجيل النظر فيه تحت السيارة ورأته ! كان منطرحا على ظهره تحت السيارة وذراعيه إلى جانبيه فبسملت وحوقلت وانزلقت تبغى سحبه وتزايد صوت أنينه بمجرد أن وضعت أنملها تحت إبطيه كأن نارا حارقة تفتق جروحه فغيرت فكرها بسرعة وعالجت إخراجه بطريقة أخرى وصعدت إلى السيارة وشغلت محركها الذى عاد إليه هدوءه وعده المنتظم الأشواط الدال على سلامته وقوته يراقب ما يجرى أمامه وإلى أى مدى بلغت إصابة سيده وأمرته سيدته بأن يخطو بهيكل السيارة وعجلاتها بضع خطوات للأمام وباستقامة فانصاع لها حتى تبدى الجسد الطريح فى المرآة وقد تحرر فى الخلاء .. فأطفأت المحرك توفيرا للوقود .. ونزلت تركض إليه حتى بلغته وأقعت على ركبتيها وتفحصت وجهه ورأسه فقد علمها معلمها أنهما أول ما يتوجب الإطمئنان عليهما من الجسم وسمعته يتمتم بضعف وصوت هامس لايكاد يسمع :

- رأسى كسرت .. رقبتى إنخلعت ! .. سامحك الله يا هدى ! .. أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ..

وأخذ يكرر النطق بالشهادة وأدركت هى مما رأته أنه أصيب برصاصة قناص أو شظية

طائشة فى مكان حساس بجوار القلب راح بنزف .. وكان كل همها أن تعمل على إيقاف النزف وإغلاق منابعه فقامت بنثر مسحوق يعمل على سد ثغوره المتعمقة بعد أن طهرته بأحد مستحضرات اليود وخاطته (بغرزة) مؤقتا ثم غلفته بالقطن والشاش ! منصاعة لإرشاداته التى تكاثرت عليها ونفذتها بحذق وقد تملكها شعور قاس بالذنب والشفقة التى لاحدود لها فانكبت على يديه بعد أن انتهت ورفعتهما إلى شفتيها وأغرقتهما فى اللثم والبلل بدموعها فاغتصب بسمة شاحبة متعبة وردد مظهرا لها رضاه عنها ليهدئها قائلا بصوته الواهن :

- لاعليك .. لاعليك ! .. خذينى إلى المشفى قبل أن أموت ! أو يسرقنا الوقت فيصعب إلتئام الجروح .. أستطيع الآن أن أتعلق بكتفك إلى السيارة ! ..

كان جادا إلى ما حد فى قوله الذى ينضح بإرادة الحياة مما سهل عليها المهمة حتى توسد مكانه راقدا على ظهره على المحفة الجلدية بصالون السيارة التى ربطته إليها جيدا كيلا يتحرك أو تضطره عثرلت ومطبات الطريق للتحرك بصورة تضر بجروحه .. وقادت وهى لا تكاد ترى ما أمامها لما التصق بعينيها وهام فى الجو من عوالق الدخان والغبار والشوائب الدقيقة وما تبخر من الخلايا الحيوانية والنباتية المحترقة وما سمح من عينيها من دموع العطف والندم دون إرادة منها وهى تردد فى لا وعى :

- إسم الله .. إسم الله .. هذا خطأى .. خطأى أنا يا أشجع أب .. يا أطهر يد .. يا أنقى قلب أصيب ! ..

وعندما يحتج على انهامها لنفسها ويصل صوته بصعوبة إليها محذرا :

- هدى !

كانت تجيب فى كل مرة :

- حمدا لله .. ألف حمد .. رأسك سليم وهذا هو المهم ! .. سأنقلك إلى مشفى خان يونس فهو قريب من هنا ..

وطوال الطريق كانت تردد :

- أنت بخير .. بخير .. وسيارتنا أيضا بخير تنقلنا حيث نريد !

كانت فى ذروة الوعى والتنبه والحرص تشعر كأنها تحمل ثروة قومية ينبغى سرعة إنقاذها دون التعرض لأماكن تجمعات العدو وآلياته التى حفظتها عن ظهر قلب ودارت حولها فى طرق فرعية علمها إياها .. ومع أن المسافة كانت لا تتعدى ثلاثة كيلومترات

فإن الطريق تزايد بالإلتفاف وبما عهده المرء فى تلك الحال من زيادة طوله ومن الدقائق التى تمر كأنها دهور وآباد !

وبمجرد أن بلغت بوابة المستشفى ولمح رجال الأمن وجهها وأناملها وفد تلطخت بالدماء ووقعت أبصارهم على وجه زميلهم الذى غرق صدره فى الدماء التى تجلطت على ثيابه من عنقه إلى ما بعد خصره نشطوا وأعين بعضهم تغرورق بالدموع لإخراجه من بطن السيارة وأرقدوه على محفة تجرى على عجل أحضرورها فى سرعة البرق ثم دفعوا بها داخل ممرات وأروقة المشفى وهدى تلهث وراءهم وتوزع الدموع والإيماءات والبسمات المغتصبة على كل من توقف ينظر متسائلا بعينيه عما وقع حتى بلغوا به فاعة الإستقبال وتكأكأ الأطباء عليه من كل حدب ومن مختلف التخصصات لكشف شامل سريع تحدد به مدى الإصابة ونوعيتها ثم أدخلوه غرفة العمليات الجاهزة دائما لأنها لم تكن تكف عن العمل ليلا ونهارا تلك الأيام ويتم بها إجراء أعداد تتجاوز طاقة إستيعابها وطاقة الأطباء ومعاونيهم لإخراج الرصاصة التى استقرت بالقرب من عضلة القلب وربما إخترقتها داخلة إحدى حجراته !

كان فد دخل فى غيبوبة عميقة مما عقد حسابات كبير أطباء الجراحة وطبيب التخدير ولبثا وقتا يتشاوران فى أمر توقيت إجراء الجراحة وهل تتم الآن أم يحسن تأجيلها لوقت آخر بعد أن ينال نصيبه من الراحة ومن التغذية بالدم والمحاليل المنظمة لوظائف الأعضاء إلى آخر تمام إجراءات إنعاشه ! .. ثم إنتهيا إلى إجرائها فورا لنقص المستلزمات المنشطة وشجعهما على هذا القرار أن جراحه توقفت عن النزف ولم يكن ثمة ضاغط من تدهور حالة يتطلب التريث ..

وهدى فى ردهة الإنتظار جالسة بأقرب مقعد إلى باب الغرفة تتوسل إلى فؤاها أن يكف عن الخفقان برعونة حنى يكاد أن ينخلع وتتسقط أخباره من كل من يمر أمامها خارجا من الغرفة من الأطباء أو المرضين فى فترة التشاور التى علمت أنها انتهت ودلها على ذلك إشتداد الإضاءة داخلها من خلال زجاج الباب المغبش الذى لم يكن بشف عن شىء ومرور وفت طويل على آخر من خرج ! .. فقالت لنفسها وهى تتنهد :

- لله الأمر من قبل ومن بعد ..

وغرقت فى نوبة من التبتل والضراعة إليه سبحانه أن ينجيه ويبقيه فهو مسكين فقد عائلته ومع ذلك تماسك وعمل بجد ومثابرة فى خدمة الإسعاف !

وكم من المصابين نجوا عل يديه بفضل الله ثم إسعافه !
وكم من أفئدة دعت له .. كم من الأمهات والأطفال والعجائز قدموا له الورود وهدايا الشكر والمحبة وعطابا العرفان !
- ومن أجل كل هؤلاء وغيرهم يستجدون أنقذه يارب !
أربع ساعات فضاها الطبيب القائم بالجراحة ومن يعاونه فى عملية جراحية المفروض أنها لاتستغرق كل هذا الوقت ولكن يبدو أن الرصاصة أو الشظية قد توغلت أكثر من اللازم وتهتكت وهى فى طريقها الكثير من خلايا عضلة القلب والشرايين والأوردة الدموية التى عادت للنزف بغزارة مع نكأ الجروح بالفتحات التى استلزمتها الجراحة .. وأخيرا خرج الطبيب الأول من غرفة العمليات مطأطىء الرأس مكفهر الوجه وكان هذا نذير شؤم أعلمها برحيله عن هذا العالم الظالم فاسود وجهها من شدة الأسى والألم ثم سرعان ما استضاء وزغردت لما تذكرت أن العرف يلزم آل الشهيد من النساء يالزغردة تحية له وهو يهرول إلى جنة الخلد عند ربه فرحا بحياته الجديدة النظيفة الطاهرة وبالرزق الذى لا حساب له ..
وتعالى صوتها مزغردة وقلبها يعتصر ألما عندما حانت منها إلتفاتة وصوت باب غرفة العمليات يفتح عل مصراعيه ويصرصر على غير ما عهد فيه كأنه يصرخ إحتجاجا من شدة الألم .. وبرزت العربة الحديدية ذات العجلات والجسد الزاهر منسدح على ظهره وقد غطته ملاءة بيضاء إلا قدميه الطاهرتين اللتين برزتا من تحت الغطاء فهبت من جلستها نحوه نزغرد وتبكى فى آن معا تقصد لثم تلكما القدمين فى آخر تحية وآخر وداع .. غير أن نفر من الذين تصادف وجودهم إلى جوارها كانوا من اليقظة بحيث أمسكوها من أذرعها وثبتوها فى مكانها إشفاقا عليها .. فقد كانوا على علم أو بالأحرى على قدر من العلم بحقيقة ماتكنه تلك الإبنة لهذا الأب الروحى من توحد وما تربطهما به أواشج المحبة فى الله والمحبة فى المقاومة بالإسعاف والإغاثة !
فتوقفت مصبورة عاجزة عن فصل صوت الجهيش و النحيب عن صوت الزغردة وخرج المزيج يدعو كل من رآها تلك اللحظة لذرف الدموع شفقة بها ورحمة على الفقيد الشهيد الذى تسبقه سيرته العطرة إلى الجنة ممتزجة بعطرها من المسك والعنبر .. ولم تبد مقاومة وتركت لأدمعها العنان تسيل من عينيها اللتين فر منهما الذهب وربض الزئبق والخارصين والرصاص مكانه فى سكون وحزن وفى ذات الوقت فى تجلد ونوع من

الغبطة لا يدركه إلا كل إنسان عميق الإيمان بقضاء الله .. ثم أنها تعلم أنه شهيد وحى يرزق فما معنى الحزن ؟ وقد أعلنت عليه العصيان وشقت عصا الطاعة وهجرت مبادئه ثم هجرته هو نفسه قبل دقائق من تعرضه للحادث الذى أودى بحياته .. وإذن فلا معنى للشعور بالفقدان وقد حددت بجلاء موقفها ولا لأى كلمة أو دمعة تدعم الفراق ! وخطر فى ذهنها خاطر طيب نفسها عندما فكرت فى أنها نهجت هذا النهج دون أن تدرى لقطع الطريق مقدما على الحزن قبل وقوع أسبابه !

وانتعشت بهذا الخاطر الذى أصابها بما يشبه الإنتفاضة أو الصحوة .. صحوة روح المجاهد الثائر التى كان فيض نورها الغامر يعمر نفسه .. وانتقلت كاملة إليها سامية بمشاعرها التى اتسقت وزهت بالأمل والتفاؤل والرغبة فى مواصلة درب الجهاد حتى آخر نفس فى رئتيها وآخر قطرة من دمها وشاركت فى ذات اليوم فى مراسم دفنه بالأعلام الخضراء والمجاهدين والأنظار كلها عليها تعزيها كأنها فعلا من أهله .. وانتهزت فرصة إجماع الكل على الإعتراف بجهودها واحترامها وتقدمت إلى مدير هيئة الإسعاف الذى كان كان قد وصل من غزة مع رهط من زملاء الشهيد للتعبير عن حزنهم وفى ذات الوقت فخرهم به كزميل أدى ماعليه من واجب إلى أخر لحظة فى حياته فكانت المكافأة والجائزة الكبرى الفور بالشهادة .. وطلبت إليه أن يعهد لها بسيارته لتواصل أداء رسالته التى علمها إياها وتتشرف بها وصارت على قدر من الدراية بها وبالطرق الآمنة التى تمكنها من توقى المخاطر فأبدى قبوله بكل سرور وأثنى عليها ..

كانت مفاتيح السيارة قد استردت منها بمعرفة رجال أمن المستشفى ولما سمعوا موافقته إستأذنوه وسلموها إليها فقبضت عليها بجمع يديها فى بهجة وفؤادها يرف كالطائر داخل قفص صدرها من الفرحة فها هى تحيى ذكراه بالسير على دربه .. هاهى تكفر عن الذنب الذى إرتكبته فى حقه فلم توليه مايستحقه من الولاء والعرفان .. وودت لو هتفت من أعلى حطام منهار بالمدينة :

- سأسير على هدى دربك با أبا رياض .. كن مستريحا .. أنت لم تمت .. من خلف ما مات وأنت قد خلفتنى ! .. سأركز كل جهدى فى الأطراف حيث ساحة الجهاد والشرف ..

وهنا قاطعها صوت هزها بعنف فتوقفت عن الهتاف الذى أجرت « تجربة « له مع نفسها قائلا :

- وهناك قد تلاقين حبيبك هادى .. شريك المستقبل !

ونامت وهى تفكر فى هذا الخاطر المبهج ..
وكان الصباح التالى أول صباح تخرج فيه للعمل وحدها فانعقد جبينها من شدة التركيز والتنبه طوال النهار حتى مر يومها وتمكنت من إخلاء بعض المصابين هنا وهنالك بشوارع غزة ضحايا الشراك الخداعية التى ألقتها الطائرات فى أماكن مختلفة لتنفجر فى وجه من يلمسها بيده أو يطأها بقدمه .. والشظايا الطائشة والبلى المتطاير من قنابل الدايم التى تسافر من مكان لمكان ولا تسقط حتى تستقر فى بدن إنسان أو حيوان !
ولم تنفك عقدة هذا الجبين إلا بعودتها للراحة فى المساء حيث كان فى إستقبالها نصب تذكارى تم تشييده لشهداء الإسعاف إبان النهار فى الرحبة الفسيحة التى تلى البوابة الرئيسية ..
كان العمال قد انتهوا لتوهم من العمل وبسبيلهم للإنصراف وهم يتبادلون تحيات الوداع مع رجل خيل إليها أنها تعرفه فهو يشبه أباها ! .. وشغلها منظر النصب المفرح بقوسيه الناصعى البياض وزخارفه وشموخه عما فكرت فيه مبدأ الأمر من الترجل من السيارة وملاحقة صاحب الطيف الذى يخايلها بين وقت وآخر لتواجهه وتحسم أمرها معه وتناست أمره تماما حتى اختفى فى زمرة العمال ..
كانت لاتزال جالسة بالسيارة تتأمل خطوطه ولمساته التى أحست من روحها أنها تعرف اليد الماهرة التى صاغتها بنته وتكرت ماكانت بصدده فترجلت من السيارة وخرجت من البوابة ثم توقفت تتأمل الشارع الخالى من فرصة ثمينة أضاعتها ولاحظ الحارس حيرتها فدنا منها وقال :
- كانت الصعوبة فى إستجلاب الأسمنت اللازم .. ولكن البناء الذى رأيت العمال يودعونه بحب واحترام ذللها بتهريبه من خلال نفق برفح ! ..
سألته ملهوفة لشعورها أنه يقربها دون أن يشعر من تحقيق غايتها :
- كيف ولماذا ؟!
أجابها وهو يتباعد عنها كما لوكان قد أزعجه اهتمامها وكلفها الزائد :
- كيف ؟ .. لا أعلم .. لماذا ؟ .. لأنه كان يعرف أبو رياض وحزن لما أصابه وأراد أن يساهم فى تكريمه واخوانه من شهداء الإسعاف !
- أه !

- ١٤ -

كادت تسقط مصابة كالعلم برصاصة طائشة إبان قيامها بإخلاء مقاوم جرح جرحا بالغا فى المعارك الضارية التى دارت رحاها بين الرجال وبين القوات المتحصنة بالدروع والمجنزرات على الأطراف شمال وغرب بيت لاهيا وبيت حانون .. وهى منطقة عمليات اتسمت بقدر كبير من التعتيم من جانب العدو الذى كان يتعمد أن يقلل من أخبار خسائره إلى أدنى حد .. خاصة بعد مقتل قائد لواء النخبة الشهير فى الجيش الإسرائيلى بإسم لواء « جولانى « مع ثلاثة من جنوده .. وانتهج المتحدث الإعلامى بإسم هذا الجيش نهجا لا يعترف فيه بمقتل أى من الجند وكيف أنها مجرد إصابات أغلبها طفيف لا يستحق الذكر بينما رجال المقاومة الذين وصفهم بالإرهابيين يتساقطون بالعشرات ! وفى الحقيقة .. كان هناك فعلا سقوط بالعشرات ولكن بالإعدام رميا بالرصاص للشباب الأعزل الصغير الذين كانوا يخرجونه من المنازل فى المناطق الحدودية شبه الخالية من السكان .. مخافة أن يتدرب على القتال دفاعا عن النفس ويتحول إلى إرهابيين تحت ضغط القذف بالصواريخ والرش بالفوسفور الأبيض وقنابل عناقيد البلى (الدايم) .. والتى تمركزوا فيها حول القطاع ولم يجسروا على مبارحتها والتوغل داخل المناطق الآهلة بالسكان تطويرا للمعارك البرية التى طالما تحدثوا عنها وتجنبوا القيام بها خوفا من الخسائر البشرية التى كانت حتما ستقع بأعداد كبيرة .. والتى كان يتشوف إليها الرجال وأعدوا لها ما استطاعوا من عدة خلف السواتر الطبيعية والأسوار والجدران .. بل خلف وفى داخل عدد غير قليل من أشجار الجميز العتيقة ! ذات الجذوع السمينة المترهلة التى أمكن حفر مرابض لمنصات إطلاق الصواريخ فى حلقات أخشابها التى ترسبت خلاياها على مدى الزمن بوفرة واتساع أحالها كالشوارع .. وفى بعض مفارقها بقمم تلك الجذوع التى تتفرع منها إلى أعلى والأجناب تفريعات أقل منها سمكا وأكثر استارة تناسب إنبطاح القناصة ! .. هذا فضلا عن الأزقة والمزانق والحوارى ومنعطفات الشوارع وتقاطعات الميادين التى تربصوا بها والتى يعرفون كأولاد بلد دروبها ومسالكها وكل شبر فيها ولكنها (المعارك البرية الموسعة) لم تأت أبدا .

فكيف تسنى لهدى ولوج تلك المناطق بالغة الخطر ..

وأنى لفتاة مثلها الشجاعة التى تعتبر ضربا من الجنون لإنقاذ جرحى رجال المقاومة دون أن تأبه لرصاص قناصى عدو يمنع وصول عربات الإسعاف إليهم ويتركهم الساعات الطوال ينزفون حتى الموت بذريعة أن الإرهابيين لا يستحقون الحياة ! وبأنه (حسب زعمه) لا فرق لديه بين الهدف العسكرى والمدنى فهؤلاء كانوا يتخفون فى ثياب مدنية بالمساجد والمدارس والمستشفيات وسيلرات الإسعاف والصحافة ويتخذون منها ومن المدنيين دروعا يقصفون منها مدنه ومستعمراته الجنوبية تبريرا لإخفاقه الذريع فى الحد من إنطلاق الصواريخ ..

أجل .. كيف تسنى لها (ويح أمها) أن تنجو من الموت المحقق وهى تناور بالعربة بين الحوائط والجدران القليلة العدد فى تلك المناطق التى تقع على الأطراف .. دون أن تتراجع أو ترتد للعمل فى أماكن أقل تعرضا للقصف العشوائى وعمليات العدو الكثيفة التى صب بها كمية من النيران على المتر المربع تفوق كتلة المتر المكعب لدرجة أن الإحصاءات الفريدة كانت تحسب لكل مقاتل نصيبا من المتفجرات قدر وزنه عشر مرات ! .. ونصيبا من العقاقير بفعل الحصار وضرب قوافل الإغاثة ومخازنها بالأنروا والمستشفيات بقدر لايزيد عن المليجرام لكل مائة كيلو جرام وزن حى !

إنها وللحق لم تكن مجرد مسعفة والسلام فى تلك الأيام بعد استشهاد أبو رياض وحلولها محله وحالة الثبات الغريب التى واتتها بمجرد أن جلست على مقعده السامى فصارت لا تهاب الردى بل تطلبه متحدية فى كل آونة فوهات المدافع فوهبت لها الحياة ويبدو أن ثمة هاجس مفرح فى أعماقها إليه تعزى جسارتها تفتق مالئا كل خلية من خلاياها عندما فكرت بالمنطق أنه طالما رحل وهو راض عنها فلا معنى للشعور بالذنب وقالت لنفسها :

- كلما هوى جريح أو شهيد حملت نفسى ذنبه .. ماذا بقى فى العالم من ذنوب لم أحمل بها نفسى !

وقد إنتبه إليها جنود العدو فأطلقوا عليها الجاسوسة الحسناء وليس المسعفة الحسناء فعربة الإسعاف تلك ما هى إلا غطاء لعملياتها السرية داخل مناطق الرجال لنقل أخبارهم وتنقلاتهم فلماذا تركوها ؟

سرت أشاعة بينهم أنها تعرف مكان الجندى الأسير « شاليط » وهو أحد الأهداف المعلنة لتلك الحرب ..

ولا تدرى هدى من هذا المقاوم العبقرى الذى ألهمه الله فأطلق تلك الإشاعة لحمايتها

! .. حتما أنه يشبه والدها .. آه لو ترى طيفه الحبيب الذى يطالعها كثيرا تلك الأيام !
لابد أنه على صلة بمن هو وثيق الصلة بالعدو ويقاوم على طريقته !
وإن الكلمات التى تتساقط من تحت اللسان كالجثث أو كالحجارة تتدحرج بقوة مثل قوة القصور الذاتى حتى تبلغ مرامها وتصل إلى مسامع المعنى بالأمر فيصدر أوامره فى أى اتجاه !
كانت تعلم أنهم وأجهزة إستخباراتهم يراقبون تحركاتها من حيث لا تشعر أملا فى أن تدلهم إليه وكانت وسيلتهم فى ذلك على قدر من الطرافة ! فهم لم يسمحوا لها إلا بإنقاذ حياة حالة واحدة فى الصباح .. وأخرى فى المساء كطعم لتشجيعها على الاستمرار ومن ثم الظهور والمراقبة وإن زادت يطلقون النار فوق رأسها فى الهواء تحذيرا ..!
ولم تخل الشائعة كما هى العادة من توابل فاتحة للشهية ! من نوع أنها صديقة حميمة لزوجة أحد القادة وهذا مبرر طريف آخر عبقرى ومحترم (لم يتطرق إلى الكبائر) حافظ على حياتها ..
لم يكن ثمة ما يرهبها إلا تفكيرها فى احتمال أن يقع عليها صدفة بصر الجندى شبيه واالدها فيبلغ عنها وهم بالطبع لا يتركون ثأرهم وسيقتصون منها ذات يوم بعد أن يحققوا وطرهم الأهم منها .. ذلك الذى إنعقدت عليه آمال حربهم !
وبدورها كانت حريصة على آمال حربها رضيع أم الرشراش الصغرى وتقتص بكل مشقة من وقتها الثمين دقائق لعيادته وضمه إلى صدرها لا لإرضاعه طبعا فقد جف الغيث من طول اعتمادها فى ذلك على حاضنته الثكلى الأكثر تفرغا ولتمدهما ببعض ما كانت إدارة الإسعاف تنفحها به يوما بيوم لمواجهة أية ظروف شخصية تعطلها عن العمل وهوقليل لتدخره لهما لكنه كان يذكر إذا أضيف إليه القليل الآخر الذى كانت تحصل عليه من فرع هيئة الإغاثة أو من بعض المتعاطفين معها الذين يعرفونها وحكايتها ! ..
قد كان الصغير شديد التعلق بها خاصة حينما يأزف وقت الرحيل .. لكن مع الوقت وتعلقه بالأم المجربة خفت الوطأة فكان لا يبدى اعتراضا أو غضبا على مغادرتها بسرعة وطمأنها هذا على حسن معاملة الأم البديلة التى كانت تعتبره رزقها عوضها الله به عن رضيع لها جزت « بلية دايم « نحره وهو نائم على صدرها !
ولم يفت فى عضدها تلك الأيام قدر الأطفال الذين كانوا يهيمون على وجوههم فى الشوارع والطرقات حيارى وسط الخطر يبحثون عن برتقالة أو كسرة خبز وهم لا

يدركون لصغر سنهم كنه الخطر ولماذا تحتم عليهم فقدان عوائلهم ..
وكله .. كله .. إلا هذا الطفل الذى لم يتجاوز عمره الثلاث سنوات الذى اكتشفت بمحض الصدفة أنه يسير أمامها فى الظلام بمفترق طرق ويكاد لصغر حجمه ألا يبين من الأرض التى يدب عليها بقدميه الصغيرتين .. كادت أن تدعسه لولا أن فى عمره بقية .. وكبحت عجل السيارة فى اللحظة المناسبة وهبطت إليه وجلست القرفصاء أمامه ثم أمسكت به من كتفيه وألقته على صدرها فنام لتوه وكأنه صدر أمه وتفجرت بفؤادها ينابيع شتى بعزقتها وسمرت فتاتها بجلستها بالأرض فبقيت على هذا الوضع طويلا تخشى إن حملته ونهضت أن يصحو من حلمه الجميل بأمه ! .. ثم أخيرا بعد أن استوثقت من أنه غرق تماما فى السبات إستجمعت شعثها وحملته إلى السيارة وأودعته بجانبها على المقعد الأمامى ثم مضت فى طريقها وسرعان ما شبع الصغير فقد كان الخير الذى سقط عليه وفير والحنان كثير وتربع جالسا فى مكانه بأدب ولدهشتها راح يتلو سورة الإخلاص ثم انتقل إلى سورة الفلق ومن بعدها الناس ولم ينته ويبادلها النظر مبتسما بود وحب يماثل مابين الإبن والأم .. إلا بعد أن عاجلته متسألة وهو يشرع فى ترتيل سورة أخرى :
- لماذا كنت تسير وحدك فى الطريق والظلام !
أجابها إجابة بليغة ومؤثرة لم تكن تتوقعها بأن أخرج إصبع « أحمر شفاه « وراح يلون لها شفتيها وهى تقود مبتسما دون أن ينطق .. والغريب انها ألفت نفسها تستسلم دون اعتراض يل ووجدت فى استسلامها راحة وكأن لعبته هذه راقتها ولاقت هوى فى نفسها فتركته على سجيته يلهو ..
كان الصغير على درجة عالية من الإلمام بما يفعله فكانت أنامله تمرر اللون دون أن تتعدى حيز الشفتين العمرانى !
مما رجح لديها وهى تراقب دقته بالنظر إلى المرآة أن هذه ليست أول مرة وأنه لا يلهو مما حداها أن تسأله :
- من علمك ؟
- ماما ..
- لماذا ؟ ..
- لأكسب عيشى !
- معقول ؟!

سألت الطفل وفى الواقع كانت تسائل نفسها وتسائل العالم كله عن صغير فى تلك السن يتكسب رزقه من حيث علمته أمه أن يخطط شفاه الأمهات الأخريات اللائى يقبلنها على أنها دعابة ثم يكافئنه على « شطارته هذا المهندس الصغير الذى يخطط باللون الأحمر ملامح تقاسيم الحيز العمرانى للوجه الشرقى ! « وهذا ماعنته أمه التى علمته القرآن أيضا ويالعجب ! .. فكرت على هذا النحو بسرعة ثم عادت تسأله بتردد كانها تعرف الإجابة أو لا تريد معرفتها ! :

- وأين هى من علمتك ؟

- ماما ؟

- نعم ..

- تركنها فى البيت والظلام وحدها !

- لماذا ؟ ..

- الشقية كانت تلعب فأغرقت وجهها ولطخت ثيابها !

- بماذا ؟ .. بالأحمر ؟ !

- نعم .. نعم .. لوثت الفراش كله .. ولوثت الأرض وسجادة الصلاة ! .. ونامت !

- قلت وحدها ؟

- سميح وعلى وسماح وعالية ! .. ناموا هم أيضا بغرفة الطعام ! .. بعد أن لوثوها ولوثوا أنفسهم بالأحمر !

وصمت الصغير برهة ثم أضاف وهو يتنهد :

- تركونى أقرأ القرآن فى الحوش وحدى فى ضى القمر ! .. انتظرت أن يصحو منهم أحد يؤنسنى حتى زهقت فقلت أخرج من البيت ألعب ! .. مشيت قليلا .. وعندما إلتفت ورائى لم أجد البيت قائما ..

- ماذا حدث له ؟

- نام هو أيضا ! .. أوحمله عفريت على ظهره ومضى ! .. أتعرفين ؟ .. بيوت كثيرة نامت فى حينا ! .. أتعرفين لم ناموا جميعا فى وقت واحد .. ولماذا يتلونون بجميع الألوان !

أجابت والدموع تنهمر من عينيها إلى خديها وشفتيها حتى لطخت أحمر الشفاه قائلة تصطنع المرح :

- نعم أعلم .. لأنها بيوت قديمة تتعب من كثرة العمل طول النهار والسهر لنصف الليل

فى ترتيل القرآن والصلاة والدعاء للأولاد والبنات بالنجاح ونيل ثمرة الجد فى المذاكرة ! .. وهناك فرح ببيت البنائين فى الشارع الخلفى !

إستنار وجهه ببداية فرحة وسأل :

- أيبنون لنا بيوتا جديدة .. بعد الفرح !

وانطفأت بداية فرحة مماثلة فى قلب هدى وهو يستطرد مجيبا نفسه :

- لا أصدق .. ليس هناك لابنائين ولا فرح .. البيوت كلها تهدمت ولم تنم ولا يقدر على بنائها غير الله وسيدنا محمد !

ثم صاح فى وجهها مغضبا فجأة كأنه يلومها مضيفا :

- ويل للمكذبين !

***

كانت فى طريقها لمستشفى الشفاء بجريح المساء من رجال المقاومة الأشداء ! ولما بلغت بوابته توقفت وتظرت إلى المرآة المعلقة فوق هامتها فرأت مأ أضحكها وذكرها بمنظر وجه المهرج فى « سيرك الألعاب « من أثر تلاقى الدموع بأحمر الشفاة فنظفته وأزالت لطخاته بمديل على عجل ثم أفهمت الصغير الذى كان يتابعها بأنظاره مبتسما بسمة كلها إدراك تتفوق على سنه أن يسدى لها معروفا ولا يغادر مكانه ريثما تعود فيبحثان معا عمن يؤويه وترجلت تهرول لفتح الباب الخلفى للأيدى التى تكأكأت بالمحفة المتنقلة من داخل المشفى لحمل الجريح فألفت المهندس الناشىء يسبقها للباب وكأنه لم يفهم أو تخير لنفسه سلوكا آخر يتفق وهندسة التخطيط العمرانى ! فهزت رأسها بعجب ثانية وهمهمت لنفسها باسمة :

- أما والله !

وتركته يل شاءت أن تتخير بدورها هى الأخرى نهجا آخر معه وأن « تطنش وتبتسم وتحاول أن تنسى « كما تنصح بالضبط مقولات بعض الظرفاء الذين يتنقبون مسالك الحياة السهلة البسيطة بعيدا عما يعقدها لتخفيف وطأة متاعبها النابع من حدة غرورها الذى لا ينتهى بالكلف والاهتمام !

- على الأقل حتى أنجز ماعلي نحو إدخال المصاب على جناح السرعة للمشفى !

حدثت نفسها واحتفت بما ساد مداخل المشفى الكبير من روح تعاون ونظام على الزحام الذى لم ولن ينتهى فهو صفة من صفاته ترتبط بظرف الزمان والمكان ! وإبان ذلك تنقلت والطفل يلاحقها كظلها بين رواده وأصحائه علها تجد من يقبل إيوائه مع أبنائه وصاح أحدهم فى شبه تهكم :

- إنه ولد شقى أنا أعرفه وأتنبأ له بمستقبل باهر فى قيادة مسيرتنا المباركة وفن تزيين النساء !

وسكت هنيهة ليضحك مما ارتسم على محيا هدى من أمارات الاحتجاج ثم أردف :

- بالله لا تنظرى إلى تلك النظرة .. أنا أتحدث بجدية ولا أهزل ! .. والدليل على صدقى من بلدك .. فقد وصل طبال ورقاص عن طريق المال والأعمال على ما أسمع إلى سدة الحكم وأصبحوا من الصفوة .. لا بل ممن يعدون على أصابع اليد الواحدة ! .. ويقال أن هناك أيضا رجل أعمال عالمى معه الجنسية الإسرائيلية بعين صفراء وجفن مرتخى سهل الزلل ! يعتبر الجليس المفضل لرأس الحكمة الكبير بصالون الاستقبال بشرم الشيخ ! ..

- ليس عيبا أن تبدأ حياتك طبالا أو رقاصا !

- إنما العيب أن تستمر فى الطبل أو الرقص وأنت حاكم ! ..

- ليس عيبا أن تكون بنظرة عين ضيقة صفراء وجفن سهل الزلل تكاد أن تكون أعور شكلا !

- إنما العيب أن تكون أعور مضمونا .. أو أن يكون قلبك هوالأعور !

قالها ثم دنا منها حتى كان قبالتها ومد يده إليها فخالت أنه يبغى مصافحتها لكنه فاجأها برفع يدها إلى فمه ينوى لثمها معتذرا فيما يبدو على إيذائه مشاعرها الوطنية ! فسحبتها منه بسرعة وتراجعت إلى الوراء قائلة فى لوم وتثريب :

- أنت معك حق وأنا لا ذنب لى إن كان هذا قصدك فى ..

ترددت لحظة لكنها حزمت أمرها وواصلت وقد تضرج وجهها حمرة من فرط ما تحاول دفنه فى أعماقها من إنفعالات وآلام :

- إغلاق معبر رفح وما ترتب على ذلك من إحكام حصار العدو للقطاع وتحويله إلى سجن كبير يستشرى فيه الفقر والمرض كالنار ! ويظهر به أطفال علمتهم أمهاتهم كيف يشحذون بتلاوة القرأن أو ملاطفة الأمهات والتودد إلى وجوههم ! و ..

قاطعها متبرما ومؤكدا :

- ليس هذا قصدى بالطبع فلكل وطن ظروفه الأمنية ومشاكله على الحدود .. فتح معبر رفح على وسعه أمام الفارين من المذبحة كان سيضيف إلى سيناء التى يطمع فيها العدو مخيما جديدا للاجئين .. ويحقق أحد أهداف حربه بزحزحة أهل غزة بعيدا عنه وتصدير مشاكل إحتلاله أرضنا لمصر .. وفى ذات الوقت تكون هذه بداية الحل الدائم لمشكلة اللاجئين القدامى واللاجئين الجدد الذين يهدم منازلهم كل يوم بحجة أنها بنيت منذ مائة عام بدون ترخيص ! وبفرض ضرائب عقارية باهظة على أصحابها أو تكاليف توصيل خدمات من مياه وصرف صحى وإنارة وطرق وخلافه بأسعار يعجزون عن سدادها وبأثر رجعى منذ سنوات .. أو يسلط عليهم قطعان المستوطنين فيطردونهم منها بالقوة ويقيمون هم فيها ! .. إنه يحفر أساس المسجد الأقصى بحجة البحث عن هيكل يريد فلسطين أو ما يسميه يهودا والسامرة دولة خالصة لليهود وعاصمتها القدس ! يريد إسرائيل يهودية صافية لا وطنا لكل الأديان .. أتفهمين ؟!

سكت لحظة ولم ينتظر إجابتها واستتلى :

- كما أننى لا أقصد التهوين من قيمة العمل اليدوى مهما كان بسيطا فالمهم أن يكون العمل شريفا وهناك من رؤساء

الدول من بدأ حياته ماسح أحذية يحمل صندوقا على جنبه ! .. أو شيالا فى سوق أو ميناء أوحتى تباعا على عربة نقل! هناك من العلماء الكبار من كان يغسل الأطباق فى المطاعم أو يكنس الشوارع من أجل تدبير تكاليف معيشته ودراسته مثل هؤلاء الشرفاء لم أكن أقصدهم .. ولم تصل مآخذى إلى الأفراد العاديين .. ببساطة لأن هذه ليست الحقيقة ! .. كل يغنى على ليلاه ويبحث عن مصالحه الخاصة ويكرس مناطق نفوذه وسلطته .. وحتى نحن يحدث عندنا بعض ماعندهم وإلا فما معنى الإنقسام ؟!

وتهدج صوته وهو يشيح بوجهه كأنما يدارى ضعفه وأضاف :

- إنما كنت أود الإعتذار عن ضيق ذات اليد والحال !

قالها ثم أولاها ظهره وانصرف مختارا ألا يتمادى فى تلك المناقشة التى طالت أكثر مما ينبغى ..

ويبدو أنها طالت إلى حد تجاوز طاقة إحتمال الولد للصبر فشعر بالسأم أو نكأت جراحه العميقة إشارات الرجل إليه وهو يتحدث كأنه المسئول عن أخطاء الكبار .. وأنه فضلا عن ذلك المعنى بتعليقات البعض ممن تجمعوا لمراقبة ما يجرى من حوار لفت الأنظار

فانطلقت الألسن الساخرة بأقوال مرحة من قبيل « طنش وابتسم ! « خالها تقصده فغافلها وابتعد ولما استشعرت ذلك تلفتت وراءها فلم تره وشغلها عن تفنيد المكان بانظارها عثورها تلك اللحظة على ضالتها الأولى من بحثها فى رجل مسن تبدو عليه حيوية وإقدام الشباب فاجأها قائلا :

- عندى دار كبيرة فتحتها لإيواء مثل هذا الولد .. حمدا لله أنها دائمة النجاة من القصف ! .. لكن أين ذهب .. إنه ولد شقى فعلا !

عاجلته لترغبه :

- ويحفظ القرآن !

فاسترسل :

- قد سجلت الدار بالشئون الاجتماعية فأتوا بالمربيات والمعلمات وأصبحت لكبرها واتساعها وملاعبها وأفنيتها مدرسة داخلية أكثر منها دار للإيواء .. أين هو ؟ .. هاته وهيا نذهب به !

شكرته فرحة بمشروعه وشخصه الكريم وقبل أن تشرع فى البحث عنه تناهى إلى الأسماع القريبة من البوابة الرئيسية أصوات تلغط وتلوك حديثا عن طفل أصيب .. وتسابقت عيناها مع أعين الجميع صوب البوابة لترى شابان يحملان طفلا صغيرا يدمى من جرح غائر فى رأسه وقد غطى الدم وجهه وقباء ثوبه وتسلل إلى صدره وشف من خلال ثوبه فالتصق وأعلنا لتوهما فى صوت واحد :

- قد اصب فى رأسه بشظية كبيرة أو بلية دايم !

وتكالب على الطفل عدد غير قليل من المسعفين وآخرين من ذوى الفضول مما غيب عنها رؤيته عن قرب ومن توفزها وربكتها لهاجس تحرك فى قلبها هرعت إلى السيارة وأطلت داخلها على أمل أن يكون قد عمل المعروف الذى طلبته وعاد وقبع فى إنتظارها لكنها لم تره ولم تعثر فى محيط المكان له على أثر دون أن تبادر كغيرها للطفل الذى أصيب فهو أولى بالنظر ! .. الحق كان معها وإن كان الأفضل أن نواجه الخطوب ولا نهرب أو نؤجل سماع خبرها !

- يا خبرى !

صرخت وهى تغترف منه النظر ..

- إنه هو .. هو .. بعينه !

خرج صوتها خافتا تلك المرة « مبحوحا « من شدة الانفعال والتأثر فقد كان الطفل المصاب طفلها ! وتأكد لها ذلك عندما رأت أنامله تسقط شيئا وهم يحملونه داخلين على السلالم ولم تتبينه إلا بعد أن خلت درجاته الرخامية من المسعفين والجزعين فبدت بيضاء مموهة بأشكال لا معنى لها ! .. ودنت بخطو وئيد من المكان وتفقدته وهى تضع يدها على قلبها لتمنعه من الرهفان ! فقد حدست كنه الشىء قبل أن تلمحه عندما انحنت على إحدى الدرجات والتقطته فإذا هو إصبع « أحمر الشفاه ! « ولا شىء غيره .. بكت .. بكت باحتراق ولم يسلها أحد طبعا لم تبك .. لأن المكان كان يغص بكثيرين مثلها !

ومكثت على تلك الحال وقتا طويلا .. كانت لا تروم أن تغادر المشفى إلى « إستراحة الإسعاف « قبل أن تطمئن على سلامته وصورته وهو يخطط لها شفتيها اللتين لم تعتدا لون الدم الصناعى ! لا تفارق مخيلتها .. وهوى فؤادها على السلم بين رجليها وهى جالسة على إحدى درجاته عندما علمت أنه فارق الحياة ولم تفلح جهود إنقاذه لتعمق ما ثبت أنه بلية دايم طارت إليه من قنبلة ألقيت فى مكان بعيد نسبيا ! وتشربت خلايا جسده كله ما كانت تختزنه من سموم !

وظلت صورته تطاردها وتظهر لها فى كل مكان .. ولما ركبت السيارة لتنصرف جلست طويلا أمام المقود ولم تدر محركها .. وقد لاحظها أحد الزملاء من المسعفين وأدرك ماتعانيه ففتح بابها ونحاها جانبا برفق كى يقودها عنها وشكرته بإيماءة من رأسها وبدها على قلبها زيادة فى الشكر ! لعجزها عن التفوه بكلمة واحدة ..

لم يسلها المتطوع الكريم وجهتها فقد كان يعلمها وقادها وسط الظلام دون أن يستعمل انوارها مخافة أن يتصيدها صائد إكتفاء بأنوار الحرائق الطبيعية التى تفضل عقلاء جيش الدفاع الإسرائيلى بإيقادها للناس لتحقق هدفين الرؤية والتدفئة .. مازحها قائلا :

- عصفورين بصاروخ واحد ! ويا بخت من نفع واستنفع !

تقبلت مزحته ببسمة صغيرة ونفس محزونة كسيرة وأطبقت أجفانها حتى لا يرى الدمع يترقرق فى عينيها اللتين إحمرتا وصار لونهما يضاهى لون أحمر الدم السائح فى الشوارع لبنى الإنسان والحيوان الذى ذكرها بلون أحمر الشفائف ! والذى لا يؤثر فى طبقته التى تخثرت وتجلطت حتى أضحت كالجلد الناشف أقوى المزيلات وأعتى الزوابع والعواصف ! وما أكثر صور الأطفال التى أمدها خيالها بها ورأتها ترتسم كالظلال على أديم الشوارع

والتى انخلع لها فؤادها وتزلزل طالبة من السائق أن يتوقف وهى تفتح بابها لتترجل وتلتقط طفلا توهمت أن السيارة توشك أن تدهم ظله !

ويتوقف السائق فى سرعة كابحا جماح السيارة دفعة واحدة مخافة أن تنزل والسيارة متحركة فتنكفى على وجهها معتمدة باكفها دون ان تلمس جبهتها الأرض أو تجرى خطوات وهى منحنية للأمام تغالب سرعة جسدها التى لم نكن لها مكابح وفى جميع الأحوال كانت تعتدل فى سرعة من خجلها لحظة تنبهها وتعاود الركوب وهى تعتذر وتعد السائق المروع بألا تكرر ما حدث .. مرة واحدة فحسب لم يخنها وعيها فقد كان ثمة طفل إنكبت عليه وحملته ووضعته على جانب من الطريق ثم اكتشفت أنه فى معية أمه عندما صرخت هذه نطلب النجدة ! فأغاثها السائق ووضح لها حقيقة الأمر معتذرا وهزت الأم اللهفى على إبنها رأسها متفهمة وتمتمت مرددة :

- ياعينى !

وهى ترمق هدى بعطف وشفقة لاحدود لهما وسمحت لها بتقبيله وضمه إلى صدرها وهى تنهنه بالبكاء لكثرة ما فقدت تلك الأيام الحزينة من الأطفال ! فشاركتها ألامها ونهنهت معها ! .. وصبر عليهما السائق طويل البال حنى أنتهيتا وتخلصتا كلية مما جاش بصدريهما وما طاش من أعينهما وحرص عندما آبت هذه المرة لجلستها فى مقعدها أن يغلق بابها بالمفتاح المعلق فى سلسلة مع المفتاح المشغل للسيارة ويتلك الطريقة فحسب ضمن أن تفى بوعدها وألا يتكرر منها ماحدث !

- ١٥ -

جلست صامتة لا تنبس أو تريم وطيف الولد الذى قضى لا يفارقها بابتسامته وإصبع أحمر شفاهه ! بذلت جهدها لتخلص نفسها من سيطرته على خيالها فلم تفلح وهيىء لها مرة أخرى أنها تشاهد صغيرا يشبهه فى مثل عمره يجرى ملاحقا عل جانب من الطريق قنبلة صغيرة تتدحرج أمامه كالكرة ولولا سحيبة دخان أبيض تنبثق منها لخالتها كذلك .. توسلت إلى رفيقها أن يرفق بها ويتوقف بحركة يائسة من يدها وتعلقت بساعده وهو يقود فتوقف وهو يلعن هؤلاء الصغار خلفة الجن الذين لا يكفون عن اللعب فى الشوارع الخطرة نهارا وليلا .. وفتح لها بابها بالمفتاح فهبطت وحدها واندفعت صوب الصبى وهى تمنى نفسها أن يكون هو فعلا صغيرها وأن يكون موته مجرد كابوس أو إشاعة مزعجة ! .. ولما أمسكت بتلابيبه وواجهها أدركت أنه صبى آخر وسألته السؤال الأزلى عن أبيه وأمه فأجابها بأنه لا يعرف وأردفت بسؤال آخر عما يفعل بهذا الشرك الخداعى الذى على وشك الإنفجار فيه أجابها فى براءة مبتسما :

- ألعب ! .. أتفرج على ما حدث للشوارع !

- تلعب ؟! .. تتفرج ؟! .. هذه قنبلة يا ولدى فيها الموت ! ..

- لا هذه بمبة كبيرة .. شكلها بمبة !

- بمبة .. أنظر ..

وانثنت والتقطتها وهى تدخن قبل أن تنفجر وألقت بها وراء كومة عالية من ركام التراب ومهروس مواد البناء فسمع لانفجارها دويا شديدا مزق السكون وتغلغلت شظاياها الملتهبة وهى تضىء الظلام خلف الأطلال الموحشة ويبدو أنها أصابت حيوانا راقدا تعالت صرخاته ثم سكتت مرة واحدة وجزعت هدى وبانت على محياها أمارات التألم والتأثر ولامت نفسها بشدة وهى تردد :

- لم أقصد ..

واندفعت تركض فوق التلة لتنظر وما اعتلتها ونظرت حتى هتفت بفضول :

- لا أرى شيئا كأن الأرض انشقت وابتلعته ! بينما أغرق الصغير فى الضحك مسرورا فيما يبدو باللعب معها وصفق بيديه هاتفا لها :

- برافو !

فرجعت إليه من رعدة سرت فى بدنها كأنها خافت أن يطلع لها عفريت ! .. لتجده على حال آخر مغاير فقد امتقع وجهه رعبا وانقلب واربد وما صدق أن تصل إليه حتى ألقى بنفسه بين ذراعيها وصاح بجزع :

- خبئينى .. خبئينى فى قلبك !

وضمته بعنف كأنها فعلا تخبئه مما يخاف وصحبته للسيارة وهى تربت على ظهره لتطمئنه وابتدرها رفيقها الذى كان ينتظر آوبتها على أحر من الجمر قائلا :

- ولد أخر شقى ! .. إسمعى أنا أعرف هذا الولد لا تحملى همه سأجد من ذويه من يتكفل به ..

فشكرته ببسمة كبيرة اغتصبتها رغما عنها والتحفت ثانية بالصمت بينما واصل هو المسير وغبان الطريق لاحظت أن الصغير الجالس فى أدب جم على يمينها يحدق فيها من جانب كأنه يشبه عليها أو يذكر نفسه بأمه وفهمت هى أنه يغالب رغبة فى النوم فهكذا حال جميع الأطفال الذين اقتربوا منها فجذبته وأنامته على صدرها واستسلم لها ونام فى غمضة عين ولف السكون ثلاثتهم إلا من صوت أنفاسهم حتى وصلت الإستراحة ..

وبيت الرجل العربة فى موقفها الذى يعرفه ثم أعاد لها سلسلة المفاتيح فشكرته على صادق معاونته ورد تحيتها بإيماءة وابتسامة وهو يوصيها بنفسها خيرا ! ثم تناول منها يد الصبى ليتأهب للذهاب به ..

ووقفت تتأمل ذهابهما على البوابة والصغير يماشيه مجرجرا رجليه فى وله كانه يهفو للعودة إليها ولا يروم أن يفارقها وبحذر قبلت منه تلك الإشارة العاطفة مخافة أن تتعلق به فتفقده هو الآخر ! ولوحت له بيدها مودعة وفى صدرها جيشان وبعقلها حسبان فأنى لها أن تحتفظ به فى هذا المكان ؟ ووسوس لها الشيطان أن الرجل لن يبر بوعده ولن يسلم الأمانة وفكرت أن تلحق بهما وتسأله العنوان لتقوم بالمهمة عنه بذريعة انها لا تريد أن ترهقه ولكن حال بينها وبين أن تخطو خطوة واحدة رؤيتها خيال الصبى الذى توفى منذ قليل يقف لها فى عرض الشارع مدمما متحفزا رافعا لها ذراعيه فى استجارة وفى عينيه نظرة مرتاعة ينادى عليها قائلا بلهفة وهلع :

- ماما .. ماما .. ماما هدى !

فاجابت نداءه بصوت يقطر حنانا وحبا قائلة :

- نعم ياحبيبى نعم .. نسيت أن أسألك إسمك !

ظهر عليه أنه يود إرسال قبلة لها عبر الأثير لكنه بسبب ما كان يشعر به من الذنب تجاهها تردد وأجفل ولبث على هذا الوضع لا يجرؤ على رفع هامته وقتا بينا راحت هى تستحثه على أحر من الجمر وتشب على قدميها تستعجل إرساله بأصوات مبهمة مثل « هيه .. ها .. مى .. للا ! « حتى تشجع ودنا منها ورفع عقيرته منشدا :

كنت صبيا أرتع فى الحارة .. داهمت أهلى دبابة وطيارة
تأملت ما حولى بعد الغارة .. إندثر بيتى حديقتى وسيارة
تذوقت بشفتى مياها حارة .. لمست أناملى دماء هدارة
افتقدت أبى ظهرا ومنارة .. صدر أمى مخبأ ومغارة
يد أخى شد أزر وإجارة .. جدائل أختى رقى طهارة

هتفت به :

- لو حفظت أسماء الإشارة .. لو قويت إرسالك بشطارة !

واصل هو :

ماعثرت على حى بالمارة .. الأشلاء لطخت أيد معمارة

قاطعته هى بصوت شارد غائب :

فتافيت لحم وعظام منهارة .. أكف وأقدام تطايرت بجزارة

أدار محياه حيث تنظر بمرارة واستتلى :

غبار ودخان نيران دوارة .. وثبت أحدف بالطوب والحجارة
إنهالت على طلقات غدارة .. قرقعت بظهرى شحارير دوارة
دق قلبى إنتفاضة إستعارة .. مقاليع الهلال والرجم بالحجارة
تمتمت بعين الصوت ولكن بطبقة أعلى وأكثر حضورا :
حطام جسور طرق هرارة .. أعلى تل الريح مقادير زوارة
غربان قواذف السوء أمارة .. تندب قليل الحظ بأنين قيثارة

رفع رأسه لأول مرة قليلا وابتسم قائلا :

سألت ربى المدد باستجارة .. أسال بفؤادى عسل وعصارة

غمغمت مكملة له :

عسل العزم عصارة نضارة .. تفتح بالقلب محابس ونظارة

رفع رأسه هذه المرة رفعة تامة وهتف :

فتح التحرير سلطة ووزارة .. حماس الجهاد جبهة دوارة
صاحت بحماس مكملة :
المال لتنظيم مقاومة نوارة .. تمطر القسام لردع الإغارة
قال بدوره مشفقا على نفسه :
نزفت دم الحياة بغزارة .. نار اتقدت بأصغر شرارة
قالت كأنها تذكره :
تسلى محب السامية بجرافة .. دفن جرحى حياة مهزارة !
مشى فينا بالظلام بحرارة .. مداواة الجراح مأساة جرارة
همهم بصوت محزون بغتة :
غبت فى واد الخلود للراحة .. دعوت ان تطول بصراحة !
أفقت على أعين محبة لماحة .. سألت أين أنا بود وسماحة
قالت مكملة له :
قيل مشفى عين شمس دوارة .. بوطنك الثانى مهارة فوارة !
قال بأسى :
أوقفونى بباب إكسير العطارة .. إدفع يا أواب ليتيم البشارة !
قالت بنفس صوته :
ما أوقفهم إسلام عقيدة دردارة .. للعبادة وتزكية النفس والعمارة
معلوماتية رأس المال شطارة .. إستثمار فى العلاج فن وتجارة
قال وقد أشرق وجهه ببسمة أمل :
الكنانة دوما مسقى علم ومهارة .. ما غار لها ماء يوما بظفارة
نحن بتاريخ نعلق بأرحام قرارة .. وبقايانا عالقة بمعابر غوارة
ندعو الله ليعوضنا عن خسارة .. فقدان أهل الحب والحضارة
قالت :
بكيت إغراق الشطآن النوارة .. لمياه الكنانة أم الدنيا والإدارة
ياحكماء ظاهرة النينو إشارة .. لمناخ ساء بحرارة أنفس أمارة
أذابت بشمال وجنوب القارة .. جليدا سال لإغراق بشر بقطارة !
هتف الصبى ببشر ولهفة وهو يلوح لها قبل أن ينقشع طيفه ويختفى :

- إسمى أيام دول دوارة !

تلقت إسمه بفرحة طاغية كما لو كان قد أدلى بسر الحياة ! ثم انبرت راضية تصعد السلم إلى غرفة الفتيات وتمنى نفسها بنوم هادىء بستجمع أعضاء بدنها المكدود بمجرد أن ترميه على السرير .. لكنها لتوها لم تنم كانت تنتظرها بالغرفة مفاجأة مفرحة على يمين ويسار سريرها ..لم تصدق عيناها هتفت وهى تثب كالفراشة من الفرحة :

- أريكا .. اولجا .. يا إلهى ما هذا الخير الكثير !

وتحيرت بمن تبدأ الارتماء فى الأحضان وكلتاهما تفرد ذراعيها على وسعهما ! وحزمت أمرها فالبداية دوما تكون من اليمين وخاصة أنها مدينة لصاحبته التى غادرت بعيدا وهى بين الحياة والموت بسببها ..

- حمدا لله أنك برئت وعدت لممارسة نشاطك الإنسانى ثانية يا أريكا !

واستعبرت باكية ولكن تلك المرة من الفرح وفؤادها يلهج مضيفا قبل لسانها :

- أريكا ! .. أريكا الطيبة الحنون !

وجاوبتها أريكا بعين اللهجة وهى تقلبها وتنقلها يمينا ويسارا أيضا فى أحضانها كأنها هى الأخرى لا تصدق أنها عادت بشحمها ولحمها قائلة :

- هدى .. أه ! .. برفق أنا لم أشف تماما إ .. معجزة أن أعود لاستكمال العلاج هنا ولأراك مرة أخرى .. كيف حالك .. طيبة ؟ .. ولكن حيى أولجا أولا !

غمغمت هدى وهى تستجيب لطلبها :

- لو أنك لا سمح الله .. آه .. لما سامحت نفسى العمر كله .. معك حق أولجا تنظر ..

وتحولت للثانية تحييها بعين الطريقة والحرارة مع أنها لم تتعرض بسببها لمثل ما تعرضت له أريكا وتمتمت :

- أولجا !

- سعيدة لرؤياك ..

- وأنا أيضا ..

هذه والله كانت ليلة عامرة بمشاعر دافئة لم يستشعرها ثلاثهن منذ مدة طويلة كأنها ليلة مغتصبة !

قد سهرن يرتشفن الشاى ويتجاذبن أطراف الحديث عما وقع لكل منهن إبان الأيام التى قضتها وحيدة تعانى من قروح وجروح الحرب ضروبا ..

نعم ثلاثتهن عانين منها بصور متباينة ومختلفة لكنها بقيت كما هى فى الحقيقة مادة جراح ! ..

ولعل النوع المعنوى منها كان أشد فعلا وإيلاما واستعصاء على العلاج وهذا ما نبههن إلى أهمية أن تحتفظ كل واحدة منهن بقصتها وذكرياتها لقابل الأيام ذخيرة لنفسها ترفع به مستوى معناوياتها ومناعتها حيال المآسى والخطوب أو تحكيه على سبيل العبرة والدروس لما يستجد منسوبا لها أو لبنى جلدتها من أبناء وحفدة ! ..

دارت أحاديثهن حول هذا المحور وانعقدت الكثير من الآمال حتى بدأن يتثاءبن ويتلاعب بأجفانهن النوم الذى غلبهن فنمن نوما عميقا لم ينعمن بمثله قط منذ وقت طويل للصباح ..

وانعقدت كذلك آمال مؤتمر قمة غزة الطارئة فى الدوحة بمن حضر من ملوك العرب والرؤساء والأمراء برئاسة الأمير القطرى وحضور الرئيس السياسى لكل من منظمتى حماس والجهاد ورئيس إيران وتغيب رئيس السلطة الفلسطينية يوم الجمعة الموافق ١٦ / ١ / ٢٠٠٩ .

وبعد ذلك بيوم واحد يوم الأحد رد الرئيس المصرى الآمال بعقد مؤتمر عالمى للدول الأوربية بشرم الشيخ ضم رؤساء تركيا وانجلترا وفرنسا وألمانيا واسبانيا وإيطاليا والتشيك باعتبارها رئيسة دورة الاتحاد الأوربى وسافر رهط الرؤساء هؤلاء إلى قادة إسرائيل لحثهم على قبول مبادرة مصر وإيقاف النار .

وفى اليوم التالى أنعقد بالكويت مجلس قمة العرب بأملين اثنين هما نصرة غزة والوجه الاقتصادى بحضور جميع ملوك ورؤساء وأمراء الدول العربية بما فيهم سوريا .. وقال الملك السعودى كلمة مؤثرة عقد فى أعقابها غذاء تصالح بين رؤساء الدول المتخاصمة ! وأهم مقررات المؤتمر : العمل على حث الطرفين الفلسطينى والإسرائيلى لوقف إطلاق النار والمصالحة الفلسطينية وإنشاء آلية لإعمار غزة تبرعت فيها السعودية بمليار دولار .

قد أصبح وشيكا إتخاذ العدو القرار الذى طال انتظاره بإيقاف النار من جانب واحد. بعد إحراق وتدمير مدن وقرى القطاع مرات عديدة لدرجة شكوى طياريه وجنود مدفعيته فى البر والبحر من صعوبة العثور على هدف للقصف ! .. وتجاوز الأهداف المحددة بتسوية كافة المبان الحكومية والمدنية والمنازل التى تأوى أهالى رجال المقاومة بالأرض إلى تلك التى تقع حولها فى محيط دوائر اتسعت أكثر من اللازم لمدنيين عزل

أغلبهم من الأطفال والنساء والعجائز وتحولت الأطلال وقطع الخرسانة الكبيرة إلى أكوام من مهروس وناعم مواد البناء لقصفها وجندلتها وغربلتها بقنابل محظورة مثل الفوسفور الأبيض والدايم وكأنها تعرضت للطحن فى آلة جبارة المحور موسوعية الرحى !

***

- يا إلهى ماذا حدث لى .. أرى الدنيا اكفهرت كلها .. حزن كبير يفترسنى ! .. ولم تفلح عودة أريكا واطمئنانى إلى سلامتها ومن ثم براءتى من تهمة تسببى فيما أصابها إلا فى تخفيف بعض الحزن وقتيا ! ..

صباح يوم عذاب آخر .. صباح جديد غابت شمسه ! .. وأسراب الطائرات الحائرة تملأ سماء غزة وتساهم فى سد الأفق وغياب الشمس مع سحب الدخان الأبيض الذى تنفثه وتلك المتخلفة من حرائق سابقة لا تريد أن تهمد منذ بدأت الحرب ! .. رباه .. يبدو أنها تبحث عن هدف سليم فى غزة تضربه ولا تجد ولذلك تطير فى كل مكان فى عصبية وتبدوا أكثر عددا ! .. إسمع أنت هناك ! .. أنت .. أتسمعنى ؟ .. أم أصاب أذنيك صمم من كثرة أصوات الانفجارات والانهيارت والاستغاثات !

- من ذا غيرى يبيع الفل والياسمين .. يا أبناء من زرع وما حصد !
- فل ويا سمين فى هذا الشتاء الدامى ؟! .. يا للرجل الغاوى !
- سؤال يطرحه أقصى الحنين .. ورسالة أسير الأمس والغد !
- ماذا ؟!
- أهى قوة ناعمة للحلم الدفين .. فريضة ذل بالشموع والورد
أم حفر بأساس الروح الأمين .. والبحث عن هيكل دين أوحد
تجاهل علوما تصور الجنين .. فى رحم أمه بنتا هو أو ولد
بوطن من شطر الزمن المكين ..لأعداد لا نهائية اسمه أحمد
ليصور تفاعلا بسرعة يستبين .. فكيف بهيكل بحجم المعبد ؟
- تبيع بالشعر ! .. ولك قلب يشعر ولا تسمعنى ؟!
- انا نساج در الكلام الثمين .. أجيبوا يا أحفاد وطن الوعد
أمن وضع يده آلاف السنين .. كمن أخلى رجله فى المهد

تتباكون بحائط البراق المنين ..على ماض دفنه الجد بوجد
وشتات البوار بأرض لتنين .. تآكلت أنيابه لطول ما سرد
إستشعر دنو الجلاء المبين .. دق أوتادكم بظهور من حمد
لبيقى محتلا حول من يدين .. بالتوحيد وأول قبلة لمن سجد
- لا .. هذا ليس مجرد كلام للبيع .. ياهذا .. ياهذا .. لم توقفت ؟!
- هل أستمر ؟!
- نعم !
- أنا مبدد أحلام يقظة المغرمين .. رداد أعقاب من بالزور شهد !
- هاقد بدأت تهاجمنى .. أحلام اليقظة تبددت من زمان يا أخ .. الآن أنا إنسانة أخرى !
- شاكيد وصابرا من دير ياسين .. وشاتيلا لقانا وغزة جراح الأبد !
- شاكيد ؟!.. آه تقصد مفرمة دهس أسرانا بحرب سبعة وستين بالدبابات ودفنهم بالجنازير أحياء ! .. أفهم هذا .. ماذا بعد !
- من أبدل بالرباعية أمم المتحدين .. لحل بحصار يمكن من جلد
من خطف الخبز من أيد معدمين .. ووزع الشوك بأسرة الورد
ومخاطبة سكان مقابر مجاورين .. لدفن أنين من جاع وانفرد
وعطايا خفية لشراء ذمة ملايين .. فهمها وهى طائرة أولاد بلد
رجموا منتديات تطبيع الراقصين .. هواة الغطس بالبحر الأسود
سياسات لم تمنع إغراق السفين .. وإطفاء شمس بعين من صمد
- نه .. نه .. نه !
- تبكين ؟ .. هل أستمر ؟!
- نعم !
- جعل الله السبت على الذين .. أحرقوا راية الأمن من قديم الأمد
سيبعث من أفئدة المحزونين .. عبادا يدخلون المسجد بمن جهد
بقدس عاصمة وأوبة لاجئين .. لحيفا ويافا وعسقلان من زهد !
وجبلا يكبر يا شعب جبارين .. الريح لا تهز السفح بمن صعد
كتبها الله ثانية لعباد مؤمنين .. جاسوا الديار مرة فى زمن بعد
- نه .. نه .. نه !

- أنت لاتكفين عن النهنهة ! .. دموعك ملأت السيارة وأنت واقفة !
- وماذا بعد ؟!
- بعدها ينشط بائع الفل والياسمين بضم الغلة والزيتون والشهد !
- حسبنا الله ..
- ونعم الوكيل !
- والآن أخبرنى .. هل الطريق مغلق ؟
- كل الطرق مغلقة .. إليك فلة !
- شكرا ..
- ما خلا شارع عبد الناصر المؤدى ألى محور صلاح الدين .. ولكنى سمعت أن هذا الأخير بقرت بطنه من كثرة قصف الطائرات له !
- لهدم ذكرى الأنفاق بين رفح ورفح ! التى هدمت من قبل !
- نعم .. لم يعد هناك عمل لهؤلاء الذين تكلفوا فى حفرها وبنائها ملايين الدولارات !
- والرجال ؟ .. أقصد الذين كانوا يعبرون منها الحدود كيفما شاءوا ..
- والنساء أيضا .. أنت لديك فكرة عميقة يا راكبة الإسعاف !
- بل قل يا رجلة الإسعاف ! .. تعرفنى ؟! .. وتعرف أن ثمة طفل لى تركته وديعة عند أم عمار .. طيب قل لى كيف أصل عطفة أبو عمار من هنا ولا تسلنى كيف لا أعرفها وابنى هناك ؟ .. طيب .. يا أخى أعذرنى معالم الشوارع تتغير بالقصف كل يوم !
- تتكلمين كثيرا .. كفاك ! .. أنت واقفة فى الشارع الموازى للشارع الذى تقع فى نهايته تلك العطفة أيتها السيدة الثرثارة العاطفة !
- آنسة إذا سمحت !
- كيف تكونين آنسة وأما ؟
- بقدرة قادر ! .. شكرا ! .. سلامه عليكم !
- وعليكم السلام عشنا وشفنا أمهات أوانس ! .. إليك يا سمينه !

***

- جدتى .. أبن أنت ذاهبة يا جدتى ؟!
- أبحث عن حفيدى محمد .. ألم يقابلك بالشوارع الخلفية ؟ .. طفل صغير .. ! .. محمد !
- قابلت الكثير منهم .. محمد ليس منهم ! .. لكن أية شوارع خلفية وقد تاهت معالم الشوارع تماما !
- أين تتوجهين بإسعافك ؟
- وارد الصباح جريح من منطقة المزارع الغربية على شط البحر وأنا فى طريقى لمستشفى الشفا !
- طيب .. إعملى في معروفا وخذينى معك أبحث عن حفيدى هناك ! وأجرك وثوابك على الله فهو حسبك ..
- ليكن .. إركبى إلى جانبى ! .. هو حسبنا ونعم الوكيل لنا جميعا ..

***

- أبى أو جدى لست أدرى ما يسرك ؟! .. أين أن ذاهب بعكازك ؟!
- عكازى هو الذى يسوقنى ! .. أنا أعرفك .. أنت حسناء الإسعاف .. إحذرى يابنيتى فإن عين الأعادى عليك حارة وإذا لم يصلوا لغرضهم منك سيقتلونك !
- أعلم ما يبغون وهكذا يخدعون أنفسهم !
- أنت أكيد معك مصاب المساء ! .. وارد من حى الزيتون ! وطريقك مشفى ناصر .. خذينى معك يرحمك الله .. سمعت أن حسن إبنى هناك بين الحياة والموت !
- إبنك حسن .. إبنك حسن ! .. أأنت أبو حسن ؟!
- وزوجتى بسلامتها أم حسن ! .. أتعرفينها ؟!
- أعرف إبنك .. آه .. أعتقد أنه هناك من قبل الظهر !
- إنت إذن تعرفينه ؟ ..
- ألم يكن فى جباليا ؟!
- نعم فقد زوجته وأبناءه التسعة فى بيت لاهيا !
- آه .. بيت لاهيا فى الحى القريب من جباليا ! .. تسعة ؟!
- ماهذا الخلط ؟ .. أأنت التى حملته جريحا حقا قبل ظهر اليوم !

- ولكنى أعتقد أننى سمعت بذلك .. تسعة ؟!
- فى عين العدو !
- قذاف ليبيا عنده حق .. أنسب حل للعرب وفلسطين دولة إسراطين !
- إسراطين إسراطين فقط خذينى معك وأجرك وثوابك عند الله فهو حسبك !
- ونعم الوكيل .. إركب .. نعم إسراطين نعم !

***

- من فضلك .. خذينى معك للمشفى !
- صديقى .. يبدو أنك صحفى ! .. كاميرا وصيرية حديد وخوذة وباقة ورد جميلة لمن ؟
- أنا من قناة الأقصى ! .. وباقة الورد لشهيد القناة ..
- عزائى فى شهيد القناة !
- أسمعت كم خسائر برج الإعلام ؟ .. لم يبق من أهداف غيره .. قصفوا عين وأذن غزة !
- وأنفها وحنجرتها ! ..
- من قال لك هذا التشبيه .. يخيل إلى أنك تعرفين .. ؟ ..
- أولجا !
- بالضبط .. هى صاحبته .. يرحمها الله !
- ماذا ؟
- متى آخر مرة رأيتها ؟!
- ماتت ؟
- يرحمها الله !
- نهيىء .. نهيىء .. نيهىء .. نه .. نه .. نه !
- البكاء لا يليق ! .. الشهيد نزغرد له .. هناك صحفى آخر أسنشهد .. وعشرات الجرحى من الصحفيين التابعين لنا ولوكالات الأنباء العالمية ! .. آه .. هاته الصغيرة .. حاذرى إنها لا تكاد تبين من الأرض !
- وأين هى الأرض ؟! .. ياربى .. هؤلاء الصغار يتحركون فى كل مكان كالدجاج الشارد

من حظيرته !
- أو كالقطط السائمة !
- أو كالكلاب الضالة !
- وأين هى القطط والكلاب ؟ .. لم نعد نرها .. نفقت عن آخرها ..
- والفئران أيضا .. نفق منها الكثير وما بقى يتكاثر بسرعة هائلة .. ولم تعد تخاف من أحد لأن الأغلبية معها !
- رباه يا نصير الضعفاء أنزل الغيث .. رحمة باردة وسلاما يطفىء الحرائق ويروى الناس .. ويعلم القساة الذين تحجرت قلوبهم كيف تكون الرحمة المكون الأساس للعدل ومن ثم الأمن !
- آمين .. ياحبيبتى يا أولجا ! .. نه !

***

- أين أنت ذاهبة يا وجه الخير ؟
- سيدى أنت الذى لوحت لى أن أقف ! ..
- أوقفتك لتعلمى منى أن الشارع مغلق ..
- وشارع المطار والبحر .. ؟
- مغلق ..
- وشارع الوادى والوحدة .. ؟
- مغلق !
- وشارع الحب والغضب .. ؟
- الأول بالذات مغلق منذ زمن ! .. والثانى زاد عن حده فانقلب لضده .. !
- وماذا بقى لنا من آمال ؟
- لا شىء ! .. كل دروب النجاة مغلقة بالضبة والمفتاح ! .. مفتوحة فقط شلالات الدايم والفوسفور الأبيض ! وتلك العناقيد القاتلة الخداعية التى لا تسمى !
- آه .. هذه كانت فى مذبحة قانا تسمى عناقيد الغضب ! .. أما تلك الآن فيسمونها الرصاص المسكوب !

- وسبحان من له الدوام .. إقتربت الساعة .. يبدو أنك لن تبلغى المستشفى إلا بأن تحلمى أن إسعافك طائر !
- قد كففت عن الحلم منذ أيام متأخرة عن كل العرب !
- حسبنا الله ونعم الوكيل !

***

- الضرب اليوم شديد وقاس ومتلاحق !
- يبدو أنهم يتخلصون من كل ما عندهم قبل إيقاف النار ! ..
- من طرفهم ! فلم يعد أمامهم غير القتال على الأرض وجها لوجه ورجلا لرجل !
- هم يخشونه ويتحاشونه !
- تأكد أن المقاومة سترحب بإيقاف النار لإنقاذ الأرواح وما تبقى من مظاهر الحياة !
- بالطبع .. ! .. ستر .. حب !
- إحذرى .. طائرة الإستطلاع هذه مزودة بصاروخ وهى عمياء .. إنها فوقنا تماما !
- أنا أفكر فى هذا الجندى القابع فى العربة المدرعة .. إنه يشير إلي بإصبعه !
- سمعته يقول لرفاقه إنها هى المجرمة الحسناء ! .. كأن بينه وبينك ثأر !
- الطائرة ركبتنا !
- والعربة وجهت إلينا مدفعها الرشاش !
- هذا يذكرنى بجدتنا الحبيبة أم الرشراش !
- أصبنا !
- ولم ينزل الغيث !

- ١٦

- إهدأى يا أخت أنت تجرحين هدوء المستشفى !
- كيف أهدأ وأنا لا أتذكر كل شىء عنه .. ثم لماذا تصيب الجراح الجميع حتى الهدوء ؟!
- من ؟!
- قلت رجل إسعاف لامثيل له !
- كل رجال الإسعاف لا مثيل لهم تلك الأيام .. وأنت أيضا !
- أنا رجلة إسعاف ؟!
- تقصدين رجل ..!
- لا .. أنا رجله .. ورجله !
- معلوم ولا تغضبى أنت كما تحبين .. قد قمت بأعمال بطولية يا رجلة إسعاف الجرحى من رجال المقاومة !
- صحيح .. كيف .. لا أذكر .. أين عثرتم علي .. ألم أكن فى الحفرة أحلم !
- حفرة من يا حبيبة .. كنت فى المواقع الشمالية على خط المواجهة حيث تطلق الصواريخ !
- مستحيل كنت فى حفرة من رياض الجنة ! أحلم بموسيقى ملائكية وأبرار طيور ترف بأجنحتها وتزقو بالرحمة ورجال ونساء شهداء يغنون فرحا بما آتاهم الله من رزق !
- هذا لم يكن حلما .. يبدو أنك نسيت مرحلة هامة من حياتك !
- مواقع شمالية على خط النار ؟! .. صواريخ تنطلق ؟!
- نعم غرب بيت حانون .. وبيت لاهيا !
- وبيت موسى هل ولجته ؟!
- موسى ؟ .. من ؟!
- موسى إبنى من أم الرشراش الصغرى على مقربة من بيت لاهيا ! .. ألا تعلمين أن الله رزقنى بإبن لا مثيل لجماله ؟! .. كيف لاتعرفين وأنا التى كنت أريدك أن تحكى كل ما وقع !
- فيما بعد .. لما أخلو من عملى ..
- رباه .. من أنا ؟!
- أنت هدى تل الهوى !
- الهوا بالألف يا آنستى !

- أنت إذن تسمعين بعينيك !

***

- ومن هذا .. من هذا ؟ .. كأننى أعرفك يا هذا ! .. رباه يا مبدع الشمس هذه البسمة الوضاءة أعرفها ! .. صدقت أريكا المسكينة ! .. هادى ! .. أخيرا جئت تتزود بالعقاقير يا هادى .. ولكنك لست طبيبا ! .. آه .. نسيت بكلية الزراعة تعمقنا فى دراسة الأحياء والكيمياء والعلوم الأساسية لطب الجراح ! .. والتطعيم بالقمم النامية والأصول القوية المقاومة ! والبتر والتقليم للزوائد التى تصنع تزاحما يعطل مسيرة النمو ! .. أو الأطراف المريضة التى جفت من نقص الحب وترياق الحياة ! .. هادى !
- بأمرك ياحبيبة قلبى !
- أنت هنا ياهادى .. فى المشفى ؟ .. قل لى يا هادى بربك من أنا ؟! .. ماذا حدث ؟
- لا أدرى القصة من أولها .. لكننا وجدناك بيننا على خط التماس مع العدو تقودين سيارة إسعاف وتخلين المصابين الذين لا أمل فى مداواة جراحهم بالمواقع و..
- رأيتنى ؟!
- طبعا بعد أن تسمرت فى مكانى بجوار البراميل التى نتخفى بها ونحن نطلق الصواريخ من فوهات ممرات وأنفاق معسكراتنا تحت الأرض ! .. تسمرت ذهولا بعد أن تأكدت من إنحراف زاوية شفتيك وأنت تبتسمين فى خجل أنك أنت .. أنت ؟! .. وتقودين إسعاف ؟! .. كيف تسنى لك ذلك هدى ؟! .. قد قمت بعمل أفخر به !
- وماذا عنه ؟
- من ؟
- قائد الإسعاف الحقيقى ..
- أكان هناك رجل ؟ ..
- أجل فى عمر أكبر منك والإسعاف كان له .. هل رأيته أو بلغك عنه خبر ؟ ..
- ياخبر ! .. رجل ياهدى ! .. أما والله ! .. وأنا .. لا معقول .. متى كان ذلك هدى ؟ ..
- عندك لا تزد كلمة ..آه .. تشعر بالغيرة ! .. أتظن ! .. هدى ؟! .. وفى هذا الهول وتلك الفظائع ! .. يا للزوج الغيور المسكين مع وقف التنفيذ ! .. قل لى أنت متى رأيتنى أول

مرة على الجبهة ؟!

- يوم .. من أوائل الشهر .. ر .. ربما يوم سبت ؟! .. آه .. سبت .. سبت ! ..

- أه .. يا قلبى !

- سلامة قلبك !

- تذكرت يوم الإنفجار ..

- أى انفجار ؟ .. الانفجارات لا تحصى .. أخبرينى اسمه وسأستعلم عنه ! ..

- لا .. هذا الإستعلام أتولاه أنا فأنا أفهم قصدك !

قالتها وهى تعالج النهوض عن الفراش بيد أنها مرة أخرى أخفقت وتساءلت بعذاب كمن يطلب نجدة :

- ماذا بى ؟ .. هادى .. هل فقدت أطرافى ! .. خصرى لا أستطيع تحريكه كأن فقراته إنكسرت ! .. بالله أجبنى هل فقدت عمودى الفقرى ! .. بالله أخبرنى ماذا وقع لى بالحفرة ؟

- أية حفرة ؟! .. تدعين أنك تذكرت كل شىء ثم تعودين ويتوقف عقلك عندها !

- ذلك أننى وددت لو أن الزمن توقف وثبت عندها وبقى حيا !

- هدى عيب عليك لا تتحدثى عنه هكذا أمامى .. ربما أنك مصابة بنوع من فقد الذاكرة يشبه جنون حسونه الفطاطرى فى ذلك الفلم السين مائى .. ساعة يروح وساعة ييجى ! .. أنا الذى كنت أتيه بك فخرا وأقاصيص بطولتك وعدم تهيبك الموت الذى كان يطاردك كالباشق فى كل لحظة على كل الألسن .. وأنت تخترقين بالإسعاف المتين الحرائق وتقفزين به فوق المخاطر والانهيارات الأرضية والفوق أرضية من الشظايا المتطايرة والدخان والغبار ! .. كأنك فارسة الحصان مع فارق بسيط هو لونه الأبيض لا الأسود ! .. إنهار كل شىء يا هدى إلا أنت .. أما الآن فأخشى ما أخشاه أن أتصور أنك تنهارين فى عينى !

- فعلا الآن أنا منهارة !

- بل أنت أسلم مصابة ! .. بفضلك نجا الكثير من الرجال بمن فيهم أنا !

- أنا .. أنت .. بفضلى ؟ .. لا أدرى عم تتحدث ؟! .. دعنى وشأنى أنت تأبى فض تلك العقدة فى لسانك ! .. أنت .. لا تبل الريق ! .. ولا .. ترد الروح مع أنك تخشى أن ترانى أنهار !

- لا تشيحى بوجهك عنى بربك ! .. هدى من فضلك واصلى حديثك معى أنت حقا أنهار .. أنهار معطاءة ! .. أنهار تنبع من أنهار الجنة ! .. بالله لا تأخذك تعسيلة أو تغييبه لا أدرى !

- أ .. ن .. هار !

- هار .. ليكن فاتك أن تسمعى أننى كلفت من يبلغ عمى وعمتى أنك بخير !

- صحيح ؟!

- إذن فأنت يقظى !

- وكلى آذان صاغية !

- آه يا مكيرة تريدين جذبى من أنفى .. لك حق فأنت زوجتى ! .. طيب .. طيب مع وقف التنفيذ .. لا تغضبى !

***

وخيل إليها وهى فى تلك الحال بين النوم واليقظة أنها تسمعه ينادى على إحدى المرضات قائلا :

- آنسة .. آنسة ! ..

- ما تريد أنت أيضا ؟! .. أنا مشغولة لشوشتى ! .. قلت لها أنا لست خالية الآن ..

- لا أدرى ما بها .. لقد ذهبت ..

- وذهب هو أيضا .. لكن بعيدا !

- من .. من ؟

- من كانت تردد إسمه فى هذيانها وصحوتها !

- من .. هادى ؟!

- هادى .. آه .. سمعت هذا الإسم أيضا فعلا .. سمعته يتردد على لسانها وهى تهذى فى الغيبوبة مرة واحدة ! .. لكنها كانت تردد على الدوام إسم ..

- هيه !

- دعنى أتذكر ! .. أبو .. آه .. أبو رياض !

- أبو .. صح قالت عنه أنه رجل يكبرنى ! .. لكن ما قصته معها ؟!

- معها ؟ .. أهذا كل ما يهمك .. هكذا أنتم يا صنف الرجال !
- أنا زوجها !
- لا يبدو عليك ! .. ينقصك الإيمان والثقة .. يا أخى إخجل من نفسك هذا كان معلمها الذى علمها الإسعاف ومن أجله إخترقت المخاطر ولم تهب الموت فوهبت لها الحياة لتعود بأكبر عدد من الجرحى على الجبهة ! .. هذا من ترك سيارته ورحل كأنه لم يكن فى الدنيا يوما ولم يكن له سيرة أو أثر وتبخر !
- أين ؟!
- أين ؟ .. إلى حيث يذهب الرجال الشجعان تلك الأيام يا عزيزعينى ! .. أما أنت فباق لتدعى أنك زوجها ! .. أين سؤالك الثانى لتطمئن إلى أنها لن تعود تعرفه فى الآخرة ! .. يا أخى إخجل من طولك وعرضك وشاربك الذى يقف عليه الصقر ! .. هو حى نال الشهادة .. لكنه من الدنيا تبخر ! .. استرحت الآن .. فكنى بقى من أغلالك ألا ترانى مشغولة ؟!
- ياللأسى أستشهد !
- وزغردت له قلماذا تراجعها ولم يكن له من أهل فى تلك اللحظة الفارقة من حياته غيرها ؟ .. يبدو أنك ابن ناس !
- طبعا إبن ناس أمال إبن قلقاس !
- ولك عين تهزل .. أطلق سراحى يرحمك الله .. أنت تسد طريقى بجرمك الفحل .. يا فحل !
- كنت أحب التعرف إليه !
- تستطيع وأنت تعرف طريقه ! .. رحمة الله عليه !
- رحمة الله عليه حيا ! .. ألف رحمة !
- نعم هكذا ليعتدل حصانك .. أعنى لسانك فقد يكون سامعا ما نقوله الآن ! .. أتعرف هناك من يدعى أنه لم يكن هو الذى أستشهد وإنما آخر يشبهه !
قالتها المرضة الثرثارة وأولته ظهرا يهتز من الضحك فتغيظ وتشكك ! وخيم الصمت بينا شرد هو بذهنه بعيدا يفكر فى تنوع الآثام ! ولم ينتبه لنفسه إلا عندما تحركت هدى بالفراش وراحت تنادى بصوت خافت لكنه مسموع :
- موسى .. موسى .. أين أنت يا بنى الحبيب لأرضعك ! .. اللبن كثير وصدرى تحجر !
فهب واقفا من جلسته بقربها على السرير وقد استولى عليه الذهول والانزعاج الشديدين

وزمجر موجها حديثه إليها :

- إبنك .. لبنك .. ترضعينه .. صدرك .. تحجر ؟!

وخطا نحوها كأن به مس ويوشك إتيان فعل مجنون وأردف وهو يقضقض بأسنانه :

- فعلتها ياخاطئة ! .. أنا لن أدعك على ذمتى بعد الآن !

واستنكف متسائلا بعد برهة كأن عقله رد إليه :

- لكن كيف تنجبين طفلا فى أيام ؟ .. أأنت ماكينة تفريخ جهنمية ؟! .. رباه أيكون فى الأمر خديعة ؟! .. خدعنى كبير فرع عائلة النجار بمصر ! .. مستحيل .. أفيقى يا بنت وقولى لى الحقيقة !

أتاه صوتها وانيا كأنما من بئر سحيق وعاتبا كأنها سمعت ما فاه به :

- أمعقول هذا .. نمشى حتى تدمى أقدامنا سعيا على الأشواك وراء من .. آه .. الكلمة أكبر منك ! .. ثم نتعرض فى طريقنا لنيران وسلخانات العدو ونحترق ونذبح لنخدع ونغش من .. آه .. فعلا الكلمة كبيرة عليك وفضفاضة وجرمك الفحل تائه فيها ! .. أنا هدى . أتفهم يا ! .. أكيد إسمك أكبر منك هو الآخر ! .. حقا صدق من قال عن الرجال .. يبقون أطفالا مهما كبروا !

وهمست لنفسها :

- إذا لم أكن مخطئة فهو يريد أن ينقلب على لسبب غامض تافه .. يا للخسارة !

وكأنه عجم دخيلتها وقرر أن يصدمها هتف :

- يا هدى المسعفة النادرة التى يبدو أنها فقدت جزئيا ذاكرتها .. يا حلم المستقبل .. يا زوجتى الحبيبة .. أفيقى .. أنت فى العريش !

إستدارت عيناها دهشا وغمغمت بصوت ذاهل :

- العريش ! .. لا لن أفقد موسى !

- موسى .. أه ! .. ذكر أخر !

عارضها مترددا شبه عاتب وأضاف متسائلا على إستحياء :

- موسى يرضع ؟!

- نعم وكل من عرفتهم هناك من الذكور ! .. فارقنى بقى ! .. يا بابا .. يا ماما ! .. ألحقونى ! .. الراجل ده حيجننى !

- طيب إهدئى .. إهدئى .. بابا سيتأخر قليلا .. كان بجامعة القاهرة عندما أخبرته وهو فى

طريق العودة لا يصدق أنك عدت ! ..

- وماذا كان يفعل أبى بجامعة القاهرة ؟!

- يحضر دكتوراه !!

- ماذا ماذا تقول ؟!

- أقصد يحضر بعض المراجع والكتب لمروان البرغوتى فهو صاحبه !

- القائد الفلسطينى !

- أجل .. يا هدى .. صدقى ما أقول .. أنت لاتعرفين تماما أهلك ! .. مروان من أعز أصدقاء والدك وهو يعاونه ويبعث له مع نفر من أقاربه عن طريق النفق الذى تعرفينه كتب وأبحاث لزوم رسالة دكتوراه يعدها مروان بجامعة القاهرة !

- رسالة دكتوراه فى الأسر !

- وماذا يمنع العلم يطلب من المهد إلى اللحد !

- إلى وليس فى !

- وكتب شعرا !

- من ؟

- النجار الكبير طبعا .. كتب فى مروان ورسالته النضالية والعلمية شعرا ! .. أتحبين أن أقول لك بيتا أو بيتين !

- قل وأمرى لله !

وقف أمام النافذة حتى لا ينظر إليها وهمهم :

- القصيدة بعنوان : أسمه مروان وثاب الدبيب .. إسمعى !

هبـوا قيـاما لأسـير نجيب .. إعتاد فى الأسـر أن ينتصر

ألقــوه بالجب قائـما ليغـيب .. غافـلهم وبدرب يوسف ظهر

شعلة بظلام النفوس لترغيب .. قوم يعوزهم الجهاد الأكبر

توقف ليرى أثر هذا القدر من القصيدة عليها فهتفت بصبر نافد :

- أكمل ..

غمغم وهو ينفض يديه كأن الكلام يأكل أنامله :

- ما خلاص !

صاحت مستنكرة :

- ثلاثة أبيات وتقول قصيدة ؟!

عاجلها موضحا :

- مهلا .. إنه يحتفظ ببقيتها لما بعد حصول البطل على الدكتوراه !

إفتر ثغرها عن ابتسامة عريضة وتمتمت :

- أبى عقلية كبيرة ومتفتحة ! ..

قال مفجرا مفاجأة أخرى :

- كان على علم بكل صغيرة وكبيرة عنك بما نقله إليه الغزاوية أصحاب الأنفاق وأصحابه من أخبار ..

- رباه ! ..

- وكان أحيانا يتسلل من النفق ويتابعك بنفسه ! ..

- رباه ! .. معقول !

- كان بمقدوره أن يعيدك للبيت فى بضع ساعات وهو قابع بورشته .. لكنه تركك لحريتك واختيارك !

إكتحلت عيناها بزخم الأبوة بغتة .. قالت كأنها تزهو بأصل وجودها :

- صحيح العلم نور وجهاد ! .. وهو يعادل الشهادة والنصر معا عندما نفاضل بينهما !.. إنه طريقنا المباشر للخلاص وصراطنا المستقيم للجنة ولا أمل لنا غيره فى الرقى والتقدم والعدالة والحرية !

- ماذا .. ماذا أسمع ؟!

- خليك فى حالك ! .. أنت لم تقل شيئا عن أمى زينه .. لماذا لم تحضر لترانى .. ألم أوحشها .. ألم تعلم بما أنا فيه ؟!

- إنها منذ بارحت الديار وهى توزع الدموع على قاعات البيت والبيوت المجاورة ! ولكنها لا تملك المجىء وحدها .. تعلمين أنها أمينة فى غيبة سى مجاهد ! .. وتنتظر على أحر من الجمر أوبته من مشواره العلمى لتضع رجلها على رجله وتجىء !

- رجله ؟! .. لماذا هذه الألفاظ البيئية ! .. أبى رجل أخضر ومفتوح على كل المجتمعات والثقافات .. فقط هو يعرف قيمة المرأة ! .. لا أدرى ماذا حدث لك وتصر على إشعارى بالخسارة !

- على العكس أنا فخور بك وبشجاعتك التى فاقت كل حد مألوف عن بنات العرب !

.. وعلى فكرة نسيت أقولك أنهم يعدون العدة للإحتفال بك على مستوى المحافظة .. والمحافظ وشيوخ القبائل سيأتون لزيارتك وتكريمك ! .. إستعدى بكلمة مناسبة تقولينها لهم !

- الذى فاق حد المألوف هو مفاجآتك هذا الصباح يا صاح ! .. وسأقول لهم أنا لا أستحق كل هذا التعب .. وأنهم لو أنصفوا لكانوا فى طليعة قوافل الحرية .. لفك الحصار الوحشى المضروب على غزة برا وبحرا وجوا بحجة دواعى الأمن !

تنهدت ثم أردفت وهى تحملق فى اللامنظور :

- الجراح عميقة والخسائر كبيرة ! ..

والأخطاء لا نهاية لها .. وأول الأخطاء وآخرها طول الأمل !

وباتت تحصى لنفسها خسائرها من جراء تلك الحرب وترتبها حسب أهميتها بالنسبة لها ..

جنبت الخسائر البشرية ! ونظرت لترى أن خسارتها الأعظم هى فقدها لمقدرتها على الحلم فى مواجهة الواقع المأساوى الذى عاشته !

قد كانت فى أى وقت تشاء تحلم بما تشاء لكنها الآن تساوت بمن يعيشون حياتهم كالأنعام ! .. حلوة مرة يستوى الأمر هى أيام وتعدى والنهاية معروفة لكن لا أحد يعمل ليوم قيامته !

***

ليس صحيحا ما توهمته .. حلمت حلما بأبى رياض .. بالإنفجار .. بالجنازير التى راحت تهيل التراب وتضيق عليها الحفرة وقفصها الصدرى يوشك أن يتكسر كأعواد العسلية أو السمسمية .. والشجرة التى جثت منكفئة على أكف أوراقها ذات الأعين الدامعة ! .. وما رأته (بعد مرور القول المعادى وابتعاده) فى الغور خلف التل الترابى .. لا بل فوقه فقد تكفل تفريغ هوائى ضاغط من الإنفجار برفع السيارة لأعلى حتى أسكنها فسيح قمته ! .. وخطر بذهنها خاطر عجيب فقالت لنفسها :

- قد أنقذها لأنها من حر مال الاتحاد الأوربى ! .. أما السائق فألقاه خارجا لأنه لا يساوى شيئا !

وسكتت هنيهة تفكر ثم استطردت :

- وقد تكون قدمه .. آه .. قامت بتثبيت دعاسة التغذية بالوقود من حلاوة الروح حتى زعق المحرك ! .. وبلغ أوج فعله برد فعل عكسى جامح .. فارتقت العربة وثبتت على هذا الوضع .. أما هو فقد هوى ! .. لكن أين .. أين ؟ ..

شملت المكان بنظرة فاحصة سريعة واسترسلت :

- إيه نفسى ! .. يخيل إلي أنه أضحى ترابا من غليان لحمه ودمه وعظامه ومن ثم تفحمه وتحوله إلى تراب فى غمضة عين !.. وإلا أين هو ؟! ..

لم تعثر له على أثر (فى الحلم) .. مع أنها فندت المكان كله وأوشكت على اليأس لكنها فى أخر نظرة .. ويا لهول ما رأت ! .. ساعده الأيمن وقد علق بعد جزه من عند المرفق على سكين صخرة ذات حافة حادة ! ..

خلصت الساعد من مكان لصقه على نصل الصخرة وشرعته بكفه وأناملة أمام باصرتيها تحدق برهبة وألم يعتصران قلبها ويكاد يصل لحد الجنون في اصبع السبابة المرفوع لأعلى فى وضع الشهادة بوحدانية الله سبحانه ..

فكرت أن تتفقد نبات الأرض لتعثر على نبات حافظ تلف به الساعد حتى تصل فيما بعد إلى مجمد يحفظه على سبيل التذكار فى موطنها .. لكنها لم توفق على الرغم من دراستها المتخصصة لعلم النبات بالجامعة .. لأن الساعد وإن كان قد نجا من الاحتراق إلى حد التفحم لكنه كان قد تعرض لحرارة سلق !

أنزلت السيارة من ذروة جموحها وروضتها بخبرتها فأطاعتها ومضت بها والساعد بجانبها ترمقه بين الفينة والفينة لتطمئن على أنه لم تتدحرج من الهزات العنيفة التى كانت تحدثها عثرات الطريق وتردد :

- الحمد لله .. الساعد رمز الشغل معى والسيارة أيضا !

ووصلت بالرمز الثانى مركز الإسعاف وهى منهارة تماما ..

كان عليها تسليم العربة كعهدة شخصية على الفقيد (الذى ينوب عنه ساعده !) مع متعلقات حقيبة الإسعاف بأدواتها ومطهراتها وقطنها وشاشها ! وكذا مقتنياته الشخصية التى كانت هى بالقطع أهمها ! .. كما تقضى بذلك أصول العمل المرعية كخطوة فى سبيل تسليم جثمانه لآله .. إن كان له آل بعد سياسة تصفية الوجود البشرى الممنهجة على أرض الأنبياء التى يمارسها العدو بلا رقيب منذ وطأتها أقدامه !

ولما جاء دور الساعد أخرجته من مخبأه تحت سترتها الذى أودعته فيه (قبل نزولها من السيارة) بالقرب من القلب لتتحاشى أية معارضة عندما تبدى رغبتها فى الاحتفاظ به .. لكنها سرعان ماوخزها ضميرها فغيرت رأيها مخافة أن تدخل فى معركة ضروس مع نفسها اللوامة ! .. ووضعته برفق وكلف شديدين على مكتب المدير الذى فغر مع باقى الحضور فاه دهشا وتأثرا وقالت تغمغم بصوت متهدج مصبور وبدموعها :

- هاكم ما بقى من جسده الطاهر .. اسمحوا لى بالإحتفاظ به وسأعمل له مراسم دفن كاملة فى بلدتى بعدما أعود إليها فهو مقطوع من شجرة !

وسرت همهمة عالية بين الحضور فى القاعة التى اكتظت بزملاء المهنة أو التطوع وهم يبدون التذمر .. وقد ضاعف مرأى الساعد من جيشان الأحزان لفقده والعرفان بفضله فلم يدخر وسعا ولم يبخل بجهده حتى آخر لحظة من حياته .. وتعالت أصوات تقترح تشييد نصب تذكارى لشهداء الإسعاف أمام البوابة الرئيسية يكون الساعد لبنته الأولى !.. ويتم تثبيت « برواز « ضخم محمى ! يحوى جميع صور الشهداء حول صورة كبيرة لأبى رياض وساعده ! ويكتب تحت كل صورة إسم صاحبها بحروف من ذهب !..

همست لنفسها وقد ساءها رفضهم لما أبدته :

- وماذا يفيد الذهب بعدما ذهب !

وسمعت المدير يعلق على المقترح الوجيه موافقا بقوله :

- هذا أقل واجب !

وأصدر أوامره لأحد معاونيه بايداع الساعد الثلاجة ريثما يتم بناء النصب وتجرى مراسم دفن بحضور جمع كبير من الرؤساء والقادة ..

واسقط فى يد هدى فلم يكن لها إزاء ذاك الإجماع والإصرار فرصة للخيار ! .. وسرت فى أعطافها ما يشبه إنتفاضة وصحوة المجاهد الذى تتنازعه مشاعر جمة ومتناقضة من الألم والسرور والرغبة العارمة فى مواصلة درب الشهيد حتى آخر نفس فى رئتيه وآخر قطرة من دمه .. وانتهزت فرصة سنحت عندما أثنى عليها المدير فتقدمت بطلب لتسلم السيارة إليه ..

كان ذلك أثناء قيامه بإلقاء خطبة إرتجلها لتأبين الزميل الفقيد .. وقرأ بعينيه الطلب بسرعة ولم يتردد ومهره بتوقيعه قائلا وهو يقطع حديثه مبتسما :

- وهذه موافقتى .. سلموها عربة الشهيد يا رجال !

وكانت مفاتيح السيارة قد أخذت منها بمعرفة رجال الأمن فلما سمعوا خبر الموافقة تنقلت المفاتيح من يد إلى يد حتى وصلت يدها وقبضت عليها بجمع أناملها وفؤادها يرف كالطائر داخل صدرها من فرحة مفاجئة غمرتها فى وقت قياسى مشحون بمشاعر أخرى تناقضها وهمس فى أذنها أحد الزملاء قائلا بمكر :

- مصائب قوم عند قوم فوائد !

فتبسمت له بدماثة دون أن تعلق أو تنظر إليه .. فأية فائدة شخصية تعود عليها من مواصلة رسالة إنسانية سامية لشهيد إنقطع دربه ؟ ..

- ١٧ -

ولم ينته حلمها عند هذا الحد فالساعد دفن ولكن لم يتم تشييد النصب التذكارى إلا بعد لأى لعدم توافر مواد البناء الحية اللازمة ولاسيما الأسمنت ..
فالحديد يمكن دوما الإستعاضة عنه بالمرتجع القديم الذى يخرج من المبان التى دمرت أو تهاوت من تلقاء نفسها !.. وثمة تجارة رائجة لذلك هناك ..
أما الأسمنت فقد وقف حصار البوابات السبع لقطاع غزة (بإضافة بوابة البحر !) عقبة كئود لحظر دخول الكثير من المواد التى لاغنى لحياة البشر عنها وهو منها كيلا يستعمل فى بناء مرابض لملاجىء وإنشاءات تتعارض والأمن ! وعلمت هدى (فى الحلم) أن أحد أصحاب الأنفاق تحت منزله فى رفح المصرية .. تبنى عملية تهريب الأسمنت الحى اللازم لبناء النصب فتمنت وقتها أن يكون والدها هو هذا المتبرع الجسور !
أمر أخر لاحظته فى الحلم ولم تلحظه فى الواقع قبلا لشدة إنشغالها بعملها فحسب فى جولاتها الإسعافية وعدم تمتعها بالفضول والرغبة اللازمة للنظر لجنود العدو .. هو أنها رأت بعض الأفراد من الجند عاكفين فوق المجنزرات على قراءة المزامير والأسفار من كتيبات صغيرة وعلى رؤوسهم « الطاقية اللطعة ! « فسألت نفسها فى الحلم :
- هل خلت آيات قرآنهم من نهى عن قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ..
شكت فى ذلك .. فهى بالقطع لا تخلو .. فالأديان السماوية الحقيقية كلها تسليم بهذا الحق وإسلام .
ولذلك عندما صحت من حلمها على أثر جلبة ووجدت والدها ينكب عليها ليقبلها ويضغط على جروحها دون أن يدرك مداها تأوهت ثم لملمت آلامها بسرعة وسألته :
- أأنت الذى قمت ببناء النصب التذكارى لشهداء الإسعاف بغزة !
- من قال لك ؟!
لم يكن هادى موجودا فانتهزت الفرصة وقالت :
- هادى !
وتحير الأب ولم يقطع لها بذلك تصريحا لأنه أمر إن صح معناه أنه كان على قيد خطوات منها ولم يفكر فى رؤيتها بماذا يعلل موقفه الغريب .. أتكفى الدواعى الوطنية حتى لا تتعلق به وتعود معه تاركة واجبها ؟ .. أفعل ذلك حتى يتيح لها حرية الاختيار كاملة ؟!

.. أكان فى هم وغم لا يقدر معه على مواجهتها وإخفاء الخبر عنها ! ..
قد وقع مصاب جلل !
- قل لى يا أبى لماذا جئت وحدك دون أمى الزينة زينه !
أجاب وهويشيح بوجهه ربما كيلا يشى بكذبه ! :
- لا هى بخير .. فقط هى بعافية قليلا !
- قليلا ولا تجىء لرؤيه حبيبة أمها ! .. يا أبى لم تصر على إنكار الحقيقة عنى خالطا الواقع بالحلم !
أجابها بثقة وهو يملأ عيناه منها ويغترف نعماء الأبوة وما تعنيه من شدة حرص وحماية وفى ذات الوقت تلبية حاجات مادية ومعنوية لا تنتهى :
- هكذا الحياة يا بنيتى الحبيبة فهل تريدين أن أغالط طبيعتها ؟!
- أسال عن أمى لا عن الحياة !
- أمك بخير !
- فلماذا لم تأت معك أهى زعلانة منى !
- نعم !
- لتلك الدرجة ولا تريد أن ترانى !
- بها حزن غريب أذهب عقلها .. وكلما أطلت من النافذة أو البلكونة ورأت بوابه المعبر المغلقة دونك تنتاب أعصابها نوبة هستيرية وتفقد وعيها وتستمر فى ذلك أياما .. المرض غريب .. وقد نصحنى الأطباء لكى ينجح العلاج ألا تخرج من البيت أو تطل على الدنيا خارجه ! .. ريثما تعودين .. وتراك .. حينذاك قد تحدث المعجزة وتشفى !
انفجرت هى الأخرى فى نوبة من البكاء الهستيرى وهى تردد :
- أنا السبب .. أنا السبب .. أنا التى أتسبب دائما فى المصائب التى تقع على أم رؤوس البشر ! .. لم يبق إلا أمى أتسبب بأنانيتى فى جنونها !
- لا يا بنيتى الحبيبة أنت لست أنانية وما بك بسبب شدة حبك للبشر ! ..
وأمك بها بحالة نفسية سيئة لكنها ليست مجنونة وستزول تلك الحالة بمجرد أن تراك !
- إذن هيا !
وحاولت أن تنهض من رقدتها لكنها أخفقت فأمسكها والدها من يديها وراح يؤكد لها أنها بخير ولتدع الأمور تجرى فى أعنتها .. سألته :

- وما هى الأعنة ؟!

أجابها :

- تتركين الزمن وهو أحد خدام الله يتكفل بما كتبه لنا !

- وتظل أمى مريضة وأنا بلسمها ودواءها الشافى لا أدنو منها !

- الطبيب يقول أن المعجزة لكى تتحقق لها إشتراطات وضمانات أهمها أن تراك فى البيت !

- يعنى لابد أن أشفى الآن ! .. أبى .. ناد على الأطباء .. قد شفانى الله !

وهبت من فراشها هبة جسورة ووقفت على رجليها ! .. ونظر إليها الأب غير مصدق يردد :

- الحب يصنع معجزة !

- يصنع معجزات يا أبى !

- بك حروق وجروح غائرة ومزوق وكسور متضاعفة ! .. كيف وقفت على رجليك يا نور عينى !

- أبى كفاك تضييعا للوقت أمى بأمس الحاجة لرؤيتى .. عربتك البك أب معك !

- فى الشارع تنتظرنى !

- تنتظرنى أنا سأقودها !

- تقودينها أيضا !

وجاء هادى ووجدها واقفة بجوار السرير كأى إنسان سليم .. ففغر فاه وصلى على النبى أحسن ! .. ولم ينطق بأكثر من هذا .. وجاءت المرضة وصاحت منزعجة وهى تقول :

- ما هذا .. ما هذا .. عودى للفراش .. أخرجنا شظايا كثيرة من حول جميع أعضائك الحيوية وعظامك !

وأمسكت بها من كنفيها لتعيدها بنفسها فتأبت هدى وتمنعت عليها ولم تتحرك قيد انملة وبدت أقوى منها !. فرمقتها الممرضة بغضب واستتلت :

- تخالفين أوامر الأطباء !

تمتمت هدى قائلة ببسمة ونظرة إنتصار :

- العقل السليم فى الجسم السليم ! .. ألا تقولين من حول ! .. طيب وطيب .. طيب ! من حول وليس من داخل ! .. إذن أنا سليمة مائة فى المائة ! .. هيا يا أبى ..

وفى تلك اللحظة تناهى إلى الأسماع أصوات إذاعية مسموعة ومرئية تردد بفرح يتجاوب صداه فى جميع الأرجاء :

- أعلنت إسرائيل وقف النار من طرف واحد فى مؤتمر صحفى على لسان رئيس وزرائها الذى أوضح أن ذلك جاءإستجابة لمبادرة الرئيس المصرى وبعد يومين من الإتصالات بين مندوبى إسرائيل وحماس ووزير المخابرات المصرية بالقاهرة .

فانهارت قواها فجأة كما نشطت من شدة الانفعال وآبت لفراشها من تلقاء نفسها لأن ساقيها فيما يبدو لم تقو على حملها ثم أردفت بصوت سمعه كل الموجودين بالمستشفى :

- إنتصرنا .. إنتصرنا .. إنتصرنا !

وفى أعقاب ذلك سمع الجميع المذيع يردد أن كل من قادة إسرائيل وحماس هنأوا أنفسهم بالنصر !

***

تظاهرت بالنوم فسمعت والدها الجالس على حافة الفراش فى أقرب مكان إليها يتغنى قائلا فى أذنها كأنه أم تحث وليدها أن يهجع وينام بغنوة النوم :

هبوا قياما لأسير نجيب .. إعتاد فى الأسر أن ينتصر
ألقوه بالجب قائما ليغيب .. غافلهم وبدرب يوسف ظهر
شعلة بظلام النفوس لترغيب .. قوم يعوزهم الجهاد الأكبر
عصبوا أعين سجانه لتسريب ..علم ينتج رحيقا أهدى وأنور
نال بمعهد عربى رحيب .. دكتوراه فى التشريعى المعتبر
أكبرته محافل البعيد والقريب ..أطاح سجانوه المآذن للخبر
والأقصى ينادى كل ربيب .. أساسى يتطاير من حفر وعر
أغيثونى من كنيس تخريب .. يختزن ريحا من زمن غبر
سخرها الله لسليمان الحبيب .. نبى بالعلم تعبد فتملك وشكر
يخدمه الهدهد والنمل الأريب ..هيأ للنطق الحجر والشجر

دعا للفطرة أعين بلا محاريب .. بنى للبصيرة لجة تخدع بصر
ما دثر عـهدا بـتابوت قشيب .. ولاعمد بجبل هيكلا من حجر
أنفاق بالأساس ترتيب ينيب .. معاول الطبيعة لهدم لا يغتفر
تنكـرت قـوى تمـلك تطـبيب .. جـراح الوالـدة بالأسـر سـحـر
طالما الأخوة بغياهب التطريب .. غـثاء لسـيل يطفو من وزر
أمل الشهيد والأسير فى تغريب .. ومالك الحزين يشيع من بذر
ورثة الأنبياء يعالجون تقريب .. أقصى الأديان للحوار والنظر
بالحسنى يصير العـدو حبيب .. كظمنا الغيظ والثـلـج ينهـمر
إشـارة يفهـمها عالـــم لـبيب .. تعهد دغل الخـــوف المـستعـر
يحيا بأسـباب ونتائج الترهـيب .. يموت بالسلام والود المستقر
فرحتك الكبرى وطنى السليب .. متى تداول إناسك أيام القدر
بإعلان القدس عاصمة تشعيب .. الشجرة الطيبة لكافة البشر
أسمه مروان وثاب الدبيب .. طلاع الأعالى وإن غاب القمر

***

رفعت هدى رأسها عن الوسادة بالمشفى فرأت والدها يقف بجوارها يبتسم سألته :
- أما زلت هنا بابا ؟
أجابها وهو يلثم جبينها ويربت على يدها بحنو :
- طبعا هنا .. ياه .. الظاهر إنك فقت إحساسك بالزمن من كثرة نومك خلال الأيام الماضية ..
راغ فى عينيها سؤال يعبر عن دهشتها وفى ذات الوقت قلقها مما سمعت فأسرع موضحا ومضيفا :
- لا .. لا تقلقى .. هذا كان عمل الأطباء .. لتجنيبك الألم وتخليصك تماما مما كان يسكن جسمك ! .. حمدا لله قد نجحت الجراحات ولكن ..
كأنها تذكرت شيئا هاما شهقت شهقت إعجاب وانية تعيد إليه بسمته وحنوه وتمتمت مسترجعة ماعلق بذاكرتها :

- اسمه مروان وثاب الدبيب !

وجذبت من الهواء نفسا عميقا عبر عما يخالجها من الرضى والبهجة وتساءلت :

- ماذا تعنى بوثاب الدبيب يا بابا ؟

تبسم منشرحا بتحسن أحوالها حتى أوشكت بسمته أن تتحول إلى ضحكة من شدة إتساعها ومطها أشداقه ! وجذب من الهواء بدوره أنفاس الصعداء وغمغم :

- أمازلت تذكرين القصيدة باهدى .. قد كان ذلك منذ .. آه ! .. ألم أقل لك أنك نمت سبحا طويلا !.. طيب ! .. نعم كله طيب ! .. أقصد بوثاب الدبيب معانى كثيرة آخرها وصف جزئية من إسمه ! .. وثاب الدبيب كناية عن البرغوث الذى يثب دبا أو يدب وثبا ! .. ماعلينا .. كيف هو ؟!

فجأها بالسؤال بطريقة مبهمة فتنبهت جدا وسألت :

- من ؟

أجابها ضاحكا :

- هو .. كنت أمزح معك ..

ثم تغيرت سحنته بغتة كأنه هو الآخر تذكر شيئا وأضاف :

- لكن !

سألته بتوفز ولهفة :

- لماذا تكرر تلك الكلمة .. أحدث لأمى ..

قاطعها مسرعا ليتدارك الخطأ الذى أوشك أن يرتكبه بجعلها تنفعل وهى بتك الحال :

- لا .. لا .. والدتك بخير .. أقصد ..

وتورط ثانية دون أن يشعر وأوشك أن يؤنب نفسه ثم بغتة أشرق وجهه وهو يرى باب الغرفة ينفتح وفى التو ظهر هادى يعرج على قدم واحدة مستندا على عكاز وهتف بمرح :

- صباح الورد والفل والياسمين !

وصافح عمه وانحنى كثيرا وهو يشد على يد هدى كأنه يغالب رغبة عارمة فى تحية تتجاوز حدود الاكتفاء من حبيبة القلب بالنظر و متحها طاقة زهور بيده .. أنها تبدو اليوم أحسن حالا وتستطيع تحريك خصرها بالفراش ..

- حمدا لله ..

قال لنفسه وأضاف بصوت جهورى مرح وهو يلقى عليها أنظاره ويتحسس باقة الزهور :
- ورود جميلة لمن .. ؟!
ذكرها منظره بأمر هام يبدو أن ظروفها الصحية حالت بينها وبين التفكير فيه وتألمت كثيرا وهى تكتشف الآن أنها بعدت عنه كثيرا وأنها لن تحقق ما كانت قد قررته من كفالته .. هذا الصغير اليتيم المسكين الذى تجسمت فيه كل مآسى فلسطين والدول المجاورة ! فترقرق الدمع فى عينيها ووجب فؤادها وجيب الأسى والحزن ولولا ذلك لكان لتلكما العينان مع هذا الجبيب الذى ظهر على حين غرة وبه عرج ! شأن أكثر رقة وتعبيرا عن المشاعر لكنه قليل الحظ وليس هذا شأنها !
قالت بصوت هو إلى الهمس أقرب :
- ها هنا ورود حمراء وبيضاء وبنفسجية ! .. وهنالك طفل من لحمنا ودمنا يعا ..
وأمسكت لسانها عن نطق باقى الكلمة واستتلت وهى تشيح بوجهها حتى تخبىء أدمعها التى تناقض ما توجب عليها الاستمرار فى التظاهر به من إقبال على الحياة وتقوية عزم :
- دمار وخراب ودما .. أه .. عرائس أطفال مدفونة مازالت بين حطام أثاث المنازل فى حضن أطفال المهازل ! .. وحقائب كتب المداراس إنفرطت عن ظهور صغيرة إنقسمت بحدوات الفوارس ! .. وجميل صغير يحبو على أربع بطريق فريب من تل الهوا يفقد أما حقيقية ثم أما من شجرة عائلية ! ويكتسب أما فقدت رضيعها وكل أسرتها عرجاء بقدم واحدة .. فقدت الثانية بسفح الركام والحطام ! .. ماذا تراها تفعل الآن له وهى تضعه على سرير كان فى يوم ما يزهزه على ظهر حمار !
وارتفع صوت نشيجها على الرغم منها وواصلت :
- أقصد بردعة فهذا هو أقصى ما امكنها أن تقدمه له وجدتها على ظهر آخر برىء إنفصم ! .. وظهور أخرى .. أبناء وبنات .. أزواج وزوجات .. إخوة وأخوات .. بنات وأبناء عمومة وأخوال أخيار .. وجد وجدة .. أسماء على فروع شجرة مرسومة لا فى الحقيقة والحياة ! .. وجد آخر جالس على التل الكبير ! يشير بعصاه إلى ما تبقى من أحفاده وزوجات أبنائه الشهداء .. جد يعول بطبق فول !.. يشير أيضا إلى الأطلال على خلفية البحر أبيض وأفق سماء زرقاء
وينظر ببصره الكليل أبعد .. لمنظر حفيد صغير حبيب برتعش بردا وجوعا فى حضن أم

مستعارة حار !
وتمر لحظة صمت حزينة على الأب والزوج إزاء كلمتنها التى تقطع نياط القلوب وتفتح أغطية مجارى الدموع ويهتف النجارالكبير من فلبه :
- أرفقى بنفسك ياحبيبتى ستموتين من الحزن !
ويتدخل النجار الشاب المقاوم لبنقذ ما تبقى من ثروته العائلية وحبيبة قلبه فيقول بلهجة من يعلن عن مفاجأة :
- أبشرى يا إبنة العم وزوجة المستقبل .. أنت الآن أم وأنا أب !
ووضع بجوار رأسها على الوسادة ورقة خمنت أنه محرر رسمى وفعلا تأكد لها ذلك لما مدت أناملها بفضول وفضته بعينيها غير مصدقة واسترسل هو :
- بعد أن غادرتك الزيارة السابقة والغيرة تأكلنى من هذا الرضيع الذى لا أعرف طبيعة إرتباطك به ! .. توجهت من
فورى إلى معبر رفح وعبرته بطريقتى وهمت بشوارع غزة التى ضاعت معالمها وأصبحت سداح مداح ! حتى بلغت مأوى تلك المرأة الطيبة فى تلك العطفة .. ووقفت منها على تفاصيل القصة كلها وانزاح الوقر الثقيل الذى كان يجثم على صدرى ويكتم أنفاسى ! .. حمدت الله عل سلامتك ورقة شعورك ومشاعرك الوطنية الخالصة ! وقلت لها أنا منذ اللحظة يا أم كفيل بهذا الولد وغادرتها لاسجل إسمه فى سجل المواليد إستنادا إلى عقد زواجنا .. تعرفين أنه لا فارق كبير بين أسلوب العمل فى دوائر قطاع غزة وبين الدوائر المصرية وهذا ما يسر الأمر فوق أنه شائع فزواج الفلسطينى من مصرية أمر طبيعى وواقع ! .. وعلى الرغم من أن عمر عقد الزواج لا يفى بمدة الحمل والولادة فإن أحدا لم يهتم بهذا وهاك شهادة ميلاد موسى بإسمى وإسمك ! .. ما قولك الآن .. أراضية أنت ومبسوطة ؟!
ألجمت المفاجأة السارة لسانها فلم تفه بكلمة وارتسمت فى عينيها أجمل معانى الشكر لله مجسمة فى شخصه كأحد جنده من خلقه وهى تتجاوزه صاعدة أجواز السماء من خلال النافذة الكائنة على يسارها وأضواء الصباح الصافية الشفيفة تتسلل منها وتنشر البهجة وتتسع بها لما هو أكبر من الشكر والحمد وكأنها تطمع فى غاية الرضى ! تبغى أن تشارك الملائكة نجاهم وتسبيحهم به سبحانه .. هللت وكبرت وسبحت فى نفسها ودعت للخلق جميعا وحدثت نفسها فى سريرتها كأنها

تصف ما لا يراه غيرها : - الشهداء يطلون برؤوسهم من فرجات فى السماء ! بان منها فيروز الجنة الصافى الضياء .. يا للبشر الذى يضوى فى تظرات أعينهم ! .. وابتساماتهم العامرة ما أجملها ! .. وما أطيب أنفاسهم العطرة .. أشمها من هنا ! .. تملأنى عزما وإرادة فواحة !

وارتفع صوتها حتى سمعها كل من والدها وزوجها تقول :

- أتشمان معى أريج السماء ! .. اتسمعان نجى الملائكة وطائفة من الأبرار والشهداء يسمعونهم نشيد الشهيد ! .. لحن الخلود والوفاء ! .. أجل فى الحقيقة لا فى خيال الشعراء ! .. كلهم عندهم رجاء .. أن تندمل قروح القلوب قبل الجلود الصماء ! .. وأن تصفو وتتزكى وتنفث عنها قيح الخصام والجفاء ! .. وتمسح حرف الجيم من الجهالة فتشرق على الأرض هالة ! .. تضىء الحدود والخدود فتظهر الأسلاك الشائكة والقيود .. ويعقد الفرسان رباط الخيل عقد ورود والعباد بالعروة الوثقى كعبة مضيئة فى عين الحاقد والحسود ! .. وبيد أم هدى أسنان المشط العاجى تسرح به خصلات الشعر الهادى ! كيلا يغمى عيناها عن ملاحقة كروان يحلق فى السحر فوق مآذن وقباب نورانية مبثوثة وأخرى صوامع تماثلها نورا مرصوصة ! .. حشد كبير .. حمد كبير .. خير كثير .. قد بلغتنا الرسالة .. قد تقفينا أثر النبى ! .. سمعنا آيات الذكر الحكيم تجلو النفوس وتذهب الأحزان والهموم .. الربيع عاد من تانى .. بمبى .. بمبى .. بمبى ! .. لا .. لا .. هذا غناء حب الدنيا الغرور .. الربيع عاد من تانى .. ربيع القلوب ! .. ماذا ضحيت أنا فداه وأعيش على ذكراه ! .. رباه .. أحلام اليقظة أفضل ! .. لا أنا لا أهذى .. أنا أحلم !

- ١٨ -

هتف هادى جزعا لما يتواتر على لسان هدى من صور خيالية كانها كما قالت تحلم :
- هدى .. ما بك ؟
فربت عمه على ظهره مطمئنا وقال :
- دعها تخرج ما فى باطنها .. لقد تذوقت طعم الموت مرات عديدة ورأت بعينيها أبشع صوره .. إنها لا تهذى .. إنها تغسل نفسها من الداخل !
وغمغم هادى بعين اللهجة متسائلا :
- مم .. إن الهلاك غير قابل للبلل ! .. وشجاعتها كانت على كل لسان .. لم أصدق عينى وأنا أراها تدنو من مربضى بعد أن أوقفت سيارة إسعافها وأنا مصاب لتحملنى على ظهر الصمت ! .. قلت لنفسى مستحيل .. حلم .. أنا أحلم ! .. معذرة ياعمى .. نعم ظهر الصمت .. إنى أنا الآخر أغسل نفسى من الداخل !
صاح العم مستنكرا :
- إلام تعتذر يا ولدى والاغتسال من الداخل من ضرورات الحياة .. مثله مثل التطهر من الجنابة أو الوضوء للصلاة .. قد كنتم مثلا شرودا طيبا للتضحية والبذل واليوم يومكم لرفع الهامات والأنقاض ! .. وإعادة اللحمة للإلتئام والتماسك وتنظيف الواجهات ! .. والإطلال علينا بخيرات الله وبسمات تجمع بين إنفراج أسارير الإيمان والحرية ! .. على درب العلم الذى ينشر السلام ويبدد ظلمات التلال ويبدل نجى الأحزان على أطلال المقابر المبعثرة فى كل مكان وتلك التى دمرها أفظع عدوان !
تناهى إلى الأسماع على حين غرة صوت الأم زينه يطرق باب الغرفة الذى إنفتح لدى لمسها فلم يكن مغلقا بل مواربا وهلت طلعتها التى كانت مرحة بهية قبل أن تداهمها الآلام والأحزان وفى إثرها طبيبها الشاب الذى بدا عليه ثمة توتر وانزعاج وتبادل مع الزوج النجار شبه اعتذار .. فأومأ هذا برأسه إيماءة تعبر عن رضاه فهو صاحب الرأى والخبير بحالة الأم التى اختصرت بعينين تركزتا وساقين هطعتا الزمان والمكان معا فى لحظة .. ألقت بنفسها على صدر إبنتها دون حذر منفجرة فى بكاء طويل عميق كأنه تسونامى هب من أعماق منطقة من المحيط الهادى تجمدت وتكهربت من شدة الانضغاط وكبت حركة الحياة الهادرة التى لم يتسع لها الزمان والمكان فانفجرت وأغرقت شواطىء الأسرة

على المرضى كما الحال الآن ..
شوق حار من نبع الرحمة الإلهية التى منح الخالق المحسن ذراتها وأنويتها الموجبة الشحنة للأمهات منذ خلق حواء من صدر آدم .. قد أحسن سبحانه خلقها (وهو أحسن الخالقين) لتكون أما فكيف لا تمرض بفقد إبنتها (محور أمومتها) وكيف لا تبرأ بعودتها إليها ! ..
أمسك الأب الأم من كتفيها من الخلف كأنه يعينها على إفراغ كل ما بأعماقها :
- قولى شيئا يتم به غسيل نفسك من الداخل يا امرأة ! .. أنت سر العدوى ! .. أرقدى معها فى هذا المشفى الطيب !
وما كاد ينتهى من قولته حتى رآها الجميع تدفع إبنتها برفق كى توسع لها مكانا وتدس نفسها معها فتضاحكوا لأنها بدت وكأنها بتلك الحركة التى لم تستغرق لحظة تنفذ صاغرة أمر زوجها الذى أردف :
- اللهم ما اجعل بيوت المسلمين عمار !
وعلق الطبيب قائلا :
- والمشافى أيضا يا أبا هدى ! ومازحه الأب قائلا :
- والمشافى على شان خاطرك يا طبيب حتى لايكف الأطباء عن العمل !
وتضاحك الجميع لمزحته غير المرغوبة الفحوى إلا مع المثل القائل « مصائب قوم عند قوم فوائد ! « وتمتمت هدى لأول مرة وهى تدس رأسها فى صدر أمها كأنها تبغى أن تدفن نفسها فى رحبته :
- سنصحو من رقدتنا .. سنرى طلوع الفجر الباسم .. وألوان الشفق القرمزية تذكرنا بأيام ثقيلة بدماء سالت .. لكننا لن نستسلم للحزن .. لا وقت لدينا للحزن نضيعه كى نعيش فى النور الذى غمر الكون .. كى نحيا ونعمل ونجاهد الجهاد الأكبر .. ونسعى فى الأرض ونضرب فى مناكبها .. فى المشارق والمغارب ننثر الخير ومكارم الأخلاق والسلام ونكون أمة الخير حقا .. كما قال نبينا الكريم .. لا تحزن إن الله معنا ..
- ووصية موسى .. إن معى ربى سيهدين ..
قالها هادى ..
- وبشارة عيسى .. قد جعلنى الله وجيها فى الدنيا ..
بدوره غمغم الطبيب الذى طال صمته ومراقبته لما يدور واسترسل بمرح :

- الله .. أين نحن ؟ .. فى مستشفى أم فى المسرح القومى ! .. إفعلوا ما قلتم .. كبر مقتا عند الله ..

وسكت منتظرا على ما يبدو أن ينطق احد مكملا الآية الكريمة فتبادل الجميع النظر بسرعة كأنهم يتعازمون أو يفوض بعضهم بعضا ثم رددوا معا فى تلقائية :

- أن تقولوا ما لا تفعلون !

ونامت زينه بعدها نوما هادئا عميقا وكذلك هدى وقد تعانقتا وقال الأب مستبقا ما قد يأتيه هادى أو الطبيب لإيقاظهما :

- اتركوهما قليلا .. لم يناما تلك النومة من حوالى شهر ..

وحلمت هدى أن أبا رياض المحبوب أتى من الجنة وهبط على تبة خضراء عالية ووقف قبالة الأهل الذين جلسوا فوق قمم التلال يستريحون وهم ينظرون إلى الأطلال ونسمة باردة تقشعر لها الأبدان تهب عليهم من البحر وقال :

تصافحوا بالأيدى والقلوب .. الود يمحو كبير الذنوب
أمسحوا دمعات الكروب .. للصبر الجميل حدود تذوب
وطن الجراح والحروب .. لا ينقصه إلصاق العيوب
أحلام السبل والدروب .. ومن عن الشعب ينوب
لا تساوى دمعة تروب .. بعينى طفل يتيم مطروب

تجاوب معه نفر من الجالسين على مقربة منه قائلين :

فقد الأم الحنون الحلوب .. والدفء ومأوى الرغوب

قانتهز الفرصة ليضرب على نفس الوتر وعاجلهم قائلا :

الأمان والحب المسكوب .. بين أب وعم فى غروب
إنشغلا برقطاء لعوب .. وقناصى فرص الوثوب
على الطير والحبوب .. ولحم الأرض المنهوب

وتبادل الجالسون النظر إليه هنيهة ثم نكسوا رؤوسهم على صدورهم يجترون احزانهم على ما فقدوا وما تسبب قى تأخر هطول المطر الذى يطهر الأرض ويروى ظمأ الأحياء ويطفىء حمأ الأقوياء .. فتنفس الصعداء وواصل :

تصافحوا الغيث غضوب .. ريحه كفت عن الهبوب
وشمس كسيفة لنشوب .. نار فى قلب بلد مصلوب

يدق مسامير وخشوب .. رعاة وقعوا بفخ منصوب
قاطعوا بلد المحبوب .. أقصى ومهد قدس الشعوب
مآذن صلوات وقبوب .. جنان زيتون وتين وعنوب
وسموات دون سحوب .. أدمعت لشرف بلا ثقوب
تصافحوا الأم لن تأوب .. لبيت طفح مجار وندوب
وأب دفن الألم الكتوب .. بأرض لطالب ومطلوب
صاح بعذاب كأنه يبكى :
أدمعهما نزلت بقلوب .. حملان تفاوض ذئوب !
تمنيا لو ماتا بالدروب .. لأبناء بين غالب ومغلوب
وأشقاء بأوطان العروب .. تعداد كبير محسوب
ناشتهم عدوى اللغوب .. ذهبت ريحهم لغروب
أين منهم رشدا يثوب .. لحسبنا الله نعم المنوب
وارتسمت فى الأعين الحيرى علامة استفهام كبيرة عما يقصد وهم يتساءلون :
أتدعونا لعمل دؤوب .. يسترد الحق المسلوب !؟
ويبدو أن سخونة الأرض ورائحة ثوم الفوسفور الأبيض و قنابل الدايم كانت لاتزال تتصاعد أبخرتها من فوق تلال ركام المبان الإدارية والبيوت فتكفل الصوت الأليف بإجابة غير مباشرة للسؤال هتف :
تصافحوا بحب أخوى مشبوب يعمر الوديان يزهر التبوب
يسلمكم مفتاح أوان وجوب .. نصر الله للمؤمنين المكتوب
أيرضيكم عزوف وهروب .. من صناديق قرع النخوب !
ولدى هذا السؤال طافت بأبراج عقولهم مناظر ورش الحدادة التى تصنع محليا صواريخ « كاتيوشا القسام « تلك التى أطارت أبراجا أخرى بداخلها أقوام طوال اللحى بقبعات سود تدق أكفها الطبول بصوت أعلى وتغطى على صوت أبى رياض الذى استتلى :
يوم لا ينفع رصيد مسحوب .. لنقش بجدران الغد و الغيوب
بنى خير الأمم والشعوب .. العروة الوثقى حبل مجذوب
بين إخوان الصفا مصبوب .. يطرح حنانا بأرض جبوب
وسلام لابن الأقصى المحبوب التواق لعزة بغزة الجنوب !

خاتمة

وساد صمت طويل عمد الجمع إليه وساعدهم عليه إستغراقهم فى تأمل ما ظهر فى السماء من خلال النافذة من أسراب الطيور التى ملأت صفحتها بألوان مختلفة خضراء وبيضاء وحمراء وزرقاء وصفراء وسوداء كأنها أعلام الأمم المتحدة ترفرف على مقر جديد لها ! وأصوات خشخشة أجنحتها الوضاءة تقطع الصمت تشى بالأمل وبداية نهار جديد .. وطائر وحيد فى مقدمة الأسراب ناصع البياض .. لعله سكرتيرها العام ! يقودها إلى جهة غير معلومة نحو شمس لونطقت لقالت :

- وحدوه .. دستور يا أسيادنا !

داخلة من باب الكون الأعظم للدنيا بابتسامتها الذهبية التى تشيع النور والدفء الطبيعى لا المسخرج من البترول الذى أثارت ريح تهب دائما من الغرب النقع طمعا فيه لتركزه فى بلاد بعينها وصموها بالمروق واحتضان الإرهاب ! للسيطرة على مقاليدها وإخضاعها بدويلة توسعية لا تعرف لها حدودا يسمحون لها بامتلاك كل الأسلحة المحظورة والنووية ولايسمحون لمن يعيشون حولها وقد تبعثروا وتناحروا من الرعب النووى وغيره بامتلاك الأسلحة إلا فيما يشبه سكاكين المطبخ ! ويفرضون لذلك حصارا ظالما .. فهم ليسوا من حقهم أن يتمتعوا بالحياة الدنيا وبهجتها كغيرهم وإلا فسدوا وطالبوا بحق الحياة وحق الدفاع عن أنفسهم دون أن يصم أحد مقاومتهم بانها إرهاب ومروق وخروج عن الشرعية الدولية التى تفرض التسليم بالمناخ وزمهرير الشتاء القاسى الذى جاء بالبرد ولم يجىء بالغيث الذى بخمد نيران الحرب التى قال عنها الأفاضل الذين يسودون العالم أنها للدفء فى مستهل العام الجديد الذى يوزع فيه ملاكهم فى العيد الهدايا والعطايا من شجرة الميلاد أما هؤلاء فيكفيهم تجرع كئوس المحنة وقبول عدوهم شربة ملح أو خروع أو شيح ! فالحنضل فى أرض التين والزيتون وطور السنين البعيدة عن شوارب ملاكهم وشجرته

نعم يكفيهم تجرعه ! .. إلى حين يعلمون أين يحسن الجلوس فى مقاعدهم ..

من أنفسهم .. فهل هذه هى العبرة وحدها صاح صوت فى جنبات المستشفى يرتل بصوت رخيم :

- وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ (٣٤) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ (٣٥) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٣٦) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُواوَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٩)

وشنفت الآذان أسماعها لمزيد ولكن سكن الصوت الرصين فى جنة المعين ..

وعادوا لتبادل النظرات والتسمع لأصوات أخرى تأتى من بعيد لمن زعم أنه انتصر وحقق أهداف حملته .. وفى ذات الوقت أصوات قريبة لمن زعم أنه انتصر بالحيلولة بين عدوهم وتحقيق أهدافه ..

والعالم يراقب برثاء جلسة من تبقى من آل غزة .. وتعالت أصوات بالوطن المحتل وبعض الدول العربية وبعواصم الدول الأوربية الأبرز لتقديم قادة العدوان فى إسرائيل للمحاكم الدولية وتقدمت منظمة غوث اللاجئين لمجلس الأمن بارتكاب هؤلاء السادة جرائم ضد الإنسانية

وعقد مؤتمر مناهضة العنصرية ..

وتجمعت الجهود التطوعية من كل فج عميق لكفكفة أدمع غزة بقوافل إغاثة برية تمكنت بعد لأى من الدخول عبر ميناء رفح البرى ..

أما البحرية التى رفعت أعلام الحرية لكسر الحصار البحرى الظالم تلك التى تغنى روادها بالوحدة الإنسانية التى أغضبت قادة الشعب المختار ووصفوهم بمعاداة السامية ..

وتصدوا لها فى أعال البحار قبل أن تصل لمياه غزة الإقليمية فوقعت حوادث مأساوية وتمزقت حناجر النشطاء إعتراضا فى كل المحافل الدولية وعلى الحدود وخلف البوابات والمجاهل اختلط الحابل بالتابل وترامت أصوات رواد الحقوق الإنسانية على الأطلال والتلال ونظمواتعبيرا عن إحتجاجه وقفات وأمسيات شعرية ومسرحيات قالوا فيها :

عولمة تقسيم الفؤاد آهات .. بعزف الكمان مقطوعات !
بغميضة طريق نهر الفتات .. ورباعية ذيل الثعلب فات
وبخارطة طريق التسكعات .. ومحاور شفط دم وخيرات
ومفترق حل دولة زنزانات.. تتحاشى مد أيد السلامات !

عولمة للأمومة جلسات .. لترطيب أفراح العذراوات
وتعتيق أحمرعنب الكرمات .. لثقافة قبول آخر توسعات
وبأعال النخيل تتدلى أمهات ..حقيقيات بجد لا بلح أمهات
تفرقت حبات من سنبلات .. وشجرات زيتون بجرافات
وقنابل عنقودية محرمات .. وفوسفورية حريق وغازات

عولمة حديقة حيوانات .. خصخصة غناء ومرضعات
إبادة إثنية محوعرقيات .. سلالة نقية لترسيم حاخامات
رب الأرض والسموات .. خلقها لكل البشر والديانات

عولمة عالم يغص بظلمات .. غربى يوزع علانية مبيدات
حرق أكباد وقلوب وكليات .. وأسواق وورد النيل والفرات

عولمة تخدير لإسعاد أوقات .. الزهو بالمريول والملاءات
ومجرد إبداء الإدانة تلسينات .. تستحق عقاب وإهانة الذات
أبمؤتمر يناهض العنصريات .. تنكرون الواحات والمنارات

عولمة دفع الخبز والحريات .. حلقات مزادات ومناقصات

تصنع للفقراء أعقد مشكلات .. بمجلس أمن الأربع جهات
وحق إعتراض دون إلتفات .. لصالح البلديات والأهليات
على الماء والكلأ والعشبيات .. قارعة تخطىء الحسابات

عولمة أنياب مخالب شركات .. تطول أو تقصر إحتمالات
لنهب الأوطان فن واتفاقيات .. تقسيم يكرر تاريخ سياسات
يا أهلى أنتم وفود المشكلات .. لا تقفوا على جسر التنهدات
تنبهوا لمطاحن المؤامرات .. وقراصنة خطف الخيرات
ما حاجتنا لتجمعات آهات .. التنفس والتهوية بالشفاطات !
وربيع القلوب عائد لنا آت .. بأوطان الأبواب لا الشرفات
فقدنا نوره وهوا الجنات .. وموقعنا على بحرالصح آيات
أمطرونا بذنوب وثقافات .. ولوم الضحية عولمة إسكات .

***

لم تسمى دوارة العفريت بل عمود السحاب وفى قول آخر الدخان ! .. حربهم التى تجددت على شعب غزة بعد أربع سنوات .. وحيث استشعر الحزب الصهيونى الحاكم حاجته لعمل يزهو به أمام ناخبيه .. نظر باحثا فيما حوله فلم يجد غير غزة لقمة ظنها كما اعتاد سهلة .. إعتدى فجاءه رد الفعل مختلفا .. لأسباب عدة أهمها أن الشعب الفلسطينى شأنه شأن كافة الشعوب العربية أتاه ربيع طلق يختال ضاحكا فتغير ينشد المشاركة فى صنع الحياة والحضارة والحرية .. وتفوق إنسانه على ما أتيح له من أدوات الدفاع والتقدم .. وفوجىء أولاد العمومة الأعداء بالصواريخ تصل لأول مرة إلى عاصمتهم فطلبوا الهدنة ولم تستمر الحرب أكثر من ثماتية أيام .. واستعد العالم لقبول فلسطين دولة مراقب بالأمم المتحدة وصارت أغانى السلا م أكثر من ممكنة !

تمت بحمد الله ..
محمد بهاء الدين فودة ..